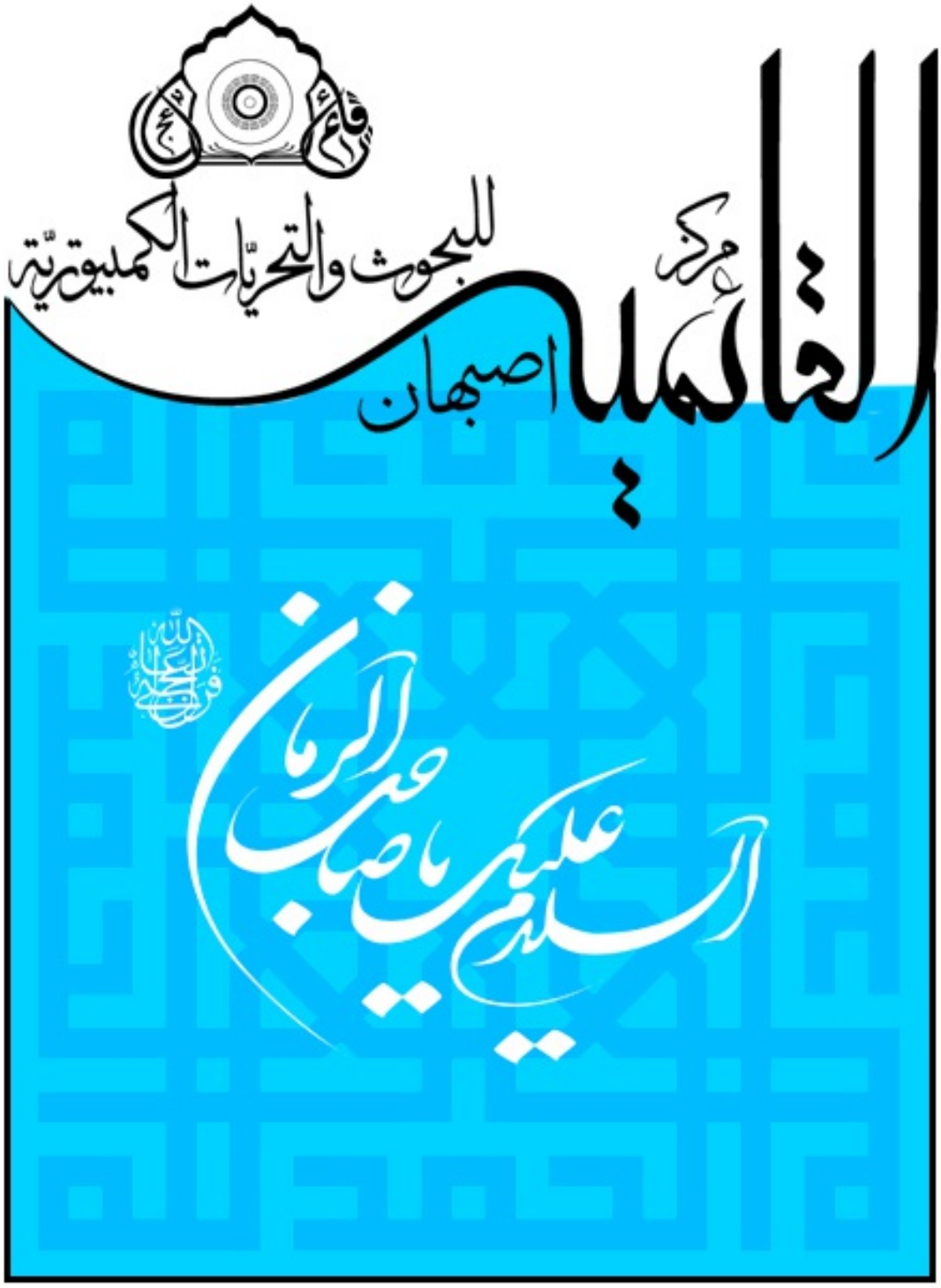

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الدكتور عبد المنعم عبد الله

أبو الفرج

فجر الفرج

جلد (١)

عالم الكتب
بيروت

مكتبة الكليات الأزهرية
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الازهر فى الف عام

كاتب:

خفاجى، محمد عبدالمنعم

نشرت فى الطباعة:

عالم الكتب

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الازهر فی الف عام المجلد ۱ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
آراء المفکرین فی الأزهر ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
کتب عباس محمود العقاد عن الأزهر: ----- ۱۰
و کتب دائرة معارف کولیرز» Colliers «: ----- ۱۰
و کتب الشیخ علی الطنطاوی من علماء سوریا: ----- ۱۱
و کتب الدکتور احمد زکی: ----- ۱۱
تصدیر ----- ۱۱
المقدّمة ----- ۱۱
الباب الأوّل الأزهر خلاک التاریخ ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الفصل الأوّل مصر الإسلامیّة قبل إنشاء الأزهر ----- ۱۲
- ۱- ----- ۱۲
- ۲- ----- ۱۳
- ۳- ----- ۱۴
الفصل الثانی مصر فی ظلاک الدولة الفاطمیّة ----- ۱۵
تمهید: ----- ۱۵
بدء الدعوة للفاطمیة: ----- ۱۵
قیام الدولة الفاطمیة: ----- ۱۵
جوهر الصقلی فاتح مصر: ----- ۱۶
المعز الملک الفاطمی: ----- ۱۷

الفصل الثالث تأسیس الأزهر و بدء حیاته الجامعیّة ۱۸
الفصل الرابع الأزهر فی ظلاک الفاطمیین ۲۴
تمهید: ۲۴
الأزهر فی عصر الحاکم: ۲۴
مشارکة الأزهر فی الحیاة العقلیّة فی عصر الفاطمیین ۲۶
الأزهر جامع الدولة الرسمی: ۳۴
الأزهر و تجدید مبانیه: ۳۷
الفصل الخامس الأزهر فی عهد الدولة الأیوبیّة ۴۱
التاریخ السیاسی للدولة: ۴۱
الأزهر فی عهد الدولة الأیوبیة: ۴۲
أشهر العلماء فی عصر الدولة الأیوبیّة هل للأزهر و أثر الأزهر فیهم؟ ۴۴
الفصل السادس الأزهر فی ظلاک دولتی المماالیک ۶۵۷- ۹۲۳ ه ۴۵
التاریخ السیاسی لهذا العصر: ۴۵
الأزهر فی هذا العصر ۴۶
۱- فی عهد السلطان بیبرس و السلاطین بعده: ۴۶
جلال الدین السیوطی ۵۳
الفصل السابع الأزهر فی عهد الدولة العثمانیّة ۹۲۳- ۱۲۲۰ ه ۵۵
تمهید: ۵۵
الحرکة العلمیة فی الأزهر: ۵۶
نصیب الأزهر من التعمیر فی هذا العصر: ۵۸
الأزهر و الحرکة العلمیة فی هذا العهد: ۶۱
الأزهر و تاریخنا القومی: ۶۳
الشهاب الخفاجی المصری ۹۷۵- ۱۰۶۹ ه ۶۵
مکانته العلمیة: ۶۶

ثقافة الشهاب: ۶۷
مؤلفات الخفاجي: ۶۸
الفصل الثامن الأزهر بعد الحكم العثماني ۷۱
الأزهر و الغزو الفرنسي لمصر: ۷۱
جهاد الأزهر الوطني في الحملة الفرنسية و ما بعدها: ۷۳
اما الذين حوكموا رسميا من العلماء باعتبارهم من زعماء الثورة فهم: ۷۴
عمر مكرم الأزهري الزعيم المصري الخالد: ۷۵
و بادر مكرم بأن جمع العلماء و قال لهم: ۷۸
فحوك العلماء في قرنين ۷۸
الشيخ أبو الحسن البكري خطيب الأزهر ۷۹
الباب الثاني تاريخ الأزهر الحديث ۸۱
اشارة ۸۱
الفصل الأول القوّة الشعبيّة بعد الحملة الفرنسيّة ممثلة في الأزهر ۸۱
اشارة ۸۱
الأزهر يسير في حياته العلمية: ۸۴
حادثة الشوام: ۸۵
جهاد الأزهر في الثورة العرابية: ۸۵
الأزهر يغذي ثورة عرابي: ۸۶
قوانين الأزهر ۹۱
الفصل الثاني بعد الثورة العرابيّة ۹۱
الفصل الثالث الأزهر و الحركة الوطنية عام ۱۹۱۹ ۹۳
اشارة ۹۳
الأزهر بعد الثورة المصرية ۹۵
الفصل الرابع الثورة المصريّة الثالثة و الازهر ۹۷

اشارة ----- ۹۷
قانون الازهر الجدید ----- ۹۷
اشارة ----- ۹۸
۱- المجلس الأعلی للأزهر ----- ۹۸
۲- مجمع البحوث الاسلامیة ----- ۹۸
۳- ادارة الثقافة و البعوث الاسلامیة ----- ۹۸
۴- جامعة الأزهر ----- ۹۸
و ثورة فی الأزهر أیضا ----- ۹۹
النوابغ الذین تخرجوا فی الأزهر ----- ۹۹
أشهر رجال الأزهر فی أوائل القرن الرابع عشر الهجری ----- ۱۰۰
نظرة إلی المستقبل ----- ۱۰۱
ثورة التطویر فی الأزهر ----- ۱۰۲
انها ثورة جدیدة استحدثها قانون تطویر الأزهر ----- ۱۰۲
هذا هو الأزهر الجدید ----- ۱۰۳
الباب الثالث شیوخ الأزهر ----- ۱۰۳
اشارة ----- ۱۰۴
الفصل الأول مشیخة الأزهر و شیوخه ----- ۱۰۴
وظیفة خطیب الأزهر: ----- ۱۰۴
منصب مشیخة الأزهر: ----- ۱۰۵
شیوخ الأزهر: ----- ۱۰۸
الفصل الثانی تراجم لبعض شیوخ الأزهر ----- ۱۱۹
الشیخ محمد الأحمدی الظواهری ----- ۱۱۹
الشیخ محمّد مصطفی المراغی ----- ۱۲۱
الشیخ مصطفی عبد الرازق ----- ۱۲۹

الشیخ مأمون الشنّاوی شیخ الأزهر ۱۸۸۰- ۱۹۵۰ ---- ۱۳۶
- ۱- ---- ۱۳۶
- ۲- ---- ۱۳۷
- ۳- ---- ۱۳۷
- ۴- ---- ۱۳۸
- ۶- ---- ۱۳۹
اشارة ---- ۱۳۹
- ۷- ---- ۱۴۰
الأستاذ الأکبر الشیخ عبد المجید سلیم ---- ۱۴۱
الأستاذ الأکبر الشیخ ابراهیم حمروش ---- ۱۴۲
الأستاذ الأکبر الشیخ محمّد الخضر حسین ---- ۱۵۲
الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج ---- ۱۵۶
الأستاذ الأکبر الشیخ محمود شلتوت ---- ۱۵۷
الشیخ حسن مأمون ---- ۱۶۱
الأستاذ الأکبر الشیخ محمّد الفحّام ---- ۱۶۱
اشارة ---- ۱۶۲
۱- الشیخ خالد الأزهری: ---- ۱۶۳
۲- بحث آخر موضوعه سیبویه: ---- ۱۶۳
الفهرس ---- ۱۶۳
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۱۶۵

الازهر فی الف عام المجلد ۱

اشارة

نام کتاب: الأزهر فی ألف عام

نویسنده: خفاجی، محمد عبدالمنعم

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۳

ناشر: عالم الکتب

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۸ ه. ق

نوبت چاپ: دوم

آراء المفکرین فی الأزهر

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

کتب عباس محمود العقاد عن الأزهر:

«یکفی تاریخ کل فترة من حیاة هذا المعهد الخالد للتعریف بوظیفته التی استقر علیها، و بیان مکانته التی تبوأها من الأمة فی أیام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلین علیها، فقد تقرر بحکم العرف و التقلید و حکم العقیدة و السمعة أنه صوت الأمة الذی یسمعه الحاکم الدخیل من المحکومین. و أنه ملاذ القوة الروحیة فی نفوس أبناء الأمة و فی نفوس الحاکمین الذین یدینون بعقیدتها ..»

و کتب دائرة معارف کولیرز» Colliers «:

... و یفد إلی الأزهر الألوف من دول العالم الإسلامی و یعتبر أقدم جامعة فی العالم تدرس علوم القرآن و الشریعة مع العلوم التطبیقیة و الأکادیمیة.

و قال د. ثروت عکاشة وزیر الثقافة فی مصر فی الندوة الدولیة للعید الألفی للقاهرة المنعقدة فی مارس ۱۹۶۹.

و لقد هیىء لهذه المدینة منذ إنشائها أن تقوم فیها أقدم جامعة فی العالم و هی جامعة الأزهر التی کانت منذ إنشائها منهلا للثقافة الدینیة، مکنت القاهرة بذلک أن تحمی لواء الثقافة الدینیة بین شعوب العالم الإسلامی. کما کانت تلک الجامعة الأزهریة مشعلا للفکر. فأیقظت

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶

الرأی و أنارت الطریق أمام المفکرین. و کذلک کانت المنبعث للنهضة العربیة فی القرن الماضی. و أصبحت کعبة للقاصدین فی الشرق و الغرب.

ثم قال: إن مما زاد من شأنها وقوعها فی منطقة بین بحرین و بین قارتین و لقد مکن لها هذا الموقع أن تصبح حاضرة من حواضر العالم منذ زمن قدیم و أن تتجمع فیها ثقافات فرعونیة و أغریقیة و لاتینیة و بیزنطیة و إسلامیة و مسیحیة. فاکتسبت بهذا مکانة و منزلة علی مر السنین.

یقول الدکتور بییر دودج P .Dodge فی کتابه عن «

الأزهر»: «إن الأزهر ظاهرة ظهرت مع الزمن شیئا فشیئا، عشرة قرون قام فیها حارسا أمینا علی الدین الاسلامی و علی اللغة العربیة»:

و کتب الشیخ علی الطنطاوی من علماء سوریا:

«أولئکم علماء الأزهر، و هل فی الدنیا معهد علم له قدم الأزهر، و عظمة الأزهر، و أثر الأزهر فی الفکر البشری و فی الحضارة الإنسانیة؟

أی معهد یجر وراءه أمجاد الف سنة؟ فالأزهر درة الدهر تکسرت علی جدرانه أمواج القرون و هو قائم ..»

و کتب الدکتور احمد زکی:

«إنی أدعو کل مفکر أن یفکر فی الأزهر، و کل کاتب أن یکتب فی الأزهر مدرسة الإسلام الکبری، لیتحقق للأزهر ما یبتغیه و ما ینبغی له علی ضوء من الفکر هاد إن شاء اللّه».

و کتبت دائرة معارف القرن العشرین: إن الجامع الأزهر هو أقدم جامعة علمیة فی العالم، و یعتبر مرکزا لنشر علوم القرآن عبر التاریخ.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷

تصدیر

الأزهر هو النشید الإسلامی الخالد، الذی تردده الأجیال، و تتناقله الألسن من جیل إلی جیل، علی مر العصور ..

و الجامع الأزهر هو الدعامة الأولی التی استطاع الفاطمیون من ألف سنة أن یحققوا بها أهدافهم الدینیة و السیاسیة، و أن یهیمنوا بها علی الشعوب الاسلامیة؛ و لا یزال المحراب الرابع الذی یقدسه و یجله المسلمون کافة، فی مشارق الأرض و مغاربها.

و الجامعة الأزهریة هی أقدم و أعرق الجامعات العلمیة فی العالم کله حتی الیوم.

و إن هذا التاریخ الخالد، و التراث العظیم، و المشارکة الجبارة، للأزهر الشریف، فی الحیاة المصریة و الإسلامیة عامة .. لهی الدافع الأکبر لنا علی إخراج هذا التاریخ الحافل للأزهر، فی ذکری بنائه الألفیة.

و إنه لمن دواعی الفخر للأزهر الشریف أن ینظر إلیه المسلمون کافة خلال العشرة القرون الماضیة، نظرة مملوءة بالإکبار و الإجلال، و أن یعتبروه کعبتهم الثانیة التی استبدت بشرف المحافظة علی التراث الإسلامی المجید.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۸

و فی هذه الدراسة تأریخ لحیاة هذه الجامعة العریقة، من شتی جوانبها الروحیة و العقلیة و العلمیة و التاریخیة .. و اللّه ولی التوفیق، و واهب السداد، و ما توفیقی إلا باللّه ..

المؤلف

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۹

المقدّمة

الأزهر فی مقدمة الجامعات العلمیة التی سارت مع التاریخ أجیالا- طوالا- فهو أطولها عمرا، و أجلها أثرا فی تاریخ الفکر العربی و الإسلامی؛ و إن ألف سنة أو تزید، قضاها الأزهر الجامعی، و شاهد أحداثها الضخمة، و اشترک فیها فی هذه الأحداث مؤثرا و موجها و بانیا؛ لتاریخ ممعن فی الطول، لا یمکن استیعاب حیاة جامعة علمیة لم تدون أخبارها فیه، إلا بمشقة و عسر و جهد و إرهاق شدید .. و لم تعمر فی الشرق جامعات علمیة غیر الأزهر فی القاهرة، و الزیتونة فی تونس ..

و لکن الأزهر ینفرد بضخامة ما أحدث من آثار فی تاریخ العرب و المسلمین، من شتی النواحی الروحیة و الثقافیة و الفکریة و السیاسیة و القومیة و الاجتماعیة، بل و الاقتصادیة کذلک.

و الأزهر- طول عصور التاریخ- حارس التراث العربی، و مجدد الثقافة الإسلامیة، و المشعل الذی یضیء و لا یخبو، و الملاذ الذی تهوی إلیه أفئدة المسلمین من کل مکان، و الضوء ینیر لهم الطریق، و یبصرهم سواء السبیل ... و الأزهر الیوم یتدثر برداء هذا المجد الخالد، و ذلک التاریخ القدیم المجید، و إن کان قد أصبح وئید الأثر و التأثیر فی حیاة الناس، فی المادیة المظلمة التی یعش فیها عصرنا الحاضر، و سار وراء المتنافسین فی میدان التجدید و الابتکار و الیقظة الفکریة، و قیدته أغلال ثقیلة من الرکود و فقدان الحیویة، و أساءت إلی سمعته بین الناس التیارات

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰

السیاسیة التی کانت تدخل فی العصور السابقة إلی أروقته و محاریبه و معاهده، هدامة، قاطعة ما بین الأزهر و الناس من أسباب، و استغلال بعض الناس له، حفاظا علی منصب، أو تملقا لذی سلطان.

و لکن الأزهر- مع ما انتابه فی بعض الأحایین من الحیرة و التردد- یسیر الیوم منطلقا إلی غایاته و أهدافه و مثله، یتطلع فی نظرة الواثق إلی المستقبل، و یحتقر هؤلاء المترددین و الحائرین و المعوقین، و تنظر مئذنته الشماء فی سخریة و إشفاق و احتقار، إلی الذین یحاولون أن یبنوا و أن یهدموا، فلا یستطیعون هدما و لا بناء.

و الأزهر الیوم یأبی النوم و الحیاة حوله صاخبة مضطربة متحرکة، و هو یکره اللهو و قد خلقه اللّه و خلق الحیاة للعمل و الجد و الحیویة و النشاط.

و إذا کانت أول خطوة لفهم الإنسان لنفسه و لرسالته فی الحیاة هی أن یعرف تاریخه، و یعی ماضیه، و یدرس ما یتصل به من مقومات و خصائص و تراث، فإن هذا الکتاب لمما یساعد علی هذه الدراسة و تلک المعرفة و هذا الوعی؛ التی هی العنصر الأول فی البعث و الیقظة و الإحیاء ..

و إنی لأقدمه إلی القارىء، معتزا بأنی أقدم له ثمرة مجهود شاق، و بتوفیق اللّه الذی لا ینسانی، و ما توفیقی إلا باللّه ...

المؤلف

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۱

الباب الأوّل الأزهر خلاک التاریخ

اشارة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳

الفصل الأوّل مصر الإسلامیّة قبل إنشاء الأزهر

-۱-

فتحت مصر فی عهد عمر بن الخطاب عام ۱۸ ه علی ید عمرو بن العاص، و بنی بها مسجده الجامع المعروف الیوم باسم «جامع عمرو بن العاص» عام ۲۱ ه ، و اختط الجیزة فی هذه السنة أیضا، کما اختط مدینة الفسطاط حول مسجده الجامع، و اتخذها عاصمة مصر، و حفر خلیج أمیر المؤمنین الموصل للنیل بالبحر الأحمر .

و وفد کثیر من القبائل العربیة علی مصر زرافات و وحدانا، و أقاموا بها، و ذاعت اللغة العربیة بین أهلیها، بسبب اتصال العرب بأهل مصر و اختلاطهم بهم.

و قد استقر بمصر کثیر من الصحابة و مشاهیر التابعین و أتباع التابعین ، و نشأت بها طبقة من المجتهدین کاللیث بن سعد المتوفی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴

عام ۱۷۵ ه، و هاجر الیها الإمام الشافعی المتوفی عام ۲۰۴ ه، و خلفه البویطی المصری المتوفی عام ۲۳۱ ه .

و قد نمت الحرکة العلمیة فی الفسطاط، و کثرت الحلقات فی مسجد عمرو الذی کان مرکزا علمیا لنشر الدین الإسلامی و تعالیمه السمحة ..

و کبرت هذه الحرکة العلمیة و اتسعت، و نمت و ازدهرت، و أم هذا المسجد الجامع کثیر من العلماء الأعلام، و الأئمة المجتهدین، ممن أفادوا العالم الإسلامی، و أدوا له خدمة صادقة فی میادین الدین و الشریعة، و اللغة و العلوم .. و أشهر هؤلاء: عبد اللّه بن عمرو بن العاص، و عبد اللّه بن لهیعة، ثم اللیث بن سعد .. و قد کان للإمام محمد بن إدریس الشافعی بمسجد عمرو زاویة یدرس فیها مذهبه، و یدون آراءه، و علی یدیه تخرج کثیر من العلماء الفضلاء الذین دونوا مذهبه، و نشروا علمه: کالربیع بن سلیمان، و المازنی، و البویطی، و غیرهم .. و کان أبو تمام یسقی الماء فی جامع عمرو، و فیه کانت دراسته الأولی.

و قد انتشر المذهب الشافعی فی مصر علی یدی الشافعی و تلامیذه، و من قبل کانت السیادة للمذهب المالکی، الذی کان أول من أدخله إلی مصر عثمان بن الحکم الجذامی المتوفی عام ۱۶۳ ه. کما کان أول محاولة لنشر المذهب الحنفی فیها علی ید القاضی إسماعیل بن سمیع الکندی ، الذی ولاه العباسیون قضاء مصر عام ۱۶۴ ه، فعمل علی نشر مذهب أبی حنیفة فیها، و کرهه المصریون من أجل ذلک کرها شدیدا.

و یذکر السیوطی فی کتابه حسن المحاضرة کثیرا ممن کانوا بمصر من

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵

حفاظ الحدیث و نقاده ، و من المحدثین الذین لم یبلغوا درجة الحفظ ، کما یذکر من کان بها من الفقهاء الشافعیة و المالکیة و الحنفیة .. أما الحنابلة فکانوا قلیلین فیها، و لم یسمع السیوطی کما یقول بخبرهم إلا فی القرن السابع و ما بعده .. کما یذکر من کان بها من أئمة القراءات ، و من الصلحاء و الزهاد و الصوفیة و أئمة النحو و اللغة ، و أرباب المعقولات و علوم الأوائل و الحکماء و الأطباء و المنجمین ، و قد ظل التدریس فی الجامع العتیق عامر الحلقات مدة طویلة.

خضعت مصر- أول ما خضعت للحکم لإسلامی- للخلفاء الراشدین، ثم لدولة بنی أمیة، ثم لدولة بنی العباس، و کان یختار لها ولاة یثق بهم الخلفاء

-۲-

و استقل بمصر أحمد بن طولون و کان قد ولی الحکم فیها سنة ۲۵۳ ه، ثم أضیفت إلیه نیابة الشام و العواصم و الثغور و إفریقیة، فأقام بها مدة طویلة، و بنی جامعه المشهور، و کان میلاده فی بغداد عام ۲۱۴ و کان أبوه طولون من الأتراک الذین أهداهم نوح السمانی عامل بخاری إلی المأمون.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶

و استمر ابن طولون أميرا على مصر حتى مات بها عام ۲۷۰ ه ، و ولى بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، و ظل أميرا على مصر حتى قتل عام ۲۸۲ ه، و ولى بعده ابنه «جيش» فأقام تسعة أشهر قتل بعدها، و خلفه أخوه هارون بن خمارويه الذى ظل أميرا على مصر حتى قتل عام ۲۹۲ ه، و ولى عمه أبو المغانم شيبان، فورد من قبل المكتفى بعد اثنى عشر يوما من ولايته محمد بن سليمان الواثقى الذى سلم إليه شيبان الأمر، و استصفى أموال آل طولون، و انقضت الدولة الطولونية، و امحت أيامها من تاريخ مصر السياسى.

كان من البدهى أن تكون عاصمة الملك فى أيام الدولة الطولونية هى مدينة أحمد بن طولون، و أصبح مسجده المشهور محط الرحال، و مجلس العلماء، و مستقرا للحلقات العلمية الكثيرة التى تدرس فيها علوم الدين و اللغة و الأدب .. و ظهر فى مصر و فى حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء و الأئمة و الأدباء و الشعراء.

و مع ذلك فقد ظل «مسجد عمرو» يؤدى رسالته بجانب المسجد الطولونى الكبير، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات و العلماء، حتى لبروى أنه كان فيه قبل عام ۷۴۹ ه بضع و أربعون حلقة، لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه .

أسس جامع ابن طولون عام ۲۶۳ ه، فى مدينة أحمد بن طولون التى سماها «القطائع»، و فرغ من بنائه عام ۲۶۶ ه. و صلى فيه القاضى بكار إماما و خطب فيه أبو يعقوب البلخى، و أملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى ، و ظلت الحلقات العلمية فيه إلى أمد بعيد، فكانت فيه دروس للتفسير و الحديث و الفقه على

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۷

المذاهب الأربعة، و القراءات و الطب و الميقات .. و كان أعمر ما يكون فى دولة بنى طولون.

-۳-

و فى عام ۳۲۱ ه ولى على مصر من قبل خلفاء بنى العباس محمد ابن طغج الإخشيدى الذى أقام الدولة الإخشيدية فى مصر و الشام، و مات فى ذى الحجة عام ۳۳۴ ه، و خلفه ابنه أبو القاسم أنوجور و كان صغيرا، فأقيم أستاذه كافور الإخشيدى وصيا عليه، و حكم المملكة باسمه، و مات أنوجور عام ۳۴۹ ه، فقام أخوه على مقامه حتى مات عام ۳۵۵ ه، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعى له على المنابر فى مصر و الشام، و مات عام ۳۵۷ ه، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد، فأقام شهورا حتى فتح الفاطميون مصر، و انتزعها جوهر الصقلى منه عام ۳۵۸ ه.

و فى عهد الدولة الإخشيدية ظل المسجد العتيق و مسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية.

كانت الحلقات العلمية فى هذين المسجدين حافلة بالعلماء و المتعلمين، و كانت تعقد حلقات خاصة فى منازل أكابر العلماء و الفقهاء، حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم، يقرأون و يدرسون بعض شروح الفقه الإسلامى، و بعض كتب العبادات و التصوف و اللغة و الأدب، و من ذلك حلقة ببيت عبد اللّه بن الحكم الفقيه المالكى و ولديه عبد الرحمن و محمد، و كانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث ... و هذه الأسرة هى التى أكرمت وفادة الإمام الشافعى فى مصر .. و فى القرن الرابع كان العلماء فى المسجد العتيق و المسجد الطولونى عديدين، و كان من أشهرهم: أبو القاسم بن قديد، و تلميذه الكندى صاحب الكتاب

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸

المشهور فى تاريخ ولاة مصر و قضاتها، و أبو القاسم بن طباطبا الحسنى الشاعر .. و كانت مجالس الدراسة و الحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة المصرية العالية، و شجع الإخشيدى و خلفاؤه العلوم و الآداب و دراسة الشريعة، و كانت حلقة المتنبى الذى وفد إلى مصر عام ۳۴۶ ه- ۵۹۷ م من أحفل مجالس الأدب و الشعر و النقد.

و لقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۹

الفصل الثانی مصر فی ظلاک الدولة الفاطمیّة

تمهید:

إن شیعة علی کرم اللّه وجهه بعد قتل علی ظلت تتوارث الدعوة إلی خلافة آل البیت، لإعادة الملک و الخلافة للعلویین، و زعم الکثیر منهم أن الخلافة لم تصح و لن تصح لغیر أهل البیت من أولاد علی .. و لما عجز العلویون عن الاستحواذ علی السلطة من طریق السیاسة و القوة، لقتل من خرج من أئمتهم، التمسوها من طریق الدین، فقالوا: إن اللّه لا یترک خلقه بدون إمام حق، و اعتقدوا أن ذلک الإمام هو المهدی المنتظر، الذی یبید المغتصبین، و یحیی مجد بیت رسول اللّه.

بدء الدعوة للفاطمیة:

فی عام ۲۸۰ ه- ۸۹۳ م ذهب أحد دعاة الشیعة، و اسمه «أبو عبد اللّه الشیعی» إلی بلاد البربر بشمالی إفریقیة، داعیا لعبید اللّه بن محمد من نسل جعفر الصادق، فنجح فی دعوته «و طرد الأمیر الأغلبی الحاکم لتلک البلاد التابع للدولة العباسیة، و ذلک عام ۲۹۶ ه- ۹۰۸ م، و أعلن أن الخلیفة الحقیقی للمسلمین و رئیس دینهم المنتظر هو إمامه «عبید اللّه» الملقب بالمهدی، من نسل فاطمة بنت رسول اللّه، و لذلک سمیت سلالته بالفاطمیین.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰

قیام الدولة الفاطمیة:

حضر عبید اللّه إلی بلاد المغرب، و ظل ملکا علیها مدة کبیرة (۲۹۷- ۳۲۲ ه: ۹۱۰- ۹۳۴ م)، کان الأمر فیها کله بیده، و أخضع قبائل العرب، و البربر، و دان له الحاکم المسلم الوالی علی جزیرة صقلیة، و جاهد فی سبیل نشر الدین و محاربة البدع فی تلک البلاد، و کان من أکبر أمانیه فتح مصر، فأرسل لغزوها ثلاثة جیوش: اثنین منها بقیادة ابنه «أبی القاسم» فحال دون نجاحه عدة أمور، منها مجاعة فی المغرب حدثت عام ۳۱۶ ه، و وباء فشا فی أحد هذه الجیوش، و فتکت عدواه بأهل المغرب .. و شغل عبد اللّه بالأمور الداخلیة باقی حیاته.

و فی عام ۳۲۲ ه- ۹۳۴ م خلفه ابنه الأکبر «القائم بأمر اللّه أبو القاسم محمد»، فبذل غایة همته فی توسیع نطاق ملکه، و أرسل أسطولا أغار علی شواطیء إیطالیا و فرنسا و الأندلس، و أرسل جیشا إلی مصر هزمه الإخشید، و وطد ملکه فی شمال إفریقیة.

و خلفه «المنصور إسماعیل» سنة ۳۳۳ ه- ۹۴۵ م، فسار فی الملک سیرة أبیه نحو سبع سنوات.

و لما مات خلفه ابنه «المعز لدین اللّه أبو تمیم معد» سنة ۳۴۱ ه- ۹۵۳ م، فکانت أیامه مبدأ عصر جدید فی تاریخ الفاطمیین، و کان مثقفا ثقافة عالیة، سیاسیا داهیة، وطد ملکه فی بلاد المغرب، فدانت له جمیع رؤساء القبائل المغربیة، و خضعت له مراکش بأکملها حتی شواطیء المحیط الأطلسی .. ثم صرف همه لفتح مصر، فحفر الآبار، و بنی أماکن للاستراحة فی الطریق الموصل إلیها، و کانت مصر وقتئذ فی اضطراب لحقها عقب وفاة کافور، و لم یکن فی وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد غارات القرامطة، و کان دعاة المعز ینشرون دعوتهم فی أنحاء کثیرة من القطر المصری .. و وکل المعز قیادة الجیش الفاتح إلی أکبر قواده، و هو جوهر الصقلی الرومی الأصل، و کان تحت

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱

إمرته مائة ألف مقاتل مزودین بالآلات الحربیة، و بالمال الکثیر.

جوهر الصقلی فاتح مصر:

ولد جوهر بجزیرة صقلیة نحو عام ۳۰۰ ه، و مع أنه رومی الأصل إلا أنه نشأ فی صقلیة نشأة إسلامیة خالصة، فقد دخل الإسلام جزیرة صقلیة سنة ۲۱۲ ه، و یرجح المؤرخون ان أباه کان مسلما .

و اتصل جوهر ببلاط المعز، و یبدو أنه کان فی حاشیته العسکریة، و قد قربه الخلیفة الفاطمی، لما توسمه فیه من الإخلاص للدین، و لمواهبه الفذة و ثقافته الواسعة، و ظل یتدرج فی سلک المناصب فی دولة المعز، حتی اتخذه المعز کاتبا له عام ۳۴۱ ه- ۹۵۳ م، و هی السنة التی ولی المعز فیها الخلافة، ثم رقاه إلی منصب الوزارة سنة ۳۴۷ ه، و ولاه قیادة جیش کثیف لتوسیع ملک المعز فی شمالی إفریقیة، و قد انتصر جوهر، و توغل فی فتوحه حتی وصل إلی شاطیء المحیط الأطلسی.

و لما فکر المعز فی فتح مصر أسند لجوهر قیادة الجیش الفاتح، و لما رحل جوهر من القیروان إلی مصر فی یوم السبت ۱۴ ربیع الثانی عام ۳۵۸ ه- فبراير ۹۶۹ م، خرج الخلیفة لتودیعه بنفسه، و قال: و اللّه لو خرج جوهر وحده لفتح مصر و لیدخلن إلی مصر بالأردیة من غیر حرب، و لینزلن فی خرابات ابن طولون، و یبنی مدینة تقهر الدنیا، و انشد ابن هانی الأندلسی المعزّ قصیدته:

رأیت بعینی فوق ما کنت أسمعو قد راعنی یوم من الحشر أروع

غداة کأن الأفق سد بمثلهفعاد غروب الشمس من حیث تطلع

فلم أدر إذ ودعت کیف أودعو لم أدر إذ شیعت کیف أشیع

ألا إن هذا حشد من لم یذق لهغرار الکری جفن و لا بات یهجع

إذا حل فی أرض بناها مدائناو إن سار من أرض غدت و هی بلقع

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲ تحل بیوت المال حیث محلهو جم العطایا و الرواق المرفع

و کبرت الفرسان للّه إذ بداو ظل السلاح المنتصی یتقعقع

و عب عباب الموکب الفخم حولهورق کما رق الصباح الملمع

رحلت إلی الفسطاط أول رحلةبأیمن فأل بالذی أنت تجمع

فإن یک فی مصر ظماء لموردفقد جاءهم نیل سوی النیل یهرع

و وصل جوهر إلی برقة، و منها سار حتی الإسکندریة فی رجب ۳۵۸ ه، ثم استمر فی سیره فدخل مصر وقت الزوال من یوم الثلاثاء ۱۷ شعبان عام ۳۵۸ ه بناء علی صلح عقد بین المصریین و الفاطمیین، و جاء فی وثیقة الصلح الرسمیة : إنه یتعهد ب «نشر العدل، و بسط الحق، و حسم الظلم، و قطع العدوان، و نفی الأذی و رفع الحزن، و القیام فی الحق، و إعانة المظلوم، مع الشفقة و الإحسان، و جمیل النظر و کرم الصحبة، و لطف العشرة و افتقاد الأحوال، و حیاطة أهل البلد فی لیلهم و نهارهم الخ».

و اتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سرورا عظیما، و نظم ابن هانیء أمامه قصیدته:

تقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟فقل لبنی العباس: قد قضی الأمر

و أخذ جوهر یعمل علی بث الدعوة للمعز الفاطمی فی مصر خاصة و لأهل بیته من العلویین عامة، و اختط مدینة القاهرة المعزیة، و بنی الأزهر الشریف، و صار جامع عمرو و جامع ابن طولون و الجامع الأزهر مراکز للدعایة لعقائد العلویین الفاطمیین و دعوتهم، کما کانت الدعوة لهذا المذهب تذاع علی یدی داعی الدعاة و من کان یعاونه من الدعاة.

خطب للمعز فی جامع عمرو فی التاسع عشر من شعبان سنة ۳۵۸ ه- ۹۶۹ م، و کان ذکر المعز فی خطبة الجمعة بدل اسم الخلیفة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳

العباسی حادثا خطیرا فی تاریخ مصر، و فی یوم الجمعة ۱۸ من ذی القعدة سنة ۳۵۸ ه دعا الخطیب لآل البیت و زاد فی الخطبة: «اللهم صل علی محمد المصطفی، و علی علی المرتضی، و علی فاطمة البتول، و علی الحسن و الحسین سبطی الرسول الذین أذهب اللّه

عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين» ... و فى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ ه صلى جوهر بجامع ابن طولون و أذن المؤذنون: «حى على خير العمل» ..

أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية.

و لا ننسى أن نذكر أن جوهرا قد وضع أساس المدينة الجديدة «القاهرة المعزية» فى الليلة التى دخل فيها مدينة الفسطاط، أى فى ١٧ شعبان ٣٥٨ ه- ١٧ يوليو ٩٦٩ م و أقام فيها قصر الخليفة المعز، و وضع أساسه فى اليوم التالى .. و تشمل القاهرة المعزية على ما رواه المقريزى أحياء: الجامع الأزهر و الجمالية و الحسينية و باب الشعرية و الموسكى و الغورية و باب الخلق، و قد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن، و كانت بولاق هى ميناء القاهرة، و قد أصبحت بولاق بعد ذلك بمدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ ه، عندما أمر الملك الناصر بعمارتها و بنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس و عمروها. و قد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هى بابا زويلة و باب النصر و باب الفتوح.

و بعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية ، و دخل القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ه نصف يونيو ٩٧٣ م، و ظل ملكا على مصر حتى توفى عام ٣٦٥ ه، و توفى بعده جوهر بمدة كبيرة، و ذلك عام ٣٨١ ه (٢٠/ ١ ابن خلكان).

الأزهر فى ألف عام، ج ١، ص: ٢٤

المعز الملك الفاطمى:

هو الخليفة الفاطمى الرابع، ينتسب إلى رسول اللّه عن طريق ابنته فاطمة الزهراء و إلى على بن أبى طالب ابن عم الرسول.

ولد بمدينة المهدية قرب القيروان، و هى عاصمة الفاطميين، و ذلك فى ١١ رمضان سنة ٣١٧ ه، و أمه أم ولد. و ربى تربية عالية، و كان ولى عهد أبيه المنصور، و ولى الخلافة عام ٣٤١ ه .. و فى عام ٣٤٨ فتحت جيوشه بقيادة جوهر مصر.

خرج المعز من المنصورية دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ ه: ٥ أغسطس عام ٩٧٢ .. و دخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ ه: ٢٩ مايو ٩٧٣ م.

و قد دخل القاهرة عام ٣٦٢ ه- ٩٧٣ م، و توفى فى ١٤ ربيع الثانى ٣٦٥ ه- ٢٠ ديسمبر ٩٧٥ م، بعد أن وسع دولته، و صبغها بصبغة عالية من الحضارة و الرقى و النهضة، و كانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم.

كان نقش خاتم المعز يحمل شعار دولته و هو «لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد، لتوحيد الإله العظيم دعا الامام أبو تميم».

و قد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين: أحدهما مصرى و الآخر مغربى .. و كان عهده على قصره من أزهى عصور مصر و أزهرها، و زادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة. و كانت القاهرة إذ ذاك تسمى «المدينة»، و كانت فى الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين و لواحقهما:

بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة، و كان بين القصرين ميدان عظيم يكفى لاستعراض ١٠٠٠٠ جندى، و كان ثروة الأسرة المالكة زمن المعز و بعده فوق ما يتصور، فإن إحدى بناته ماتت و تركت وراءها ما يعادل ٢٠٠، ٠٠٠، ٢ دينارا، و أخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد و مقادير كثيرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضى مطعم.

الأزهر فى ألف عام، ج ١، ص: ٢٥

و قد بذل «المعز» غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس و احترامهم له، بعدله، و حسن إدارته و التفاته إلى جميع دقائق شؤونهم. فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج، و زاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام. و منع جنده من البقاء فى المدينة بعد الغروب، اجتنابا لما عساه أن يحدث من الهياج، و ألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين، للخسارة التى كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة، و بذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين.

و کان للمعز عدة أبناء، و من بناته رشیدة بنت المعز، و عبدة بنت المعز .

و قد خلف المعز ابنه العزیز باللّه أبو منصور نزار ۳۶۵- ۳۸۶ ه:

۹۷۵- ۹۶۶ م، و کان یعقوب بن کلس أکبر وزرائه.

و بعده تولی حکم مصر الحاکم بأمر اللّه أبو علی منصور ۳۸۶- ۴۱۱ ه: ۹۹۶- ۱۰۲۱ م، و قد مات مقتولا.

و خلفه ابنه الظاهر لإعزاز دین اللّه أبو الحسن علی ۴۱۱- ۴۲۷ ه:

۱۰۲۱- ۱۰۳۶ م.

و تولی بعده ابنه المستنصر باللّه أبو تمیم معد ۴۲۷- ۴۸۷ ه:

۱۰۳۶- ۱۰۹۴ م .. و ظل الفاطمیون یتوارثون حکم مصر ، حتی انتهی ملکهم منها عام ۵۶۷ ه.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷

الفصل الثالث تأسیس الأزهر و بدء حیاته الجامعیّة

الأزهر بیت العلم العتیق، و مثابة الثقافة الاسلامیة، حمل لواء المعرفة فی مصر و فی الشرق الإسلامی قرونا متصلة، و حفظ التراث الإسلامی دینا و لغة من عادیات الزمن، و نشره علی الآفاق، و لم یبخل به علی أی طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها. و قد ظل الأزهر طوال ألف سنة- و ما یزال حتی الیوم- کعبة العلم و الدین، و معقد آمال المسلمین، و قد تخرج فیه أفواج و أفواج من جلة العلماء انتشروا فی بقاع الأرض، و حملوا معهم مشاعل المعرفة و الثقافة التی تزودوا بها فی الأزهر، فأضاؤو جنبات الأرض علما و نورا و تقی.

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلی قائد الخلیفة الفاطمی «المعز لدین اللّه»، و شرع فی بنائه یوم السبت لست بقین من شهر جمادی الأول سنة ۳۵۹ ه (۹۷۰ م)، و کمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ۳۶۱ ه ۲۲ یونیو ۹۷۲ م، و کان الغرض من إنشائه أن یکون رمزا للسیادة الروحیة للدولة الفاطمیة، و منبرا للدعوة التی حملتها هذه الدولة الجدیدة إلی مصر. و قد کتب بدائرة القبة التی فی الرواق الأول و هی علی یمین المحراب و المنبر ما نصه بعد البسملة: مما أمر ببنائه عبد اللّه

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸

و ولیه أبو تمیم معد الإمام المعز لدین اللّه أمیر المؤمنین صلوات اللّه علیه و علی آبائه و أبنائه الأکرمین، علی ید عبده جوهر الکاتب الصقلی، و ذلک فی سنة ستین و ثلثمائة».

و قد أطلق علی هذا المسجد اسم الأزهر، نسبة إلی فاطمة الزهراء التی ینتسب إلیها الفاطمیون، أو لأنه کان یحیط به قصور فخمة، تسمی بالقصور الزهراء، أو لأنه یظن أن هذا الجامع أکثر الجوامع فخامة ورواء، أو للتفاؤل بأنه سیکون أعظم المساجد ضیاء و نورا.

وضع یوم السبت ۲۴ جمادی الأول سنة ۳۵۹ ه الحجر الأساسی له «و ظل العمال و المهندسون یعملون فی بنائه عامین تقریبا حتی جاءت أول جمعة رمضان سنة ۳۶۱ ه، فجمعت فیه، باحتفال رسمی هائل، تجلت فیه أبهة الملک و سؤدده و عظمته، التی اشهر بها الفاطمیون أکثر من سواهم. و المقریزی یصف لنا هذا الاحتفال و صفا شائقا یفیض روعة و جلالا.

و بعد أن استقر سلطان المعز، و تم بناء المعقل الذی أقامه للدعوة، أفرغ جهده فی إحکام دولته و تنظیمها، و وفق فی ذلک أکثر توفیق، و قطع المعز الفاطمی کل علاقة بینه و بین الخلیفة العباسی، و قضی علی کل صلة روحیة له فی مصر، فقصر التدریس فی الأزهر علی المذهب الفاطمی فی الفقه، و تعالیم الفقه، و تعالیم الشیعة فی الدین و الفلسفة و التوحید، و استجلب لهذه الدراسة أکابر العلماء و فطاحل الفقهاء فی عصره، و کان عددهم ثلاثین عالما، أجزل لهم العطاء و بنی لهم منازل فخمة ألحقت بالأزهر فیما بعد، و صارت من أروقته، و شرعوا یدرسون و یتفقهون فی مذاهب الفاطمیین و تعالیمهم و یهدمون بذلک المذاهب الأخری التی کانت

شائعة فی بغداد مقر الخلافة و سائر البلاد الإسلامیة، و کانت هذه النخبة الممتازة من الأساتذة و علی رأسها کبیر العلماء «أبو یعقوب قاضی الخندق» سببا من الأسباب التی جعلت الأزهر یصبح

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۹

قبل کل طالب من أقاصی الأرض بعد أن ذاع صیته فی الآفاق. و ذکر المقریزی أن أول ما درس فی الأزهر الفقه الفاطمی علی مذهب الشیعة، فإنه فی صفر سنة ۳۶۵ ه جلس قاضی مصر «أبو الحسن علی بن النعمان ابن محمد بن حیون» و أملی مختصر أبیه فی الفقه علی أهل البیت، و یعرف هذا المختصر بالاقتصار، و کان جمعا عظیما أثبتت فیه أسماء الحاضرین .. فکان الأزهر علی ذلک ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدریس حتی جاء صفر سنة ۳۶۵ ه و افتتحت الدراسة فیه باجتماع عظیم حضره کثیرون، و قیدوا أسماءهم.

و استوزر (المعز) و ابنه (العزیز) من بعده الوزیر یعقوب بن کلس، و هو یهودی الأصل ثم أسلم، و لعل الخلیفة تخیره لما اشتهر عن الیهود من الحذق فی الدعایة و إتقانها، و قد نشط الوزیر فألف کتابا فی الفقه، یتضمن ما سمعه من الخلیفة المعز و ابنه من بعده. و هذا الکتاب مبوب علی أبواب الفقه الفاطمی، و کان یقرؤه علی الناس، و کان یجلس بنفسه یوم الجمعة یقرأ علی الناس فی مجلس خاص به مصنفاته کما یجتمع یوم الثلاثاء بالفقهاء و جماعة المتکلمین و أهل الجدل.

قام المعز بتأسیس الأزهر إذن، و استوزر ابن کلس و عمل علی استجلاب أکابر العلماء، و أوعز الیهم تدریس الفقه الفاطمی، و لم تقتصر هذه الدعوة فی اتجاهها علی هذه الناحیة فقط، بل هناک ناحیة سریة کان یقوم بها (داعی الدعاة) و أعوانه، من قبل الحکومة، لیبثوا تعالیم الشیعة و مبادئهم و دعوتهم من طریق السر و الخفاء أحیانا و من الجهر و العلانیة فی غالب الأحیان. و کان لهذا الداعی مجلس یفرده فی الأزهر للنساء، و هذه الدعوة کما یقول المقریزی وضعوا فیها الکتب الکثیرة، و صارت علما من العلوم المدونة، ثم اضمحلت و ذهبت بذهاب أهلها.

سلک الفاطمیون فی دعوتهم طریق الجهر ما استطاعوا إلی ذلک سبیلا، و سلکوا الخفاء و التستر إذا أعوزتهم الحاجة، و کانوا یدرسون الفقه

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰

الفاطمی علانیة لأنه الوسیلة المناسبة التی یستطیعون بها الدخول علی سائر الشعب المصری، الذی کانت تهیمن علیه السنة و مذاهبها سیما المذهب الشافعی منها، و لأن حاجة الناس الی الفقه ماسة، ینظمون به شؤونهم و یحددون به أحوالهم الشخصیة و ما یتبعها من حقوق و واجبات، سیما و أن هذا الفقه فی قضایاه لیس بعید الخلاف مع السنة، بعد مزج التعالیم الشیعیة و فلسفتها مع مبادیء التوحید الإسلامی، و کان یقوم بکل هذا العلماء المعینون و أتباعهم و کانوا یمنحون مرتبات شهریة، و جعلوا ذلک بابا من أبواب الدعوة .. و کان القائم بهذه الدعوة هو داعی الدعاة، و هو من کبار الموظفین، و کان یلی قاضی القضاة فی الرتبة و یتزیّا بزیه، و کانت وظیفة قاضی القضاة و داعی الدعاة تسندان فی کثیر من الأحیان إلی رجل واحد، و قد خصص لداعی الدعاة قسم کبیر من قصر الخلفاء الفاطمیین، و کان یساعده فی نشر تعالیم الفاطمیة اثنا عشر نقیبا، کما کان له نواب ینوبون عنه فی البلاد بلغ عددهم مائة و واحدا و خمسین، و کان فقهاء الدولة البارزون فی الشریعة الإسلامیة تحت نفوذه و له مکان خاص بالقصر هو (دار العلم)، فکانوا یتصلون به و یتلقون عنه الأوامر و یقدمون إلیه فی یوم الاثنین و یوم الخمیس ما أعدوه للمحاضرة فی أصول المذهب الفاطمی و کانت المحاضرات تعرض قبل إلقائها علی الخلیفة فیقرؤها و یذیلها بإمضائه ثم تبلغ الیهم عن طریق (داعی الدعاة) و هو الذی یعرضها بنفسه علی الخلیفة. و کان الداعی فوق هذا یعقد المجالس و یقرأ علی الناس من مصنفاته، و کان یجلس علی کرسی الدعوة فی الإیوان الکبیر فیحاضر الناس، و یعقد للنساء مجلسا خاصا بالأزهر، و فیه یلقنهن أصول مذهب الإسماعیلیة أو الفاطمیة.

و لم یکن ذلک کل ما قام به الفاطمیون فی نشر مذهبهم، فکانت هناک مجالس تعرض علی الناس کل علی حسب طبقته، فکان

لأهل البيت مجلس، و للخاصة مجلس. و شيوخ الدولة مجلس، و للعامة و الطارئين مجلس، و الوافدين من البلاد الأجنبية مجلس.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۱

و كان عندما يفرغ داعی الدعاة من إلقاء محاضرته علی المؤمنين و المؤمنات أقبلوا عليه فقبلوا يديه فيمسح علی رؤوسهم بالجزء الذی عليه إمضاء الخليفة، و كان من اختصاص (داعی الدعاة) جمع النجوی و تدوين اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر، و النجوی نوع من الصدقة مقدارها ثلاثة دراهم و ثلث درهم، أما السادة الإسماعيلية فكان الواحد منهم يدفع ثلاثة و ثلاثين دينارا و ثلثی دينار و يمتازون عن عامة الناس فيعطی الواحد منهم رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة و فيها هذه العبارة (باركك اللّه فيك و فی مالك و ولدك و دينك) .. و قد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية و الدينية نجاحا عظيما فی خلافة الحاكم بأمر اللّه، فقد بذل هذا الخليفة مجهودا كبيرا فی نشرها حتی أرغم الناس عليها لقوانينه الجائرة و انضموا إليها مكرهين.

و أهم الكتب التی تبحث فی هذه التعاليم كما يقول الأستاذ أحمد توفيق عياد: كتاب «أسرار الباطنية للباقلانی المتوفی سنة ۴۰۳ ه» و «الملل و النحل» للشهرستانی و «رسائل إخوان الصفا»: و يجب أن يشار إلی وثيقة هامة فی هذا الموضوع و هی المخطوط الموجود بدار الكتب بالقاهرة و عنوانها (رسائل الحاكم بأمر اللّه و القائمين بأمر دعوته). كما أنه يوجد مخطوط آخر فی أربعة مجلدات بالمكتبة الأهلية بباريس عنوانه (المشاهد و الأسرار التوحيدية لمولانا الحاكم).

و منها يتبين أن الدعوة قد بنيت علی آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية و المعتزلة و الفلسفة و هی أساس الشريعة عن الفاطميين قد حلت فی عهد الحاكم فی محل القرآن و السنة، و منها يتضح كيف بلغت هذه الدعوة و عملت فی عقول الأهالی حتی تجاسر الحاكم أن يدعی الألوهية و أن اللّه قد تجسم فی شخصه. و هذه الدعوة تلخص لنا تعاليمهم، و الأصل فيها أنهم أخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة و طبقوه علی مذهبهم الشيعی تطبيقا غريبا، و استخدموا ما نقله إخوان الصفا فی رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطونی.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲

و دعوتهم مرتبة علی منازل، دعوة بعد دعوة، حتی تبلغ هذه الدعوات تسعا يبدأ الداعی أولا باستدراج المدعو بعد أن يكون قد وقف علی هذه التعاليم و مبلغ إيمانه بدينه، و يستهويه إلی هالته العقلية، و يشرع يشككه فی أفكاره بأسئلة إنكارية: ما معنی العدو بين الصفا و المروة؟ و لم كانت الحائض تقضی الصوم و لا تقضی الصلاة و ما بال اللّه قد خلق الدنيا فی ستة أيام؟ أعجز عن خلقها فی ساعة واحدة؟ و ما معنی الصراط المضروب فی القرآن مثلا و الكاتبين و الحافظين؟ أخاف أن نكابره و نجاحده حتی أدلی العيون و أقام علينا الشهود و قيد ذلك فی القرطاس بالكتابة؟

و هكذا يستمر يلقی الأسئلة سراعا و ينفث سموم الريب فی النفس، ثم يعقب علی هذه الأسئلة بأسئلة الغرض منها استهواء المدعو إلی حظيرة الفلسفة و الهرطقة التی كانوا يقولون بها: أين أرواحكم؟ و كيف صورها و أين مستقرها، و ما أول أمرها؟ و الإنسان ما هو؟ و ما حقيقته؟ و ما الفرق بين حياته و حياة البهائم؟ و ما معنی قول الفلاسفة: الانسان عالم صغير و العالم إنسان كبير؟ و أمثالها حتی إذا علم الداعی أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه و طلب منه الجواب عنها، قال له حينئذ: لا تتعجل فإن دين اللّه أعلا و أجل من أن يبذل لغير أهله، ثم بعد حديث و إغواء يأخذ عليه عهدا ألا يفشی سرا، و لا يظاهر أحدا عليهم، و لا يطلب لهم غيلة، و لا يكتمهم نصحا! و لا يوالی عدوا لهم، فإذا أعطی العهد طلب منه جعلا من المال يجعله مقدمة أمام كشفه له الأمور و تعريفه إياها.

و ينتقل إلی الدعوة الثانية و مرماها إثبات ضرورة وجوب الإمام الذی ينصبه اللّه للناس، و إلی تقرير أن الأئمة السبعة آخرهم محمد بن إسماعيل ابن جعفر، و هو صاحب ذلك الزمان، و عنده علم المستورات و بواطن المعلومات التی لا يمكن أن توجد عند أحد غيره، و علی جميع الكافة اتباعه و الخضوع له و الانقياد إليه و التسليم له، لأن الهداية فی موافقته و اتباعه و الضلال و الحيرة فی العدول عنه .. ثم ينتقل إلی تعليل اعتقادهم فی الأئمة و النقباء الاثنی عشر.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳

و هنا یکون الداعی قد تمکن من نفس المدعو فیعمل علی تعمیر منطقة العقل و یدعوه إلی النظر فی کلام أفلاطون و أرسطو و فیثاغورس، و ینهاه عن قبول الأخبار و الاحتجاج بالسمعیات.

ثم ینتقل إلی اثبات معجزة النبی الصادق و الوحی علی طریقة تعالیمهم الشیعیة. و قد ظلت الدعوة قائمة الی هذه المبادیء، و کان من زعمائها فی القرن الخامس الهجری «الحسن بن محمد الصباح».

و هذه التعالیم تظهر بجلاء فی رسائل إخوان الصفا، و توهم أن الروح التی أملتها روح عالیة تتسع آفاقها لاستیعاب حیز کبیر من حقائق هذا الوجود، و أن العقلیة التی أخرجتها عقلیة حرة جریئة. و الواقع ربما خالف هذا فإن الفاطمیین و إن کان یشم من کلامهم الدعوة إلی وحدة الوجود، و النظر إلی هذا العالم بعین الحکمة و الاعتبار و التفلسف، إلا أنهم أفسدوا هذه النظرة السامیة بحجرهم علی العقول فی الاعتقاد بأئمتهم، و أفسدوا کل شیء حینما حاولوا أن یستغلوا ما فی هذه التعالیم من طرافة و طلاوة لمصلحتهم الخاصة، بمحاولة تطبیقها علی ما تبتغی أهواؤهم السیاسیة، و أنهم حاولوا فرض شیء کثیر من الاستبداد علی عقول الناس و مشاعرهم لحد یکاد یبلغ الجمود، و آیة ذلک ظاهرة فی الفقه فی هذا العصر، و توقف التفکیر فیه عند حد التقلید و عجزه عن الابتکار و الرأی و القیاس. و آیة ذلک ظاهرة فی بعض شعراء هذا العصر الذین أفسدت علیهم شاعریتهم حتی صاروا یؤلهون الحاکم و یعتقدون أن اللّه قد یتجسم فی شخص الأئمة و الخلفاء: من ذلک ما قاله ابن هانیء الأندلسی فی المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارفاحکم فأنت الواحد القهار

و کأنما أنت النبی محمدو کأنما أنصارک الأنصار

و هو الذی تجدی شفاعته غداحقا و تخمد إذ تراه النار

إنهم استمدوا تعالیمهم من الأفلاطونیة الحدیثة و أخذوا ما نقله

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۴

إخوان الصفا عنها و عن الفلسفة الیونانیة فأفسدوها حینما أرادوا تطبیقها علی الناس، یبتغون من وراء ذلک تشکیل عقائدهم بأسلوب یضمن لهم السلطان و الإمامة. و مثل هذا الأسلوب فی التفکیر و الاعتقاد أقرب الی أن یکون فارسیا منه إلی أی شیء آخر، و قد کان للشیعة أکبر عضد فی فارس، و لعل المذهب تأثر کثیرا بعقلیة الفرس الواقعیة و اعتقادهم فی الحلول و تألیه الأکاسرة. و مثل هذا الأسلوب بعدما یکون عن النفسیة المصریة فقد صعب تمثیله و هضمه فنبذته و لو أنها أکرهت علیه مدة طویلة.

«و لا یمکننا أن نقدر مقدار النجاح فی شیوع المذهب الإسماعیلی بمصر و قدر الذین انتحلوه من خاصة الأمة، إلا أنا نعلم أن أثره فی العامة کان قلیلا جدا لما یروی من أخبار نفورهم من مظاهر الاسماعیلیة و من عقائدهم، و یظهر أن بیئة الفقهاء لم تتقبله، و وسموه بمیسم الکفر و الإلحاد، فنفر الجمهور منه، و زاد نفرته السریة التی کانت تحیط بالدعوة، فزاد ذلک فی تأیید اعتقادهم أنه خارج عن الدین توارثوه عن أئمتهم و عن علمائهم».

و هذه العبودیة التی فرضها الفاطمیون علی العلماء بنشر تعالیمهم وحدها و تأیید مذهبهم الفاطمی فی الفقه و محاجتهم الناس، أثرت أثرا بلیغا فی تطور التشریع الإسلامی، فقد سار التشریع فی هذا العهد فی دور التقلید و عدم الاجتهاد. فإن الجو، لا یساعد العلماء علی الابتکار و التجدید.

و لکن نلاحظ من ناحیة أخری أن نشاطهم فی بث الدعوة أدی إلی خلق هذا النوع الجدید من العلوم الذی أطلق علیها «أدب البحث» و ألفت فی قواعدها الکتب، و کثرت مجالس النظر و شاعت المناظرات و المجادلات شیوعا.

و بقی مذهب الشیعة منتشرا فی مصر قضاء و فی الأزهر دراسة، إلی أن انقرضت دولة الفاطمیین.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵

و عادت لمصر حینئذ السنة المحمدیة، و أول مذهب سنی درس بالأزهر المذهب الشافعی و انقرض من ذلک الحین المذهب الشیعی،

و لم يبق له أثر بالأزهر سوى الجراية، تعطى لمن هو متمذهب بهذا المذهب، و هذا الجراية كانت تصرف لأصحابها لوقت قريب. هذا و تعاليم الشيعة الآن معمول بها فى فارس و بمصر متحف خاص (بالبهائية) التى تعمل على حد هذه التعاليم، و يقرر الأستاذ (بيرم) فى رسالة وضعها عن الأزهر و قدمها لمؤتمر المستشرقين المنعقد بمدينة (هامبورج) فى أوائل سبتمبر سنة ۱۹۰۲ أن العلوم الرياضية كانت تدرس بالأزهر، كالعلوم الفلكية و الطبيعية و الجغرافية، و لكنه استند فى تقريره هذا إلى أنه استنتج ذلك من عناية الفاطميين بهذه العلوم و عنايتهم بالكتب و جمعها و استبعد ألا تكون هذه العلوم قد درست بالأزهر، و الأزهر كان متأثرا فى حياته بكثير من العوامل السياسية التى ظهرت و قتذاك. و إن ما كان يدرس فيه فى عهد الفاطميين هو التعاليم الشيعية الإسماعيلية و الدعوة إليها، و المذهب الفاطمى فى الفقه .. و كان لهذه التعاليم أثر واضح فى الحياة الخلقية فى ذلك العصر، و قد عدد آفاتها الغزالى و آفات عقلية أوقفت التشريع الإسلامى عند حد التقليد و عدم الاجتهاد، و أصبح التشريع الإسلامى فى هذا العصر هو المرحلة الأخيرة لتطوره. و لم يكن للعقول فى ذلك الوقت سبيل الى الاجتهاد و القياس، و احتاجوا إلى تنظير المسائل فى الإلحاق و تفرقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة و صار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على هذا النوع من التنظير و التفرقة.

و من هذا كله نعلن أن الأزهر اتخذ أول ما أنشىء مسجدا لعبادة اللّه و الدعاية للفاطميين و دولتهم، ثم عقدت فى جنباته حلقات الدروس العامة، فكان الأساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها فى الفقه و اللغة و الأدب و المنطق و الطبيعيات و الرياضيات.

و أول كتاب قرىء فى الأزهر على ما ذكرناه هو «الإقتصار» فى فقه آل البيت لأبى حنيفة النعمان بن أبى عبد اللّه بن محمد القيروانى قاضى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۶

المعز لدين اللّه، و كان مالكى المذهب ثم انتحل المذهب الإسماعيلى فأخلص له، و كان من دعائم الدعوة الفاطمية. و كتابه «الدعائم» من أصول المذهب الإسماعيلى، و نهج على منهاجه الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه «مصنف الوزير» و له كتاب اسمه «مختصر الآثار فيما روى عن الائمة الأطهار» ، و من كتبه أيضا: «الينبوع» «و المجالس و المسايرات». و توفى النعمان هذا فى شهر جمادى الآخرة عام ۳۶۳ ه، و صلى عليه المعز لدين اللّه.

و كان يتولى درسة كتاب «الاقتصار» فى الأزهر ابن النعمان و اسمه أبو الحسن على بن النعمان .. و كتبه الأخرى كان بعضها يقرأ فى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۷

الأزهر، و البعض الآخر يقرأ فى حلقات خاصة للذين يريدون التخصص فى فقه الشيعة و الدعوة الفاطمية.

و ظل الجامع الأزهر مثابة لحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ۳۶۹ ه، إذ بدأت حلقات الأزهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة، فقد بدأ يعقوب بن كلس وزير المعز لدين اللّه يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى، و كان يجلس بنفسه لقراءته فى الناس خاصتهم و عامتهم، و يهرع لسماعه سائر الفقهاء و القضاة و الأدباء و أكابر القصر و رجالات الدولة و الدعوة، و كانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية، و اتجاهها نحو الأهداف العلمية، و بذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر.

و فى عام ۳۷۸- ۹۸۸ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز باللّه فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة و الدرس يحضرون مجلسه و يلازمونه و يعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، و كان عددهم سبعة و ثلاثين فقيها، و كان رئيسهم و منظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق، و قد رتب لهم العزيز أرزاقا و جرايات شهرية

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۸

و أنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر، و خلع عليهم فى يوم الفطر، و أجرى عليهم ابن كلس أيضا رزقا من ماله الخاص .

و فی عام ۳۸۰ ه رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر، و بذلک صار الأزهر معهدا جامعیا للعلم و التعلیم و الدراسة، و کان هؤلاء الأساتذة الذی رتبهم ابن کلس للقراءة و الدرس بالأزهر و أقرهم العزیز باللّه أول الأساتذة المدرسین الذین عینوا بالجامع الأزهر الشریف، و من هذا التاریخ یبدأ الأزهر حیاته الجامعیة العلمیة الصحیحة .. و فی الحق أن هذا یدل علی أن ابن کلس کان وزیرا عظیما و عالما جلیلا و أدیبا کبیرا.

و کان یعقد بداره مجالس علمیة و أدبیة دوریة ینتظم فی سلکها أکابر الفقهاء و الأدباء و الشعراء ، و کان یشرف بنفسه علی هذه المجالس، و یشترک فی أعمالها، و یغدق العطاء علی روادها. و قد أخذ ابن کلس بقسط حسن فی التألیف و الکتابة فوضع کتابا فی القراءات، و کتابا فی الفقه، و کتابا فی آداب رسول اللّه، و کتابا فی علم الأبدان و الصحة، و مختصرا فی فقه الشیعة مما سمعه من المعز لدین اللّه. و هو المعروف بالرسالة الوزیریة. و کان یقرأ کتبه علی الناس تارة بالجامع الأزهر و تارة بداره، و یجتمع لدیه الکتاب و النحاة و الشعراء فیناظرهم و یصلهم، و کانت موائدة دائما منصوبة معدة للوافدین، و کان کثیر الصلات و الإحسان، و بالجملة فقد کان هذا الوزیر و العالم الأدیب مفخرة فی جبین عصره، و قد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده، و من ذلک ما قاله أحدهم حین أصابت الوزیر علة فی یده:

ید الوزیر هی الدنیا فإن ألمترأیت فی کل شیء ذلک الألما

تأمل الملک و انظر فرط علتهمن أجله و اسأل القرطاس و القلما

و مرض ابن کلس فی شوال سنة ۳۸۰ ه، فجزع علیه العزیز أیما

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۹

جزع، و لبث یعوده و یرعاه، حتی توفی فی الخامس من ذی الحجة، فحزن علیه حزنا شدیدا، و أمر بتجهیزه تجهیز الأمراء و الملوک، و خرج من القصر إلی داره فی موکب صامت محزن، و شهد تجهیزه و صلی علیه بنفسه، و وقف حتی تم دفنه و هو یبکی بدمع غزیر و احتجب فی داره ثلاثا لا یأکل علی مائدته، و الحزن یشمل الخاصة و القصر کله، و أفاض الشعراء فی رثاء الوزیر الراحل و مدیحه، فوصلهم العزیز جمیعا، و علی الجملة فقد سما ابن کلس فی ظل الدولة الفاطمیة إلی أرفع مکانة ..

و مهما کان فإن تلک الخطوة الأولی فی ترتیب الأساتذة و الدروس بالأزهر بطریقة منظمة مستقرة، کان لها أثر کبیر فی تطور الغایة التی علقتها الخلافة الفاطمیة بادیء ذی بدء علی إنشاء الجامع الأزهر، فقد کانت هذه الغایة کما رأینا أن یکون المسجد الجامع الجدید رمز الخلافة الجدیدة و منبرا لدعوتها .

ابتدأ الأزهر حیاته العلمیة المنظمة بخمسة و ثلاثین طالبا. و لم یشجع هؤلاء بما رأینا فحسب، بل کان هناک لون آخر من ألوان التشجیع، فیحدثنا المقریزی أن العزیز باللّه «خلع علیهم فی یوم عید فطر و حملهم علی بغلات». و لم یکن الأزهر فی ذلک العهد مقصورا علی الرجال فحسب، بل کان للمرأة فیه نصیب فکن یفردن فیه بمجلس خاص .

و هکذا آلت تلک الحرکة العلمیة المیمونة إلی الأزهر، و ازدهرت فیه و ترعرعت حتی تخرج فیه أئمة فضلاء، و شیوخ أجلاء، خدموا الإسلام و المسلمین بالتألیف تارة، و بالتدریس أخری، حتی أصبح مفخرة العالم الإسلامی عامة، و مصر خاصة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۰

و لقد عالجت هذه الجامعة الکبری علوم الدین، فیسرت سبلها، و أکثرت کتبها و اهتمت بشؤون اللغة العربیة، فهذبت طرقها، و أصلحت شأنها، و بقیت علی مدی الأجیال و القرون قائمة بعملها، مضطلعة بمهمتها، حتی نبه ذکرها و ذاع صیتها، و أمّها الطلاب من کل فج، لیغترفوا من منهلها، و یستضیئوا بنورها، و انحدر الیها العلماء من کل صوب، لیسهموا فی النفع بها، و نشر آثارها، فازدهرت فیها أنواع العلوم و الفنون، و أمدت العالم الإسلامی بما هو فی حاجة إلیه.

و لقد کان الأزهر الشریف منذ نشأته موضع عنایة الخلفاء الفاطمیین:

یتعهدونه بالعنایة و الرعایة، و یغدقون علی من به من العلماء و الطلبة العطایا و الهبات، و یذهبون إلیه بأنفسهم للصلاة و الوقوف علی حاله، مما کان له الأثر البالغ فی حفز همم الشیوخ و الطلبة إلی التفرغ للعلم.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۱

الفصل الرابع الأزهر فی ظلاک الفاطمیین

تمهید:

مما تقدم نعلم أن الأزهر بدیء فی بنائه فی ۲۴ جمادی الأولی عام ۳۵۹ ه- إبریل ۹۷۰ م، و افتتح للصلاة فی یوم الجمعة ۷ رمضان ۳۶۱ ه: ۹۷۲ م، و بدأ نظام الحلقات العلمیة فیه من عام ۳۶۵ ه: ۹۷۶ م، و صار جامعة إسلامیة کبیرة من عام ۳۷۸ ه: ۹۸۸ م.

و إن الفضل فی ذلک یرجع الی المعز و قائده جوهر، ثم إلی أسرة القاضی النعمان الشیعی، ثم إلی الوزیر یعقوب بن کلس.

و کان المسجد منذ نشأته یسمی جامع القاهرة باسم العاصمة الجدیدة، و قد تکون تسمیته بالجامع الأزهر قد تأخرت قلیلا عن التسمیة الأولی، و یرجح عنان أن اسم «الجامع الأزهر» أطلق علیه بعد إنشاء القصور الفاطمیة فی عصر العزیز باللّه، فقد کان یطلق علیها اسم القصور الزاهرة، و منها أطلق علی جامع القاهرة و هو مسجد الدولة الرسمی اسم الجامع الأزهر، و استمر مسجد القاهرة الجامع یعرف باسم جامع القاهرة أو الجامع الأزهر حتی عصر المقریزی فی أوائل القرن التاسع، ثم تقلص الاسم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۲

القدیم- جامع القاهرة- شیئا فشیئا و غلب علیه اسم الجامع الأزهر، أو جامع الأزهر حتی عصرنا.

و لا بد أن یکون الأزهر قد أسهم فی الحرکة العقلیة و العلمیة فی عصر المعز و العزیز باللّه، و أن یکون أعلام الدین و اللغة و الأدب قد اتخذوا منه حلقة علمیة منظمة.

فلقد جاء قوم من علماء المغاربة فی رکب المعز، و من أشهرهم النعمان بن محمد الذی تولی القضاء فی مصر هو و أولاده و أسرته عهدا طویلا فی ظلال الحکم الفاطمی، و کانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء و بالدعوة و التألیف فی المذهب الشیعی، و تتخذ من الأزهر مکانا مختارا لنشاطها العلمی، و کذلک ابن کلس الذی أشرف علی تنظیم الأزهر تنظیما جامعیا علمیا عالیا.

و من أشهر العلماء الذین شهدوا عصر المعز و العزیز: ابن زولاق المصری المؤرخ (۳۰۶- ۳۸۷ ه)، و عبد الغنی المصری (۳۳۲- ۴۰۹ ه) و کان حافظ مصر فی عصره ، و الحسن بن الهیثم المصری الفیلسوف و اشتهر بعد عصر العزیز و توفی عام ۴۳۰ ه و ابن یونس المصری المنجم المتوفی عام ۳۹۹ ه و الجوفی النحوی المتوفی عام ۴۳۰ ه .. و لا شک أن هؤلاء العلماء و غیرهم قد کانت لهم حلقات فی الأزهر.

و من الأدباء و الشعراء فی هذا العهد أبو الرقعمق المتوفی عام

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۳

۳۹۹ ه الشاعر و ابن وکیع الشاعر المتوفی عام ۳۹۳ ه ، و التهامی الشاعر المتوفی عام ۴۱۶ ه و المسبحی المصری الکاتب (۳۶۶- ۴۲۰ ه) ، و أبو القاسم عبد الغفار شاعر دولة العزیز و الحاکم و قتله الحاکم عام ۳۹۵ ه .. و لا شک أن هؤلاء الأدباء و الشعراء کانوا یحفلون بإلقاء ثمرات قرائحهم علی تلامیذهم فی حلقات الأزهر العلمیة الحافلة .

الأزهر فی عصر الحاکم:

و فی عصر الحاکم استمر الأزهر یؤدی مهمته العلمیة، و إن کان الأزهر فوجیء بإقامة الخلیفة جامعة جدیدة سماها «دار الحکمة» أو

دار العلم الشهيرة فی سنة ۳۹۵ ه- ۱۰۰۵ م.

و لكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف و التطورات التی أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية، و مع أن دار الحكمة لبثت مدی حين تنافس الأزهر و تستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة، فإنها لم تلبث لصرامة نظمها و إغراق برامجها فی الشؤون المذهبية، أن اضطربت أحوالها و ضعف نفوذها العلمی، هذا بينما كان الأزهر يسير فی سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطی بطيئة و لكن محققة، و يسير فی نفس الوقت إلی التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التی كادت فی البداية أن تقضی علی صبغته الجامعية الصحيحة.

و قد وقف الحاكم وقفية علی الأزهر و دار الحكمة و غيرها من

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۴

المساجد، و جامع الحاكم، و جامع المقس، و جامع راشدة، لإقامة الشعائر الدينية فيها، و صيانة مبانيها و هذا هو نص الاشهاد الشرعی علی هذه الوقفية:

«هذا كتاب أشهد قاضی القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقی علی جميع ما نسب اليه مما ذكر، و وصف فيه، من حضر من الشهود فی مجلس حكمه و قضائه بفسطاط مصر فی شهر رمضان سنة اربعمائة، أشهدهم و هو يومئذ قاضی عبد اللّه و وليه المنصور أبی علی الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين ابن الامام العزيز باللّه صلوات اللّه عليهما، علی القاهرة المعزية و مصر و الاسكندرية و الحرمين حرسهما اللّه، و أجناد الشام و الرقة و الرحبة و نواحی المغرب و سائر أعمالهن، و ما فتحه اللّه و يفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق و الغرب، بمحضر رجل متكلم- أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة و الحصص الشائعة التی يذكر جميع ذلك و يحدد هذا الكتاب، و أنها كانت من أملاك الحاكم إلی أن حبسها علی الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة و الجامع بالمقس، اللذين أمر بإنشائهما و تأسيس بنائهما، و علی دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التی وقفها، و الكتب التی فيها قبل تاريخ هذا الكتاب، منها ما يخص الجامع الأزهر و الجامع براشدة و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم: و منها ما يخص الجامع بالمقس علی شرائط يجری ذكرها. فمن ذلك ما تصدق به علی الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة، جميع الدار المعروفة بدار الضرب و جميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف و جميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذی كله بفسطاط مصر. و من ذلك ما تصدق به علی جامع المقس جميع أربعة الحوانيت و المنازل التی علوها و المخزنين الذی ذلك كله بفسطاط مصر بالراية، فی جانب العرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، و هاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فی الموضع المعروف بحمام الفار. و من ذلك جميع الحصص

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۵

الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التی بفسطاط مصر بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار، و تعرف هذه الحوانيت بحصص القيسی بحدود ذلك كله و أرضه، و بنائه و سفله و علوه و غرفه و مرتفقاته و حوانيته و ساحاته و طرقه و ممراته، و مجاری مياهه، و كل حق هو له داخل فيه و خارج عنه، و جعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة، لا يجوز بيعها و لا هبتها و لا تمليكها، باقية علی شروطها، جارية علی سبلها المعروفة فی هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين و لا تغير بحدوث حدث، و لا يستثنی فيها و لا يتأول، و لا يستفتی بتجدد تحبيسها مدی الأوقات، و تستمر شروطها علی اختلاف الحالات حتی يرث اللّه الأرض و السماوات، علی أن يؤجر ذلك فی كل عصر من ينتهی اليه ولايتها و يرجع إليه أمرها بعد مراقبة اللّه و اجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوی الرغبة فی إجارة أمثالها؛ فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك علی حسب المصلحة و بقاء العين و مرمته، من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه، و ما فضل كان مقسوما علی ستين سهما.

من ذلك الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فی هذا الاشهاد الخمس و الثمن و نصف السدس و نصف التسع، يصرف ذلك

فیما فیه عمارته و مصلحته، و هو من العین المعزی الوازن ألف دینار واحدة و سبعة و ستون دینارا و نصف دینار و ثمن دینار، و من ذلک للخطیب بهذا الجامع أربعة و ثمانون دینارا، و من ذلک لثمن ألف ذراع حصر عبدانیة تکون عدة له بحیث لا ینقطع من حصره عند الحاجة إلی ذلک، و من ذلک لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لکسوة هذا الجامع فی کل سنة عند الحاجة إلیها مائة دینار واحدة و ثمانیة دنانیر، و من ذلک لثمن ثلاثة قناطیر زجاج و فراخها اثنا عشر دینارا و نصف و ربع دینار، و من ذلک لثمن عود هندی للبخور فی شهر رمضان و أیام الجمع مع ثمن الکافور و المسک و أجرة الصانع خمسة عشر دینارا، و من ذلک لنصف قنطار شمع بالفلفلی سبعة دنانیر، و من ذلک لکنس هذا الجامع و نقل التراب و خیاطة الحصر و ثمن الخیط و أجرة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۶

الخیاطة خمسة دنانیر و من ذلک لثمن مشاقة لسرج القنادیل عن خمسة و عشرین رطلا بالرطل الفلفلی دینار واحد، و من ذلک لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلی نصف دینار، و من ذلک لثمن إردبین ملحا للقنادیل ربع دینار و من ذلک ما قدر لمؤنة الناس و السلاسل و التنانیر و القباب التی فوق سطح الجامع أربعة و عشرون دینارا، و من ذلک لثمن سلب لیف و أربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دینار، و من ذلک لثمن قنطارین خرقا لمسح القنادیل نصف دینار، و من ذلک لثمن عشر قفاف للخدمة و عشرة أرطال قنب لتعلیق القنادیل، و لثمن مائتی مکنسة لکنس هذا الجامع دینار واحد و ربع دینار، و من ذلک لثمن أزیار فخار تنصب علی المصنع و یصب فیها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانیر، و من ذلک لثمن زیت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل و مائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة و ثلاثون دینارا و نصف، و من ذلک لأرزاق المصلین یعنی الأئمة و هم ثلاثة و أربعة قومة، و خمسة عشر مؤذنا خمسمائة دینار و ستة و خمسون دینارا و نصف، منها للمصلین، و لکل رجل منهم دیناران و ثلثا دینار فی کل شهر من شهور السنة، و المؤذنون و القومة و لکل رجل منهم دیناران فی کل شهر، و من ذلک للمشرف علی هذا الجامع فی کل سنة أربعة و عشرون دینارا. و من ذلک لکنس المصنع بهذا الجامع و نقل ما یخرج منه من الطین و الوسخ دینار واحد، و من ذلک لمرمة ما یحتاج إلیه فی هذا الجامع فی سطحه و أترابه و حیاطته و غیر ذلک مما قدر لکل سنة ستون دینارا، و من ذلک لثمن مائة و ثمانین حمل تبن و نصف حمل جاریة لعلف رأسی بقر للمصنع الذی لهذا الجامع ثمانیة دانانیر و نصف و ثلث دینار، و من ذلک للتبن لمخزن یوضع فیه بالقاهرة أربعة دنانیر، و من ذلک لثمن فدانین قرط لتربیع رأسی البقر المذکورین فی السنة سبعة دنانیر، و من ذلک لأجرة متولی العلف و أجرة السقا و الحبال و القوادیس و ما یجری مجری ذلک خمسة عشر دینارا و نصف، و من ذلک لأجرة قیم المیضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر دینارا».

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۷

و إلی هنا انقضی حدیث الجامع الأزهر، و أخذ فی ذکر الجامع براشدة، و دار العلم، و جامع المقس، ثم ذکر أن تنانیر الفضة ثلاثة تنانیر و تسعة و ثلاثون قندیلا من الفضة، فللجامع الأزهر تنوران و سبعة و عشرون قندیلا، و منها لجامع راشدة تنور و اثنا عشر قندیلا، و شرط أن تعلق فی شهر رمضان، و تعاد إلی مکان جرت العادة أن تحفظ فیه .. و شرط بعد ذلک فی الوقف شروطا کثیرة لیس هنا مقام ذکرها و قد أسس الحاکم جامعه المشهور عام ۳۹۳ ه، و خطب فیه و صلی فیه بالناس الجمعة و کانت دار الحکمة التی أنشأها یدرس فیها علوم القرآن و اللغة و الفلک و الطب و الریاضة و التنجیم و غیرها. و اجتذبت الجامعة الجدیدة إلیها کثیرا من أعلام المشرق کالرحالة الفارسی ناصری خسرو، و لبثت دار الحکمة تنافس الأزهر مدی قرن من الزمان، حتی أغلقت.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۴۸

مشارکة الأزهر فی الحیاة العقلیّة فی عصر الفاطمیین

کان للأزهر نشاط ضخم فی الحیاة العقلیة و العلمیة فی العصر الفاطمی کله حتی نهایته عام ۵۶۷ ه.

و لقد جاءت الدولة الفاطمية الى مصر مع نفوذها السياسى بحركة علمية قوية فقدمت حركة العلم و الأدب و الفن فى مصر و الشام خطوات، حتى لا يعد شيئا بجانبها ما كان فى العهد الطولونى و الأخشيدى، و يصح أن توازن بما كان فى العراق و لا سيما العلوم العقلية و الفلسفية، فقد ازدهرت فى مصر و سارت شوطا بعيدا .. نعم نشطت الحركة العقلية فى مصر و الشام فى هذا العصر نشاطا كبيرا، و ذلك بفضل الأزهر و دار العلم و حلقاتهما العلمية؛ و عنيت الدولة بدور الكتب و نشر العلم، و تشجيع العلماء، فظهر الكثير من المؤرخين و الفلاسفة و العلماء و الرياضيين و اللغويين و النحويين و الأدباء، و منهم الأدفوى تلميذ أبى جعفر النحاس المصرى؛ الذى توفى عام ۳۸۸ ه، و ابن بابشاذ ، و ابن القطاع النحوى م ۵۱۵ ه المتوفى عام ۴۶۹ ه و سواهم.

و يقول المقريزى: «ان أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة» و لقد كان ممن القى محاضراته فى الأزهر المؤيد

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۴۹

الشيرازى داعى الدعاة الذى ناظر فيها المعرى فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى، و كان الشيرازى شاعرا كتب إلى المستنصر لما حسده الحساد باحتجاب الخليفة عنه بعد قدوم الشيرازى إلى مصر: كتب المؤيد الشيرازى:

أقسم لو أنك توجتنىبتاج كسرى ملك المشرق

و أنلتنى كل أمور الورىمن قد مضى منهم و من قد بقى

و قلت ان لا نلتقى ساعةأجبت يا مولاى أن نلتقى

لأن إبعادك لى ساعةشيب فوديّ مع المفرق

فأجاب المستنصر باللّه بخطه:

يا حجة مشهورة فى الورىو طود علم أعجز المرتقى

ما غلفت دونك أبوابناإلا لأمر مؤلم مقلق

و لا حجبناك ملالا فثقبودنا و ارجع الى الأليق

خفنا على قلبك من سمعهفصدنا صد أب مشفق

شيعتنا قد عدموا رشدهمفى الغرب يا صاح و فى المشرق

فانشر لهم ما شئت من علمناو كن لهم كالوالد المشفق

إن كنت فى دعوتنا آخرافقد تجاوزت مدى السبق

مثلك لا يوجد فيمن مضىمن سائر الناس و لا من بقى

و للشيرازى محاضراته التى ألقاها فى الأزهر مناظرا أبا العلاء المعرى.

و له مؤلفات أخرى عدا سيرته و ديوانه و محاضراته، منها: كتاب الابتداء و الانتهاء، و كتاب المسألة و الجواب، و كتاب نهج العبادة، و شرح المعاد، و المسائل السبعون، و نهج الهداية للمهتدين، و أساس التأويل بالفارسية، و السبح السبع، و الإيضاح و التبصير فى فضل يوم القدير، و تأويل الأرواح، و المجالس المستنصرية. و قد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة، إنما كانت ملخصا لدروس طويلة فيما يظهر فلعله

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۵۰

كان يكتبها بعد إلقاء الدرس و تفهيمه على سبيل التسجيل و الحفظ، لنكت هامة لينتفع القارىء، كما استفاد السامع.

و هذه هى المحاضرة الأولى من محاضراته:

الحمد للّه الذى نظم بين الانسان و البهائم أن خلقهم من طين، ثم جعل نسلهما من ماء مهين، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء، ما عرج به أعلا المعارج من الفضل و العلياء، فصار ممن قال اللّه

سبحانه فیه- و من أصدق منه قیلا- وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ* وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلًا، فاستنزل بتدبیره الطیر من الهواء و استخلص الحدث من لج الماء، و استعبد أجناس الحیوان طیرا و بهائم و سباعا، فمنها ما انتفع بلحومها، و منها ما استمتع بجلودها و أصوافها و أوبارها استمتاعا، و جعل الفلک المحیط علی عظم فضائه محصورا فی سرادق فکره، بدل کون جسمه بالکون و الفساد محصورا فی سرادق ملکته و أسره، فهذا منفوعه الذی نفعه اللّه به فی الدار الأولی، ثم جعله سلما یرتقی به إلی دائم البقاء فی الدار الأخری. فلولا نور استبصاره بالعقل، لما کانت رسالهٔ عن مرسل تقبل، و لا أمر عن مرسل یؤخذ و یتحمل، و لا نفس بمعرفهٔ توحید اللّه سبحانه ترتسم و تنیر، و لا لسان بمعارف الآخرهٔ بین اللهوات یدور. و صلی اللّه علی محمد خیر رسول، استنار بنور سراجه، و سار علی واضح منهاجه، و علی وصیه الذی عرج به من أفق المجد إلی أعلا معراجه، و علی آله الداعین إلی عذب المشرب و فراته، الناهین عن ملحه و أجاجه.

معشر المؤمنین: جعلکم اللّه ممن استنارت بنور العقل قلوبهم، و تجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم، إن قوما من الآخذین الدین بالعادات، و الجارین فیه علی آثار الوالدین و الوالدات، زعموا أن شرائع الأنبیاء علیهم السلام التی هی أسباب النجاهٔ، و الطریق إلی دائم الحیاهٔ علی غیر العقل موضوعها. و فی سوی موقعه وقوعها فلو أنهم أنعموا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۱

النظر، و جردوا من شوب العصبیهٔ و الهوی الفکر، لعلموا أن أحدهم لو قیل له فی شیء من خاصهٔ أعماله، و ما یصدر عنه من أقواله و أفعاله، إن فعلک هذا علی غیر أساس العقل موضوعه، و لا من مطالعه طلوعه، لاستشاط من ذلک غضبا، و لقام له مکذبا، و فی مثل هذه المواجههٔ مستذنبا، فکیف یرضون للأنبیاء الذین هم سادات دینهم، و الوسائط بینهم و بین ربهم ما لو قابلهم بمثله مقابل لکرهوه، أم کیف لا یعتبرون أن الخطاب فی کتاب اللّه کله مع أولی الألباب بقوله اللّه تعالی: «فَاتَّقُوا اللَّهَ یا أُولِی الْأَلْبابِ* و قوله: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ، و ما یجری مجراه مما کثر و تکرر، و لیس یخلو من کون هذه الأوضاع الشرعیهٔ لیس لها برهان من العقل عند الرسول علیه السلام، الآتی بها نفسه أو کون البرهان عنده فلم یشعر به، فإن کان لا برهان لها عنده فهو فحش، فلو أن سائلا سأله عن العلهٔ التی اقتضت أن یجعل الصلاهٔ خمسا، و لا یجعلها ستا، فکان یقول لا أدری، لکفاه طعنا أن یأتی بشیء لا یدری العلهٔ فیه إذا سئل عنها، و إن کان لها برهان عند نفسه عقلی- و البرهان مما یجمل الأقوال و الأفعال- ثم لم یظهره فلم یقم إذن بحق البلاغ، و هذا منتف عن الرسول علیه السلام، لأنه بلغ و قال فی النادی: «اللهم اشهد أنی بلغت» و سوی هذا فمعلوم أن الرسول علیه الصلاهٔ و السلام لم یکلف تکلیف الشریعهٔ إلا ذا عقل، فکیف یکلف ذا عقل ما کان موضوعه علی غیر عقل، لأن ما کان موضوعه علی غیر عقل، فهو بغیر ذی عقل أولی منه بذی عقل، و ما السبب فی تولیهٔ العقل أولا و عزله آخرا؟ و لما لا تکون التولیهٔ آخرا ککونها أولا، أو العزل أولا ککونه آخرا؟ و هذا مما لا خفاء به علی منصف.

و المعلوم أن الفلاسفهٔ یدعون العلوم العقلیهٔ و الأمور الحقیقیهٔ، و أن المسلمین یکفرونهم مع ذلک، لانقطاعهم عن سبب الرسالهٔ، و قولهم أنهم غنوا عن الأنبیاء فی معرفهٔ معالم نجاتهم، و أن الحاجهٔ إلیهم لسیاسهٔ أمور الدنیا فقط، بتحصین الدماء و الأموال، و منع القوی عن الضعیف.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۲

و اعتقاد المحققین أن العلوم کلها التی منها العقلیات التی یدعونها فی علوم الأنبیاء اجتمعت، و منها تشعبت و تفرعت، و تصدیقهم قول اللّه سبحانه وَ لا رَطْبٍ وَ لا یابِسٍ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ و قوله جل جلاله ما فَرَّطْنا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیْءٍ، فلو أن أحد الفلاسفهٔ قدم علی الرسول علیه الصلاهٔ و السلام، یسأله عن الملائکهٔ، و العرش، و الکرسی، و الجنهٔ، و النار، و أوضاع شریعته: من صلاتها، و زکاتها، و صومها، و حجها، و جهادها، من حیث یدل علیه البرهان العقلی، أکان یقول النبی صلی اللّه علیه و سلّم، لا قبل لی ببرهان ذلک! حاشا للّه .. و قول آخر مأثور عن النبی صلی اللّه علیه و سلّم أنه قال «أول ما خلق اللّه تعالی العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال

له أدبر فأدبر، ثم قال: و عزتی و جلالی ما خلقت خلقا أجل منک، بک أثیب، و بک أعاقب» .. فإن کانت الشرائع علی غیر العقل موضوعها، فلا ثواب لها و لا عقاب علی مقتضی الخبر، «بک أثیب و بک أعاقب».

معشر المؤمنین: دعو أهل الفرقة و الخلاف، فإنهم أشیاع غی بقول اللّه تعالی لنبیه صلی اللّه علیه و سلّم: إِنَّ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْءٍ: و تمسکوا فی دینکم بالأدلة، و اعرفوا المواقیت بالأهلة، و أصلحوا أموالکم، و طهروا سربالکم و احمدوا اللّه تعالی الذی فتح لکم إلی الحقائق أبصارا و الناس عنها عمون، و کشف لکم حجبا فأنتم فی ریاضها تتنعمون. و اجروا فی مضمار التائبین العابدین و استشعروا شعار الراکعین الساجدین. و کونوا دعاة إلی أئمتکم بحسن الأفعال صامتین و قوموا آناء اللیل قانتین. جعلکم اللّه من الذین إذا تلیت علیهم آیاته زادتهم إیمانا، و أوزعکم شکر عارفیه. إذ ألف بین قلوبکم فأصبحتم بنعمته إخوانا. و الحمد للّه القاهر سلطانه. الباهر برهانه. العظیم شانه.

الواسع إحسانه. و صلی اللّه علی محمد المنزل علیه فرقانه. المزلزل للشرک بنیانه. و علی وصیه مستودع علمه و ترجمانه علی بن أبی طالب بیده ید الحق. و الناطق بلسانه لسانه. و علی الأئمة من ذریته المحفوظة بهم حدود الدین و أرکانه .. و سلم تسلیما، و حسبنا اللّه و نعم الوکیل.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۳

و لقد أصیبت الحیاة العقلیة فی مصر الإسلامیة بکثیر من الاضطراب و الضعف فی أواسط القرن الخامس الهجری کما یقول عنان، أی منذ اضطربت شؤون الخلافة الفاطمیة فی عهد المستنصر باللّه، و نکبت مصر بالشدة العظمی، و عانت عسف القحط و الوباء أعواما طویلة (۴۴۶- ۴۶۴ ه)، و شغل المجتمع المصری حینا بما توالی علیه من الأرزاء و المحن، و شغل الخلفاء و رجال الدولة بالتنازع علی السلطان و تدبیر الانقلابات السیاسیة العنیفة عن تعهد الحرکة الفکریة، و قترت الدولة علی معاهد التعلیم لنضوب مواردها، و بددت خزائن الکتب أثناء الفتنة و کانت من أنفس و أعظم ما عرف العالم الإسلامی .. و کان لهذا الاضطراب أثره فی الأزهر و دار الحکمة فرکدت حرکة الدرس و التحصیل تبعا لرکود الحیاة العامة و اضطراب الحیاة الخاصة. و فی أواخر القرن الخامس فی عصر أمیر الجیوش بدر الجمالی المتغلب علی الدولة (۴۶۵- ۴۸۷ ه) و ولده الأفضل شاهنشاه (۴۸۷- ۵۱۵ ه) عاد النظام و الأمن و الرخاء الی البلاد، و انتظمت الحیاة العامة، و استعادت الحیاة الفکریة نشاطها بما أسبغ علیها من الرعایة، و ما بذل للإنفاق علی معاهد الدرس من الأموال و الأرزاق.

و یقول عنان: کان نظام الحلقات العلمیة وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة فی مصر الإسلامیة و فی معظم الأقطار الإسلامیة الأخری، و کان قوام الحیاة الجامعیة و الفکریة فی العالم الاسلامی ..

و کان طبیعیا أن الأزهر حینما أتیح له أن یدخل هذا المیدان الدراسی، أن تقوم الدراسة فیه وفقا لهذا النظام التقلیدی المتوارث. و لم یک ثمة نظام آخر یمکن التفکیر فیه فی عصر لم تکن قد عرفت فیه المدارس بعد ..

و هکذا بدأت الدراسة فی الأزهر فی حلقات علمیة و أدبیة؛ و استمرت کذلک علی مر العصور. و عقدت أول حلقة للدرس بالأزهر فی صفر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۴

سنة ۳۶۵ ه کما تقدم، و عقدها قاضی القضاة علی بن النعمان و قرأ فیها مختصر أبیه فی فقه آل البیت و هو الکتاب المسمی «الاقتصار» فی جمع حافل أثبتت فیه أسماء الحاضرین. و فی سنة ۳۷۸ ه أذن العزیز باللّه لوزیره ابن کلس أن یعین بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس و القراءة، و کانوا یعقدون «حلقاتهم» الدراسیة بالجامع یوم الجمعة من بعد الصلاة إلی العصر، و هم أول أساتذة أجریت علیهم من الدولة رواتب خاصة حسبما قدمنا. و فی هذین النصین القدیمین ما یوضح لنا نظم الدراسة الأساسیة بالأزهر، و هی نظم کان قوامها الحلقة الدراسیة، فیجلس الأستاذ لیقرأ درسه فی حلقة من تلامیذه و المستمعین الیه، و تنظم الحلقات فی الزمان و

المکان طبقا للمواد التی تدرس، و یجلس أستاذ المادة من فقه أو حدیث أو تفسیر أو نحو أو بیان أو منطق أو غیرها فی المکان المخصص لذلک من أروقة الجامع أو أبهائه، و أمامه للطلبة و المستمعون یصغون إلیه و یناقشونه.

و کان الأزهر مذ بدأت فیه الدراسة مفتوح الباب لکل مسلم یقصد إلیه الطلاب من مشارق الأرض و مغاربها، و کان یضم بین طلبته دائما إلی جانب الطلاب المصریین عددا کبیرا من أبناء الأمم الاسلامیة یتلقون الدراسة، و تجری علیهم الأرزاق، و تقیم کل جماعة منهم فی مکان خاص بها. و هذا هو نظام الأروقة الشهیر الذی نعتقد أنه بدأ فی عصر مبکر جدا ، و الذی استمر قائما حتی العصر الأخیر، و ما زالت منه إلی الیوم بقیة بالجامع الأزهر. و معظم سکان الأروقة الباقیة الیوم من الطلبة الغرباء. و یذکر المقریزی أن عدد الطلبة الغرباء الذین کانوا یلازمون الإقامة بالأزهر فی الأروقة الخاصة بهم فی عصره- أعنی فی أوائل القرن التاسع- بلغ سبعمائة و خمسین، ما بین «عجم و زیالعة و من أهل ریف

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۵

مصر و مغاربة»، و هو رقم کبیر یدل علی ضخامة العدد الذی کان یضمه الأزهر بصفة عامة من طلاب مصر و طلاب الأمم الإسلامیة المختلفة فی تلک العصور.

أما مواد الدراسة بالأزهر فی هذا العصر فلا ریب- کما یقول عنان- أن علوم الدین و اللغة کانت فی المقدمة دائما، و کان للعلوم الدینیة بنوع خاص أوفر قسط، فعلوم القرآن و الحدیث و الکلام و الأصول و الفقه علی مختلف المذاهب، و کذلک علوم اللغة من النحو و الصرف و البلاغة ثم الأدب و التاریخ، هذه کلها کانت زاهرة بالأزهر خلال العصور الوسطی.

و قد کانت الصبغة المذهبیة تغلب کما رأینا علی الدراسة بالأزهر و لا سیما فی بادیة عهدها، و لم یک ذلک غریبا فی ظل دولة کالدولة الفاطمیة نتشح بثوبها المذهبی العمیق و کان من الطبیعی أیضا أن تحتل علوم الشیعة وفقه آل البیت من حلقاته الدینیة المقام الأول، بید أنه یمکن أن یقال من جهة أخری إن هذه الصیغة المذهبیة لم تکن دائما مطلقة، و لم تکن دائما لزاما علی الطلاب. و نحن نعرف أن الخلافة الفاطمیة علی الرغم من استمساکها بصبغتها المذهبیة العمیقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصری إلی جانبها فی هذا المضمار، و لم تحاول دائما أن تجری علی سیاسة الإرغام فی طبعه بطابعها، و فی فرض لونها المذهبی علی عقائده، بل نراها فی أحیان کثیرة تلجأ فی ذلک إلی سیاسة الرفق و التسامح. و لنا فی ذلک دلیل فی المرسوم الدینی الذی أصدره الحاکم بأمر اللّه- و هو من غلاة الفاطمیین- فی سنة ۳۹۸ ه (۱۰۰۸ م) و فیه یقرر بعض الأحکام و یفسرها علی أثر ما وقع بین الشیعة و أهل السنة من خلاف فی فهمها، و یحاول أن یوفق فی ذلک بین المذاهب المختلفة، و قد جاء فیه بعد الدیباجة:

«یصوم الصائمون علی حسابهم و یفطرون، و لا یعارض أهل الرؤیة فیما هم علیه صائمون و مفطرون، صلاة الخمیس للذین بما جاءهم فیها

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۶

یصلون، و صلاة الضحی و صلاة التراویح لا مانع لهم منها و لا هم عنها یدفعون، یخمس فی التکبیر علی الجنائز المخمسون، و لا یمنع من التکبیر علیها المربعون، یؤذن بحی علی خیر العمل المؤذنون و لا یؤذی من بها لا یؤذنون، لا یسب أحد من السلف و لا یحتسب علی الواصف فیهم بما یوصف و الخالف فیهم بما خلف، لکل مسلم مجتهد فی دینه اجتهاده، و إلی اللّه ربه میعاده، و عنده کتابه و علیه حسابه. لیکن عباد اللّه علی مثل هذا عملکم منذ الیوم، لا یستعلی مسلم علی مسلم بما اعتقده، و لا یعترض معترض علی صاحبه فیما اعتمد، من جمیع ما نصه أمیر المؤمنین فی سجله هذا، و بعده قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و کانت الدراسة فی دار الحکمة ذاتها و هی الجامعة الفاطمیة المذهبیة حرة تدرس فیها علوم السنة إلی جانب علوم الشیعة، و قد تحررت کثیرا من صبغتها المذهبیة حینما أعیدت بعد إغلاقها فی عهد الخلیفة الآمر بأحکام اللّه، فمن الواضح إذا أن الدراسة بالأزهر

كانت حتى فى الوقت الـذى يشـتد فيه تيار الـدعوة المذهبيـة تحظى دائما بقسط من الحرية يزيد أو ينقص وفقا للظروف و الأحوال. و كانت دار الحكمة تستأثر بعد ذلك بتدريس العلوم الدينية. بيد أن هذه الصبغة المذهبية خفت وطأتها ..

و أخذ الأزهر بنصيبه من العلوم بجانب الدين.

هذا و أما عن الكتب الدراسية التى كانت تدرس بالأزهر فى العصر الفاطمى، فليس لدينا أيضا سوى إشارات موجزة جدا و أول كتاب درس بالأزهر هو كتاب «الاقتصار» الذى وضـعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضـى المعز لدين اللّه فى فقه آل البيت، و كان يتولى قراءته و تدريسه بالأزهر ولده أبو الحسين على بن النعمان كما قدمنا. و استمر فى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۵۷

قراءته مـدى حين على يـد بنى النعمان الـدين تعاقبوا فى قضاء مصر حتى نهايـة القرن الرابع. و كان للنعمان القيروانى كتب أخرى فى فقه الإمامية (الشـيعة) ذكر ابن زولاق مؤرخ المعز لدين اللّه أسـماءها و هى كتاب «دعائم الإسلام»، الذى عنى بتدريسه فى الأزهر فيما بعـد عنايـة خاصـة، و كتاب «اختلاف أصول المـذاهب» و كتاب «الأخبار» و كتاب اختلاف الفقهاء» و من المرجـح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالأزهر إلى جانب كتاب «الاقتصار» حتى أواخر القرن الرابع .

و قـد انتهى إلينا بعض هـذه المؤلفات الشـيعية التى افتتحت بها الـدعوة إلى دراسـة فقه الإماميـة بمصـر. و يوجد بدار الكتب المصـرية نسـخة مصورة من المجلد الأول من كتاب «دعائم الإسلام»، و عنوانه الكامل «دعائم الإسلام فى الحلال و الحرام و القضايا و الأحكام، مـن أهـل بيت رسـول اللّه صـلى اللّه عليه و على آله». و يقـول النعمـان القيروانى فى ديبـاجته: «إنه لمـا اضـطربت الأحكـام و اختلفت المذاهب و انقلبت أوضاعها، رأى عملا بقول رسول اللّه: «إذا ظهرت البدع فى أمتى فليظهر العالم علمه» أن يضع كتابا جامعا مختصـرا بما جاء عن الأئمة من أهل بيت رسول اللّه، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم فى دعائم الإسـلام، و ذكر الحلال و الحرام، و القضايا و الأحكام، و هذه الدعائم حسبما ورد عن الإمام جعفر ابن محمد الصادق هى «الولاية و الطهارة و الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و الجهاد»، و هى الموضوعات التى يتناولها المجلد الأول من الكتاب.

و توجـد بـدار الكتب نسـخة مصورة قديمة من كتاب «الأخبار» أو «شـرح الأخبار»، و قد ذكر النعمان القيرانى موضوعه و طريقة تأليفه فى مقـدمته فيمـا يـأتى، «آثرت منه الأخبـار و جمعت منه الآثار فى فضل الأئمـة الأبرار حسـبما وجـدته؛ و غايـة ما أمكننى واسـتطعته؛ فصححت ما بسطته فى كتابى هذا و ألفته، بأن عرضته على ولى الأمر و صاحب الزمان

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۵۸

و العصـر، مولاى المعز لـدين اللّه أمير المؤمنين عليه السـلام و على سـلفه و خلفه، و أثبت منه ما أثبته و صـح عنـده و عرفه و أثره عن الأئمـة الطاهرين و أجاز لى سـماعه منه، و بأن أرويه لمن يأخـذه عنى و عنه عليه السـلام، فبسـطت فى هـذا الكتاب ما أثبته و أجازه و عرفه، و أسقطت ما أنكره من ذلك، و ذلك مما نسبه إلى أهل الحق المبطلون و حرف من قولهم المحرفون».

ثم قرىء بالأـزهر كتـاب ألفه الوزير ابن كلس فى الفقه الشـيعى على مـذهب الإسـماعيلية ممـا سـمعه فى ذلك من المعز لـدين اللّه و العزيز باللّه، و هو المعروف بالرسالة الوزيرية؛ و كان يجلس لقراءته و تدريسه بنفسه حسبما قدمنا. و أفتى الناس بما فيه .

فالكتب الأولى التى قررت للتدريس بالأزهر هى كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية أعنى من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها، و كان لها صبغة رسمية واضحة. و كان التدريس بالأزهر يجرى يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية. و شدد فى ذلك بادىء ذى بدء حتى إنه فى سـنة إحـدى و ثمانين و ثلاثمائة فى عهد العزيز باللّه، قبض على رجل وجد عنده كتاب «الموطأ» للإمام مالك. و جلد من أجل إحرازه .

و فى سـنة ست عشـرة و أربعمائـة، أمر الخليفـة الظـاهر لإـعزاز دين اللّه ولـد الحـاكم بأمر اللّه بأن يـدرس الـدعاة للناس كتاب «دعائم الإسـلام» و كتاب «مختصـر الوزير» و رتب لمن يحفظهما مالا و الـدعاة هم أساتـذة دار الحكمة و قد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع

الأزهر فی أحیان کثیرة و قد عرفنا موضوع کتاب «دعائم الإسلام» و عرفنا مؤلفه. أما «مختصر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۵۹

الوزیر» فیلوح لنا أنه هو مؤلف ابن کلس أعنی «الرسالة الوزیریة».

و المرجح أن کثیرا من الکتب الفقهیة التی کانت تدرس بدار الحکمة کانت تدرس أیضا بالأزهر کما یقول عنان، و إن کنا لم نعثر علی نصوص أو بیانات أخری تلقی ضوءا علی أنواع الکتب التی کانت تدرس بالأزهر فی هذا العصر فی العلوم الأخری. و کانت تشمل مصنفات أعلام الأساتذة المعاصرین الذین انتهت إلیهم الریاسة فی بعض العلوم أو الذین تولوا التدریس بالأزهر یومئذ، مثل العلامة أبی الحسن علی بن إبراهیم الحوفی إمام العربیة و النحو و صاحب کتاب إعراب القرآن و ابن بابشاذ النحوی صاحب کتاب «المقدمة» «و شرح الجمل»، و ابن القطاع اللغوی صاحب کتاب «الافعال»، و أبی محمد عبد اللّه بن بری المصری إمام اللغة فی عصره، و أبی العباس أحمد بن هاشم المحدث و المقرىء، و أبی القاسم الرعینی الشاطی إمام القراءات و صاحب القصیدة الشهیرة فی علم القراءات «حرز الأمانی و وجه التهانی» ، و غیرهم ممن انتهت إلیهم الریاسة فی هذا العصر، و اعتبرت مصنفاتهم متونا و مراجع. بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئک الأئمة تدرس بالأزهر حتی العصر الأخیر مثل قصیدة الشاطبی فی القراءات.

علی أن کثیرا من الکتب التی ألفت و درست فی هذا العهد، قد دثر بانتهاء الدولة الفاطمیة و حرص الدولة الأیوبیة التی خلفتها، علی محو رسومها و آثارها.

هذا و قد عنیت الدولة الفاطمیة عنایة خاصة باقتناء الکتب و إنشاء المکتبات العظیمة، و کان بالقصر الفاطمی مکتبة جامعة یفیض المؤرخون کما یقول عنان فی وصف عظمتها و نفاسة محتویاتها، و کان بها ما یزید علی مائتی ألف مجلد فی سائر العلوم و الفنون، فی الفقه و الحدیث و اللغة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۰

و التاریخ و الأدب و الطب و الکیمیاء و الفلک و غیرها. و قال ابن أبی طی بعد ما ذکر استیلاء صلاح الدین علی القصر «و من جملة ما باعوه خزانة الکتب، و کانت من عجائب الدنیا، و یقال إنه لم یکن فی جمیع بلاد الإسلام دار کتب أعظم من التی کانت بالقاهرة فی القصر» . و کان بدار الحکمة مکتبة أخری یرجع إلیها الأساتذة و الطلاب، و بها عدد کبیر من الکتب الفلسفیة و الریاضیة و الروحانیة و غیرها مما یتصل بدروس الحکمة .

و کانت فی الواقع خلفا لمکتبة الاسکندریة الشهیرة. و کان للجامع الأزهر مکتبة خاصة به، و کانت المساجد الجامعة تزود فی هذه العصور بمجموعات من الکتب و لا سیما کتب الحدیث و الفقه. و لکن یوجد ثمة ما یدل علی أن الأزهر کان له من خزائن الکتب نصیب حسن، و کانت له مکتبة کبیرة ذات أهمیة خاصة، فإن ابن میسر یقول فی أخبار سنة ۵۱۷ ه إنه قد أسند إلی داعی الدعاة أبی الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الکتب ؛ و إسناد الإشراف علی خزانة الکتب إلی داعی الدعاة، و هو أکبر رئیس دینی بعد قاضی القضاة، دلیل علی قیمتها و أهمیتها.

و کان فی مقدمة الأساتذة المدرسین فی الأزهر بنو النعمان قضاة مصر، فکان القاضی أبو الحسن علی بن النعمان أول من درس بالأزهر، و کان فوق تضلعه فی فقه آل البیت أدیبا شاعرا، و توفی سنة ۳۷۴ ه، و درس بالأزهر أیضا أخوه القاضی محمد بن النعمان المتوفی سنة ۳۸۹ ه، ثم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۱

ولده الحسین بن النعمان قاضی الحاکم بأمر اللّه . و من المرجح أن فقیه مصر و مؤرخها الکبیر الحسن بن زولاق (المتوفی سنة ۳۸۷ ه)، کان من الذین تولوا الدراسة بالأزهر یومئذ، فقد کان صدیق المعز لدین اللّه و مؤرخ سیرته، ثم صدیق ولده العزیز من بعده. و من المعقول أن یقع الاختیار علیه للتدریس بالمعهد الفاطمی الجدید، کما یقول عنان.

و هناک من أعلام الفکر و الأدب فی هذا العصر من کانت لهم صلة علیة بالأزهر فتلقوا دراستهم کما یقول عنان أو تولوا التدریس فیه، فمنهم المسبحی الکاتب و المؤرخ الشهیر، و هو الأمیر المختار عز الملک محمد ابن عبد اللّه بن أحمد الحرانی، ولد بمصر سنة ۳۶۶ ه، و توفی سنة ۴۲۰ ه. و کان من أقطاب الأمراء و العلماء، تولی الوزارة للحاکم بأمر اللّه و نال حظوة لدیه، و أخذ بقسط فی مختلف علوم عصره، و من المعقول أن یکون المسبحی و هو من أولیاء الفاطمیة و أقطاب علمائها من أساتذة المعهدین الفاطمیین: دار الحکمة و الأزهر. و شغف المسبحی بتدوین التاریخ و ألف فیه عدة کتب منها تاریخه الکبیر المسمی «أخبار مصر»، و هو أثر ضخم یتناول تاریخ مصر و ما بها من الأبنیة و العجائب، و ذکر نیلها و أقالیمها و مجتمعاتها حتی أوائل القرن الخامس الهجری، و لم یصلنا هذا الأثر الذی یلقی بلا ریب أعظم ضوء علی تاریخ الدولة الفاطمیة فی عصرها الأول، و لکن الشذور التی وصلتنا منه علی ید المقریزی و غیره من المؤرخین المتأخرین تنوه بقیمة هذا الأثر و نفاسته. و کتب المسبحی کتبا أخری فی التاریخ و الأدب و الفلک و لکنا لم نتلق شیئا منها .

و منهم أبو عبد اللّه القضاعی الفقیه و المحدث و المؤرخ، و هو محمد ابن سلامة بن جعفر. ولد بمصر فی أواخر القرن الرابع، و توفی بها

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۲

سنة ۴۵۴ ه. و کان من أقطاب الحدیث و الفقه الشافعی، تولی القضاء و غیره من مهام الدولة فی عهد الخلیفة المستنصر باللّه الفاطمی، و أوفده المستنصر سفیرا إلی تیودورا قیصرة قسطنطینیة سنة ۴۴۷ ه (۱۰۵۵ م) لیحاول عقد الصلح بینها و بین مصر، و کتب عدة مصنفات فی الحدیث و الفقه و التاریخ منها «الشهاب» و «مسند الأصحاب» و هما فی الحدیث و کتاب «مناقب الإمام الشافعی» و «أبناء الأنبیاء» و «عیون المعارف» و هما مختصران فی التاریخ، و کتاب «المختار فی ذکر الخطط و الآثار» و هو تاریخ مصر و القاهرة حتی عصره .

و منهم الحوفی النحوی اللغوی، و هو أبو الحسن علی بن إبراهیم ابن سعید و کان من أئمة اللغة فی عصره، و اشتغل مدة طویلة بالتدریس فی مصر و القاهرة، و ألف کتبا کثیرة فی النحو و الأدب، منها کتاب «إعراب القرآن» و کانت وفاته فی سنة ۴۳۰ ه.

و منهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصری، و قد کان من کبار المحدثین و المقرئین و اشتهر بتدریس علم القراءات، و توفی سنة ۴۴۵ ه.

و منهم ابن بابشاذ النحوی الشهیر، و هو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصری المعروف بابن بابشاذ، کان إمام عصره فی اللغة و النحو و ألف فیهما عدة کتب ضخمة و اشتغل حینا بدیوان الإنشاء فی عهد المستنصر باللّه و توفی سنة ۴۶۹ ه.

و منهم أبو عبد اللّه محمد بن برکات النحوی تلمیذ القضاعی، کان أیضا من أئمة اللغة و النحو و توفی سنة ۵۲۰ ه.

و بعد فقد کان الأزهر بحق أعظم مؤسس لصرح الحیاة العقلیة و الثقافیة فی عصر الفاطمیین.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۳

و نذکر فی هذه المناسبة أن ممن عهد إلیهم فی التدریس فی الأزهر عند إنشائه القاضی علی بن میمون المتوفی ۳۷۴ ه- ۹۸۴ م و أخوه القاضی محمد المتوفی عام ۳۸۹- ۹۹۸ م. و قد نبغ الحافظ السلفی المتوفی عام ۵۷۶ ه و لا شک أنه کان له نشاط علمی فی الأزهر.

و نحن نعلم مبلغ اهتمام الفاطمیین بالعلوم الریاضیة و الطبیة و الفلکیة و الجغرافیة تلک العلوم التی أنشأوا لها فی عهد الحاکم سنة ۳۹۵ ه مؤسسة خاصة أسموها دار الحکمة، و هذا مما یرجح فی نظرنا أن هذه العلوم کانت موضوع دراسة فی الأزهر أیضا، بالإضافة إلی العلوم الأخری. غیر أنه لیس من شک أن الصدارة و الشطر الأکبر من العنایة کانتا للعلوم النقلیة الدینیة و لا سیما علوم قانون الشریعة.

نعم إنه فی عهد الدولة الفاطمیة- أعنی فی غضون قرنین کاملین- اقتصر التعلیم الدینی علی المذهب الشیعی، فأصبح هو المذهب

السائد فی التطبیقات العلمیة و الأحکام القضائیة، و صارت مذاهب أهل السنة مجهولة، بل کانت کتبهم تصادر فی بعض الأحیان.

الأزهر جامع الدولة الرسمی:

فی یوم عید الفطر سنة ۳۶۲ ه رکب المعز لدین اللّه أول الخلفاء الفاطمیین بمصر عقب مقدمه إلی عاصمة ملکه الجدید بقلیل، کما یقول عنان - إلی الجامع الأزهر لصلاة العید، و ألقی خطبة بلیغة أبکی فیها الناس ، و کانت هذه أول صلاة رسمیة یشهدها الخلیفة الفاطمی بالجامع الأزهر.

و استمر الأزهر یستأثر بهذا الامتیاز الرسمی فی ظل الدولة الفاطمیة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۴

زهاء أربعین عاما تقام فیه الجمع الرسمیة، و یخطب الخلیفة فیه بنفسه فی جمع رمضان و فی الأعیاد، حتی تم إنشاء الجامع الحاکمی أو الجامع الأنور فی عصر الحاکم بأمر اللّه، و کان الخلیفة العزیز باللّه قد بدأ بإنشائه منذ سنة ۳۸۰ ه، و شهد به الجمعة فی رمضان و خطب فیه غیر مرة، و لکنه توفی قبل إتمامه، فعنی ولده الحاکم بأمر اللّه بإتمامه منذ سنة ۳۹۳ ه، و استغرق بناؤه عشر سنین. و لما تم بناؤه عنی الحاکم بفرشه و تأثیثه عنایة کبیرة، و زین بالستور الفخمة و التنانیر الفضیة، و أقیمت فیه الجمعة الرسمیة فی رمضان سنة ۴۰۳ ه و صلی فیه الحاکم بالناس و کان یوما مشهودا ، و ألفی الجامع الأزهر لأول مرة فی جامع الحاکم منافسا ینازعه الصفة الرسمیة التی استأثر بها حتی ذلک الحین. و کانت الجمعة الرسمیة تقام أیضا من وقت إلی آخر فی بعض المساجد الفاطمیة الأخری، مثل جامعی راشدة و المقسی اللذین أنشأهما الحاکم بأمر اللّه، و کانت الخطب الخلافیة تلقی فی الأزهر و الجامع الحاکمی، و کذلک فی جامعی عمرو و ابن طولون اللذین لبثا یحتفظان دائما بهیبتهما القدیمة ، بید أن الجامع الأزهر لم یفقد من جراء هذه المنافسة مکانته الخاصة، بل کان دائما یعتبر فی نظر الخلفاء الفاطمیین و رجال الدولة مسجد الدولة الأول.

و کانت إقامة الجمعة و الصلوات الموسمیة الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبیة الرسمیة التی أسبغتها علیه الخلافة الفاطمیة، و قد رأینا فیما تقدم أن الجامع الأزهر أنشیء لیکون رمزا لإمامة الدولة الجدیدة و منبرا لدعوتها، و قد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظا بهذه الصفة بالرغم من قیام عدة أخری من المساجد الفاطمیة الجامعة التی نافسته فیما بعد فی إقامة الجمعة و الصلوات الموسمیة، و کان الخلیفة یشهد الصلاة أیام الجمع و الأعیاد الموسمیة، و یخطب فیها بنفسه فی أحیان کثیرة، و کانت خطبة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۵

الجمعة الرسمیة ما تزال علی عهدها تلقی بالجامع الأزهر حتی أواخر الدولة الفاطمیة .

و کان الخلیفة یلقی خطب الجمعة فی شهر رمضان بالجامع الأزهر قبل إنشاء الجامع الحاکمی و غیره من المساجد الفاطمیة الجامعة، و کان یستریح الجمعة الأولی و یلقی الخطبة فی الجمع الثلاث الأخیرة. و کان یرکب إلی الصلاة فی هیئة مخصوصة و یؤدیها وفقا لرسوم و تقالید معینة، و قد انتهت إلینا من أقوال المؤرخین المعاصرین نبذ شائقة فی وصف هذه المواکب و الرسوم المذهبیة الفخمة، فمثلا یقول لنا المسبحی فی حوادث سنة ۳۸۰ ه ما یأتی:

«و فی یوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانین و ثلثمائة رکب العزیز باللّه إلی جامع القاهرة بالمظلة الذهبیة، و بین یدیه نحو خمسة آلاف ماش و بیده القضیب، و علیه الطیلسان و السیف، فخطب و صلی صلاة الجمعة و انصرف، فأخذ رقاع المتظلمین بیده و قرأ منها عدة فی الطریق، و کان یوما عظیما ذکرته الشعراء» .

و کان للجامع الأزهر یستأثر منذ عهد المعز لدین اللّه حتی قیام الجامع الحاکمی بالخطب الرسمیة الثلاث فی رمضان، ثم کانت تلقی هذه الخطب بعد ذلک علی الترتیب الآتی: الأولی بالجامع الحاکمی (أو الجامع الأنوار)، و الثانیة بالجامع الأزهر، و الأخیرة بالجامع العتیق أو جامع عمرو، و قد نقل المؤرخون المتأخرون عن ابن الطویر و غیره من المؤرخین المعاصرین هیئة صلاة الجمعة فی هذه

الأیام المشهودة. و بیان ذلک- کما یقول عنان- أن یرکب الخلیفة فی موکبه الفخم إلی الجامع و یخرج من باب الذهب و المظلة بمشدة الجوهر علی رأسه، و قد ارتدی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۶

ثیاب الحریر الأبیض الساذجة توقیرا للصلاة، و یدخل من باب الخطابة، و بین یدیه القراء یتلون منذ خروجه من القصر، و من حوله الجند و الرکابیة. و إذا کانت الصلاة بالجامع الأزهر فإنه یخرج فی موکبه إلی الجامع من باب الدیلم الذی غدا باب المشهد الحسینی فیما بعد، و یعبر «الخوخ» (الدروب) السبع إلی رحبة الجامع الأزهر، و کانت هذه الرحبة ساحة ساشعة تقع فی الجهة البحریة من الجامع، و کان یحتشد فیها الجند کلما قصد الخلیفة إلی الأزهر، ثم یدخل الخلیفة الجامع من بابه البحری، و یجوز إلی الدهلیز الأول الصغیر، و منه إلی القاعة المعلقة التی کانت برسم جلوسه فیجلس فی مجلسة، و ترخی المقرمة الحریر و تحفظ المقصورة من خارجها بترتیب أصحاب الباب و اسفهسلار الجند، و من الداخل حتی الباب بصبیان الخاص و غیرهم. و یقرأ المقرئون و تفتح أبواب الجامع حینئذ للناس بعد غلقها، و وضع الحجاب علیها قبل مقدم الخلیفة، و تتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله، فیأتی صاحب بیت المال و بین یدیه الفرش المختص بالخلیفة محمولا بأیدی الفراشین المیزین، ملفوفا فی العراضی الدیبقیة، فیفرش فی المحراب ثلاث طراحات فاخرات واحدة فوق أخری، و یعلق ستران یمنة و یسرة یکتب فی أولهما بالحریر الأحمر سورة الفاتحة و سورة الجمعة، و یکتب فی الستر الثانی سورة «المنافقون» کتابة واضحة، فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر کلهم علی باب مجلس الخلیفة، و عندئذ یصعد قاضی القضاة إلی المنبر و فی یده مدخنة لطیفة من الخیزران یقدمها صاحب بیت المال و فیها ند خاص بالخلیفة، و یبخر بها أعلی المنبر و هو یقبل درجاته. ثم یدخل مقصورة الخلیفة مسلما بقوله: «السلام علی أمیر المؤمنین الشریف- القاضی- الخطیب و رحمة اللّه و برکاته «الصلاة یرحمک اللّه». فیخرج الخلیفة و حوله الأساتذة المحنکون و الوزراء و الأمراء و الحرس المسلح، و یصعد إلی أعلی المنبر تحت القبة المبخرة، و یقف الوزیر بباب المنبر و وجهه إلیه، فإذا جلس أشار إلی الوزیر بالصعود فیصعد إلیه و یقبل یدیه و رجلیه

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۷

بحیث یراه الناس، ثم یزر تلک القبة حتی تصیر کالهودج، ثم ینزل مستقبلا للخلیفة. و یقف ضابطا للمنبر، و ینهض الخلیفة فیلقی خطبة قصیرة من مسطور یعده له دیوان الإنشاء یتلو فیها آیة من القرآن الکریم، ثم یصلی علی أبیه علی بن أبی طالب وجده النبی علیه الصلاة و السلام، و یعظ الناس وعظا بلیغا موجزا، و یذکر من سلف من آبائه حتی یصل إلی نفسه و یتوسل بدعوات فخمة تلیق به، ثم یدعو للوزیر و الجیوش بالنصر و الظفر علی الکافرین و المخالفین، ثم یختتم بقوله: «اذکروا اللّه یذکرکم» فیصعد الیه الوزیر، و یفک أزرة القبة و یعود القهقری، فینزل الخلیفة و یقف للصلاة فوق الطراحات المذکورة فی المحراب وحده إماما، و خلفه الوزیر و القاضی و من ورائهما الأساتذة و الأمراء و أصحاب الرتب و المؤذنون بترتیب مخصوص، فإذا سمع الوزیر الخلیفة أسمع القاضی، و أسمع القاضی المؤذنین فأسمعوا الناس، و یقرأ الخلیفة فی الرکعة الأولی ما هو مکتوب علی الستر الأیمن، و فی الرکعة الثانیة ما هو مکتوب علی الستر الأیسر، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس و رکبوا تباعا، ثم یعود الخلیفة بموکبه إلی القصر و البوقات تضرب ذهابا و إیابا، و یتکرر هذا الترتیب و النظام فی الجمعتین الأخریین .

و قد لبث الأزهر فی العهد الفاطمی فضلا عن صبغته الجامعیة و عن إقامة الجمع و الصلوات الرسمیة فیه مرکزا لکثیر من المظاهر و المناسبات الرسمیة الأخری.

فمن ذلک أنه کان مرکز المحتسب، و کان منصب المحتسب من أهم المناصب الدینیة فی الدولة الفاطمیة، و هو الثالث عندهم بعد قاضی القضاة و داعی الدعاة، و عمله یتناول الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر علی قاعدة الحسبة، و له نواب فی جمیع أنحاء القطر، و یجلس بالجامع

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۸

الأزهر و جامع مصر (جامع عمرو) یوما بعد یوم ، و کانت مجالس القضاء تعقد قبل قیام الجامع الأزهر بجامع عمرو و الجامع الطولونی.

و من ذلک أنه کان مرکز الاحتفال الرسمی بالمولد النبوی الکریم، ففی الیوم الثانی عشر من شهر ربیع الأول یرکب القاضی بعد العصر و معه الشهود إلی الجامع الأزهر، و معهم أرباب تفرقة صوانی الحلوی التی أعدت بالقصر لتفرق فی أرباب الرسوم: کقاضی القضاة و داعی الدعاة و قراء الحضرة و الخطباء و غیرهم، فیجلسون فی الجامع مقدار قراءة للختمة الکریمة، ثم یعودون فی موکبهم إلی القصر، و ینتظرون تحت المنظرة التی یجلس فیها الخلیفة، ثم تفتح إحدی طاقات المنظرة و یبدو منها وجه الخلیفة، ثم یخرج أحد الأستاذین المحنکین یده و یشیر بکمه بأن الخلیفة یرد علیکم السلام، و یقرأ القراء و یخطب الخطباء بترتیب معلوم، فإذا انتهی الحفل أخرج الأستاذ یده مشیرا برد السلام کما تقدم، ثم تغلق الطاقتان و ینصرف الناس .

و کان الاحتفال المحزن بیوم عاشوراء، أو مأتم عاشوراء، یقام بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسینی فی سنة ۵۴۹ ه، و کان هذا الحفل من أجمل المظاهر المذهبیة التی رتبتها الدولة الفاطمیة لإحیاء ذکری الحسین. ففی العاشر من المحرم یحتجب الخلیفة عن الناس، و فی الضحی یرکب قاضی القضاة و الشهود، و قد ارتدوا ثیاب الحداد، إلی الجامع الأزهر (أو المشهد الحسینی فیما بعد) فی حفل من الأمراء و الأعیان و قراء الحضرة و العلماء، ثم یأتی الوزیر فیتبوأ صدر المجلس، و یجلس إلی جانبیه قاضی القضاة و داعی الدعاة، و القراء یتلون القرآن، ثم ینشد قوم من الشعراء أشعارا فی رثاء الحسن و الحسین و آل البیت، و یضج الحضور بالبکاء و العویل، ثم ینصرف الوزیر إلی داره و یستدعی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۶۹

القوم إلی القصر و قد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط، فیجدون صاحب الباب فی انتظارهم فیجلس القاضی و الداعی إلی جانبه و الناس علی اختلاف مراتبهم، و یقرأ القراء و ینشد المنشدون علی النحو السابق. ثم یمد فی القاعة سماط الحزن عند الظهر، و لیس فیه سوی العدس و الألبان و الأجبان الساذجة و الأعسال النحل و الخبز الأسمر، و یدخل من شاء لتناول الطعام فإذا انتهی القوم انصرفوا إلی دورهم. و یعم الحزن و النواح القاهرة فی ذلک الیوم، و تعطل الأسواق و یعتکف الناس حتی العصر، ثم تفتح الأسواق و تسترد العاصمة شیئا من نشاطها و مظهرها العادی .

و فی لیالی الوقود الأربع، و هی لیلة أول رجب، و لیلة نصفه، و لیلة أول شعبان و لیلة نصفه، کان الخلیفة یقصد مساء إلی منظرة الجامع الأزهر، و کانت بجواره من الجهة القبلیة و تشرف علیه و یجلس الخلیفة فی هذه المنظرة و معه حرمه، و ذلک لمشاهدة الزینات المضیئة و الاحتفالات الفخمة التی کانت تقام فی تلک اللیالی الشهیرة . و إلیک وصف المسبحی لبعض هذه اللیالی. قال فی حوادث شهر رجب سنة ۳۸۰ ه «و فیه خرج الناس فی لیالیه علی رسمهم فی لیالی الجمع و لیلة النصف إلی جامع القاهرة (یعنی الجامع الأزهر) عوضا عن القرافة، و زید فیه فی الوقید علی حافات الجامع، و حول صحنه التنانیر و القنادیل و الشمع علی الرسم فی کل سنة، و الأطعمة و الحلوی و البخور فی مجامر الذهب و الفضة و طیف بها، و حضر القاضی محمد بن النعمان لیلة النصف بالمقصورة و معه شهوده و وجوه البلد، و قدمت إلیه سلال الحلوی و الطعام و جلس بین یدیه القراء و غیرهم و المنشدون و الناحة و أقام إلی نصف اللیل، و انصرف إلی داره بعد أن قدم إلی من معه أطعمة من عنده و بخرهم»، و قال فی حوادث شعبان من نفس السنة «و فی لیلة النصف من شعبان کان للناس جمع عظیم بجامع القاهرة من الفقهاء و القراء و المنشدین و حضر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷۰

القاضی محمد بن النعمان فی جمیع شهوده و وجوه البلد و وقد التنانیر و المصابیح علی سطح الجامع و دور صحنه، و وضع الشمع علی المقصورة و فی مجالس العلماء، و حمل إلیهم العزیز باللّه الأطعمة و الحلوی، و البخور فکان جمعا عظیما» .

و هکذا کانت لیالی الوقود من المناسبات العامة التی یتبوأ فیها الجامع الأزهر مکانة خاصة، فیخرج الناس إلیه من کل فج، و یبدو فیها المسجد الشهیر کأنه شعلة من النور و تضاء فی جوانبه و علی حافاته المشاعل و الواقدات الساطعة، و یعقد فی صحنه مجلس حافل من القضاة و العلماء برئاسة قاضی القضاة، و یبعث الخلیفة إلیهم بسلال من الأطعمة و الحلوی الفاخرة، و تضاء جمیع المساجد الأخری و تبدو العاصمة الفاطمیة کلها فی حلل بدیعة من الأنوار الساطعة.

هذا و قد وصف مؤرخو الدولة الفاطمیة أیضا الموکب الرسمی الذی کان ینظم فی لیالی الوقود، عقب الغروب، و یتقدمه القاضی، و من حوله القراء و المؤذنون و یسیرون علی ضوء المشاعل و الشموع الساطعة إلی القصر، ثم ینتظمون فی میدان بین القصرین تجاه باب الزمرد، أحد أبواب القصر الغربیة، و ینتظرون هنالک حتی یطل علیهم الخلیفة و یحییهم من إحدی طاقات المنظرة الخلافیة .

کذلک کان الجامع الأزهر أیام المعز و العزیز و الحاکم، مرکزا لمجالس الحکمة الفاطمیة. و کانت هذه المجالس الشهیرة التی رتبتها الخلافة الفاطمیة لبث دعوتها و توطید إمامتها تتخذ صورة الدعوة إلی قراءة علوم آل البیت و التفقه فیها؛ و کان یقوم بإلقاء هذه الدروس أیام المعز بنو النعمان، و هم أسرة مغربیة نابهة قدمت فی رکاب الخلیفة الفاطمی، و تولت قضاء مصر زهاء نصف قرن؛ و کانت مجالس الحکمة تعقد أحیانا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷۱

فی القصر و أحیانا فی الجامع الأزهر، و یشترک فی إلقائها بعض کبراء الدولة مثل الوزیر ابن کلس وزیر المعز ثم ولده العزیز، ثم عهد بعد ذلک إلی داعی الدعاة بالإشراف علی تنظیم هذه الدعوة و بثها، و وضعت لها نظم و رسوم خاصة، و أحیطت مجالس الحکمة یومئذ بشیء من التحفظ و استحالت إلی نوع من الدعوة السریة تلقی فی الخاصة قبل کل شیء، و تعقد مجالسها فی القصر، و کان للکافة أیضا نصیب من تلک المجالس، فیعقد للرجال مجلس بالقصر، و یعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر.

و کان الداعی یشرف علی هذه المجالس جمیعا بنفسه أو بواسطة نقبائه و نوابه، و کانت الدعوة تنظم طبقا لمستوی الطبقات و الأذهان، فلا یتلقی الکافة سوی مبادئها و أصولها العامة و یرتفع الدعاة بالخاصة و المستنیرین إلی مراتبها و أسرارها العلیا .

و لا تعرف أیة مناسبة أخری غیر مجالس الحکمة الفاطمیة یمثل فیها النساء فی الجامع الأزهر فی ذلک العصر لشهود نوع من القراءة و الدرس، بید انه یوجد ما یدل علی أن النساء کن یظهرن أحیانا فی بعض العصور المتأخرة فی حلقات الأزهر الدراسیة، و قد کان من هؤلاء أم زینب فاطمة بنت عباس المعروفة بالبغدادیة التی توفیت سنة ۷۱۴ ه، و کانت فقیهة وافرة العلم. و انتفع بعلمها کثیر من نساء مصر و دمشق و ذکر الجبرتی أیضا ما یفید أنه کان ثمة سیدة فقیهة عمیاء تحضر دروس الشیخ عبد اللّه الشرقاوی شیخ الجامع الأزهر فی أوائل القرن الثالث عشر الهجری .

الأزهر و تجدید مبانیه:

و قد تعهد الخلفاء الفاطمیون الجامع الأزهر بالتجدید و العمارة فی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷۲

فرص عدة، ففی سنة ۳۷۸ ه جدد فیه العزیز باللّه أشیاء، ثم جدده ولده الحاکم بأمر اللّه و زوده بمجموعة من التنانیر الفضیة، و رتب له فی سنة ۴۰۰ ه مع بعض المنشآت الفاطمیة الأخری أوقافا ینفق من ریعها علی إدارته و شؤونه، فکانت أول وقفیة رتبت للجامع الأزهر.

و قام الخلیفة المستنصر باللّه أیضا بتجدید الأزهر، و جدده من بعده الحافظ لدین اللّه، و أنشأ فیه مما یلی الباب الغربی مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء ... و فی عهد الملک الظاهر بیبرس، قام الأمیر عز الدین أیدمر الحلی، نائب السلطة بعمارته و تجدیده تجدیدا شاملا، و کان الخراب قد تطرق الیه، فأنفق علی عمارته و إصلاحه و تجمیله أموالا عظیمة، و سعی فی اعادة خطبة الجمعة الیه کما سنذکر، و فی سنة ۷۰۲ ه فی عهد السلطان الملک الناصر وقعت بمصر زلزلة عظیمة، و سقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر، فقام

أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت، و تولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلار، و أنشأ الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش مدرسته التى عرفت باسمه «الطيبرسية» بجوار الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية لتكون ملحقا له، و كمل بناءها فى سنة ۷۰۹ ه و قرر بها درسا للشافعية، و بعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد، أستاذ دار الملك الناصر مدرسته المقابلة لها فى الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر، مكان دار الأمير عز الدين أيدمر الحلى و قد تم بناؤها عام ۷۴۰ ه و أنشأ بها دروسا للشافعية و الحنفية و ملجأ للصوفية.

و قد حجبت المدرستان الطيبرسية و الأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية و ما زالتا قائمتين فى مكانهما إلى اليوم. و فى سنة ۷۲۵ ه قام بتجديد الجامع الأزهر و عمارته القاضى نجم الدين محتسب القاهرة، ثم جددت عمارته سنة إحدى و ستين و سبعمائة فى عهد السلطان الملك الناصر حسن على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار، و كان يسكن على مقربة من الأزهر، فاستأذن السلطان فى إصلاحه و قام فيه بعمارة شاملة، و أنشأ فيه دروسا جديدة للفقه الحنفى، و رتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۷۳

و أوقف على ذلك أوقافا جليلة. و فى سنة ۸۸۱ ه فى عهد الملك الأشرف قايتباى أمر السلطان بإزالة الخلوات التى كانت بسطح الأزهر وفقا لفتوى صدرت بذلك، و رسم بتجديد الجامع و عمارة ما تشعث منه، و أمر بإنشاء المنارة الواقعة فى الجهة البحرية الغربية إلى يمين المدرسة الأقبغاوية و الباب الذى تعلوه، حسبما نقش على أحجار هذا الباب، و تمتاز هذه المنارة برشاقتها و زخارفها الجميلة. و فى أواخر عهد الأشرف أيضا، قام الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى بعمارة الجامع الأزهر و تجديده، و أنفق عليه من أمواله جملة كبيرة، و انتهت هذه العمارة فى سنة ۹۰۰ ه. و أنشأ السلطان الغورى بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين التى ما زالت قائمة إلى الآن فى الجهة الغربية إلى جانب منارة الأشرف قايتباى.

و فى أثناء العهد التركى قام عدة من الولاة و الأكابر بتجديد الأزهر، فجدده فى سنة ۱۰۰۴ ه الشريف محمد باشا و الى مصر و رتب به أطعمة للفقراء. و عمر به الوزير حسن باشا الوالى مقام الحنفية فى سنة ۱۰۱۴ ه، ثم جدده الأمير إسماعيل بك ابن الأمير إيواظ بك القاسمى فى أوائل القرن الثانى عشر. على أن أعظم عمارة أجريت بالجامع الأزهر فى ذلك العهد هى التى قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلى فى أواخر القرن الثانى عشر، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير فى الناحية الشرقية القبلية من الجامع بهوا كبيرا يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة، و أنشأ للجامع محرابا و منبرا جديدين، و بنى فى أعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، و أنشأ أيضا بداخله رحبة متسعة و صهريجا عظيما، و أنشأ له داخل هذه الرحبة مدفنا عليه قبة معقودة، كما أنشأ بتلك الجهة رواقا خاصا بطلاب الصعيد، و جدد المدرسة الطيبرسية و جعلها هى و المدرسة الأقبغاوية داخل الجامع، و أنشأ فيما بينهما بابا عظيما بالهيئة التى نراها اليوم. و أنشأ للجامع منارتين جديدتين، و تقع إحداها فى الجهة

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۷۴

الشرقية القبلية و الأخرى فى الجهة الشرقية، و على الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم ما شهد الجامع الأزهر منذ قرون، و رتب هذا الأمير الكبير للجامع و طلابه مرتبات و أطعمة كثيرة، و مازال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التى جدده بها عبد الرحمن كتخدا، ما عدا تغييرات و إضافات قليلة أجريت فى العهد الأخير .

و هكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية و الرعاية من الخلفاء و السلاطين و الأمراء، يتعهدونه بالتجديد و الإصلاح و النفقة المستمرة، و لم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ما حظى به الأزهر من رعاية، و قد يرجع أكبر الفضل فى ذلك إلى ما يتمتع به الأزهر من الصفات العلمية إلى جانب صفته الدينية، و ما زال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة يحتفظ بفخامته و رونقه وجدته بالرغم من عمره الألفى.

و مما یذکر بالاغتباط أن الأمراء الذین کانوا یبذلون الغالی و الرخیص فی تشیید هذا الجامع و تکبیره کانوا لا یبغون بذلک سوی وجه اللّه تعالی و خدمة العلم، لا حب الظهور و الریاء، فقد ذکر المؤرخون أن الأمیر طیبرس مشید المدرسة الطیبرسیة التی هی الآن من ملحقات الأزهر، لما فرغ من بناء مدرسته و أحضروا الیه حساب نفقاتها، استدعی بطست مملوء بالماء و غسل أوراق الحساب بأسرها من غیر أن یقف علی شیء منها، و قال: شیء خرجنا عنه للّه لا نحاسب علیه!

و ما زال الجامع الأزهر یحتل الموقع الذی أقیم فیه منذ ألف عام.

و ما زالت فیه بقیة من أبنیة الفاطمیین الأولی تحتل مکانها الأول داخل الصرح القائم، و هی تکاد تبلغ نصف المسجد الحالی، و قد وفقت إدارة الآثار العربیة أخیرا إلی الکشف عن رأس المحراب الفاطمی القدیم، و قد

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷۵

کان مغطی بغطاء خشبی یرجع إلی عصر الملک الظاهر بیبرس البندقداری، فظهر بانتزاعه زخارف و نقوش فاطمیة یرجح أنها ترجع الی عهد إنشاء المسجد الأول، أی فی عهد جوهر و المعز.

و مقصورة الجامع الأزهر تنقسم الی قسمین: المقصورة الأصلیة الکبیرة التی هی من إنشاء القائد جوهر و بها ۷۶ عمودا من الرخام الأبیض الجید علی صفوف متسامتة، و المقصورة الجدیدة التی أحدثها الأمیر عبد الرحمن کتخدا سنة ۱۱۶۷ ه و بها خمسون عمودا من الرخام: فمجموع أعمدة المقصورتین ۱۲۶ عمودا، و إذا أضیف إلی هذا العدد ما بملحقات الجامع من الأعمدة بلغ عددها کلها ۳۷۵ عمودا، و أرض المقصورة الجدیدة مرتفعة عن أرض المقصورة القدیمة بنحو نصف ذراع بحیث یصعد من القدیمة إلی الحدیثة بدرجتین.

و قد أنشأ جوهر القنبقائی مدرسة رواق الجوهریة فی أوائل القرن التاسع الهجری، و دفن بها سنة ۷۴۴ ه.

و أنشیء فی عهد عباس الثانی الرواق العباسی، و احتفل بافتتاحه فی ۲۴ شوال سنة ۱۳۱۵ ه. و هو غایة فی الدقة و الفن.

و أعظم زیادة دخلت فیه هی کما ذکرنا بنایة الأمیر عبد الرحمن کتخدا حسن جاویش القازدغلی سنة ۱۱۶۷ هجریة، فزادت فی سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقریبا، و هو عمل تاریخی جلیل.

و بالأزهر الآن خمس منارات یؤذن علیها فی الأوقات الخمس و فی الأسحار، و تضاء بالکهرباء فی لیالی رمضان و المواسم، منها ثلاث منارات من داخل باب المزینین مشرفة علی صحن الجامع، إحداها منارة الأقبغاویة عن یسار الداخل إلی الأزهر أنشأها الأمیر علاء الدین أقبغا عبد الواحد مع مدرسة الأقبغاویة و اثنتان عن یمین الداخل، فالتی بجانب الباب مما یلی الداخل أنشأها السلطان الأشرف قایتبای، و التی تلیها من إنشاء السلطان الغوری و هی أعلی مناراته و أعظمها، و الرابعة بباب الصعایدة،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۷۶

و الخامسة بباب الشربة، و هما من إنشاء الأمیر عبد الرحمن کتخدا.

و لقد کان الأزهر الشریف فی أول نشأته موضع عنایة الخلفاء الفاطمیین فی مصر، و من بعدهم الملوک و الأمراء و الوزراء، و ذوی الجاه منها، یتنافسون فی خدمة هذا الجامع، و یتعهدون أهله، و یشرفون علی حلقات الدروس فیه، و ینشئون الأروقة لسکنی الطلبة، و یشیدون دور الکتب فی علوم الدین و الحکمة و الفلسفة، مما کان له الأثر فی حفز همم الشیوخ و الطلبة إلی التفرغ للتعلم و التعلیم. و قد استمر الأزهر یتسع نطاقه حتی بلغت مساحته الآن سوی ملحقاته ۱۱۳۸۰ مترا مربعا.

و یقول الأستاذ محمد عبد اللّه دراز من کلمة نشرها فی مجلة الأزهر عام ۱۹۵۲: البیت المعمور الذی أرسیت قواعده فی عهد الخلیفة الفاطمی المعز لدین اللّه علی یدی قائده جوهر الصقلی فی سنة ۳۵۹ ه- ۹۷۰ م- کان یتألف فی أول إنشائه من قسمین: «فناء» فسیح یحیط به نطاق من الأعمدة المعقودة، و «مقصورة» أو «مصلی» لا تقل عنه اتساعا، یشقها «مجاز» ممتد من بابها إلی المحراب. و لا تزال معالم القسمین قائمة إلی یومنا هذا لم ینلها تغییر جوهری.

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شيء من الترميم استجابة لضرورة حفظها و صيانتها. و لكن سائر أجزائها لا تزال كما وضعت أول يوم، و لا سيما «المحراب» الذى تراه الآن بنقوشه و رسومه العتيدة، و «المجاز» الذى نشاهد أعمدته بنقوشها و رسومها الأولى. و كذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تتسنّه، و إنما أضيف إليها فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها.

و لقد بقى الأزهر قرونا عدة مكتفيا بحدوده الأولى هذه، حتى كانت بداية القرن الثامن الهجرى، فهناك أخذت تضاف اليه فى عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت فى مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۷۷

حتى صار «فناؤه» الخارجى «صحنا» داخليا، و حتى بلغت مساحة المسجد الآن ۱۱۳۸۰ مترا مربعا، لا يدخل فيها حساب الملحقات.

أولى هذه الإضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا فى المسجد عند دخولنا من الباب الكبير الشمالى الغربى المطل على الميدان. ذلك أننا نجد أنفسنا فى دهليز متوسط الاتساع، فاصل بين جناحين من الأبنية عن يمين و شمال، و نجد أمامنا بابا كبيرا آخر داخليا يفتح على صحن المسجد، فهذا الباب الداخلى الذى يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخى. أما كل هذه الأبنية عن اليمين و الشمال فيما بين البابين، و كذلك الأرض التى أقيمت عليها هذه الأبنية، فإنها من الزيادات التى ضمت إلى الجامع فى القرن الثامن الهجرى و ما بعده.

فالجناح الأيمن (ما عدا منارتيه) أنشأه الامير طيبرس فى سنة ۷۰۹ ه (۱۳۰۹ م) و الجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا فى سنة ۷۴۰ ه (۱۳۴۰ م). و الباب الداخلى و المنارة الرشيقة التى فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباى فى سنة ۸۷۳ ه (۱۴۶۸ م) و المنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين و هى التى تلى هذه على اليمين أيضا من صنع السلطان الغورى فى سنة ۹۱۵ ه (۱۵۱۰ م).

و لقد كان الجناحان فى نظر مؤسسيهما مدرستين، و لكن التثقيف العقلى فى رأيهما- و كذلك هو دائما فى نظر كل سياسة رشيدة- لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحى و لذلك أقام كل منهما فى مدرسته محرابا أنيقا دقيقا من الرخام و الذهب لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته، كأنما صنع أمس.

و الجناحان اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الأزهرية التى تعد من

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۷۸

أنفس المكتبات فى العالم، بما فيها من المخطوطات النادرة، و المجلدات التى تبلغ زهاء مائة ألف مجلد .. فلنغادر الآن هذه الزيادات، و لنعبر «الصحن» فى خط مستقيم، و لندخل المقصورة نجتازها إلى المحراب ... هنالك سنشعر بشيء من الدهشة، إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب، بل نراه منعزلا تمام العزلة فى وسط المصلى؛ و نلاحظ فوق ذلك أن الأرض التى تمتد من خلف هذا المحراب، و التى تكاد تعادل مساحة الأرض التى أمامه، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد اليها بدرجتين؛ و نرى أخيرا أن هناك محرابا ثانيا مستندا كالعادة إلى الجدار الجنوبى الشرقى الذى هو جدار القبلة.

غير أن هذه الدهشة ستزايلنا متى عرفنا أن هذا الإيوان المرتفع قليلا، و المحراب الذى عليه، المتصل بالجدار، و كذلك البابان اللذان فى هذا الجدار، و المنارتان المقامتان فوقهما، كل هذه زيادات جديدة فى المقصورة أضيفت إليها أخيرا على يد الأمير عبد الرحمن كتخدا فى سنة ۱۱۶۷ ه (۱۷۵۳ م). و من السهل حينئذ أن نعرف إلى أى حد بلغ ورع هذا الأمير و تقواه فى المحافظة على تراث سلفه الصالح، و عدم الجرأة على تغيير شيء من معالمه بغير ضرورة مادية .. و هذا هو ما يسمى فى لغة العصر الحاضر: احترام الماضى و صيانة آثار القدماء.

و قبل أن نتأهب للإنصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقترب من جدارها الشمالى الشرقى ... فسنجد فيه بابا صغيرا ننفذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباى المتوفى سنة ۸۴۴ ه (۱۴۴۰ م). لقد بناه هذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة، و لكنه جمع فيها كل

عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق و دقة الفن. و فيها قبة تقوم على قبر بانيها.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۷۹

و قد جدد فى عهد الخديوى إسماعيل فى سنة ۱۲۸۲ ه (۱۸۶۵ م) بناء أحد البابين اللذين فى جدار القبلة، كما أنه فى عهد توفيق جدد فى سنة ۱۳۰۶ ه (۱۸۸۸ م) بناء الإيوان الذى ينتهى بهذا الجدار، و هاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كتخدا كما يعلم مما أسلفناه.

على أن أحدث الزيادات و أفخمها هى المنشآت التى أقيمت منذ عام ۱۹۳۳ و تم بعضها فى ذلك الحين، و لا يزال العمل جاريا فى تكميل باقيها. و هى مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد، و لكنها تشرف عليه من الشمال و الشمال الشرقى، و من الشرق و الجنوب الشرقى، و قد برز إلى الوجود فى سنتى ۱۹۳۵ و ۱۹۳۶ م أربع عمارات كبيرة، خصصت واحدة منها لإدارة الجامعة، و الثلاثة الباقية لسكنى الطلاب. و أما فى عهدنا هذا فقد تم حتى اليوم:

۱- مدرج فخم على أحدث طراز يتسع لألفى مستمع.

۲- كلية للشريعة الإسلامية.

۳- كلية للغة العربية، و الكلية الباقية و هى كلية أصول الدين فى دور الإنشاء، و من الأعمال المتوقع البدء فيها إنشاء.

۱- مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد.

۲- معهد ابتدائى و ثانوى يحضر للكليات الأزهرية.

۳- مستشفى.

۴- حديقة.

و لما كانت أزمة المساكن لا تزال فى حدتها، فإنه ينظر الآن فى مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب، و لا سيما الوافدين منهم من الأقطار الخارجية الإسلامية، بحيث يتألف منها و من المساكن القائمة الآن مدينة جامعية حقيقية تتصل بحرم المسجد و منشآته.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۱

الفصل الخامس الأزهر فى عهد الدولة الأيوبيّة

التاريخ السياسى للدولة:

قامت الدولة الأيوبية فى مصر من عام ۵۶۷ ه على يدى مؤسسها:

السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و قد دعم كيان دولته، و محا من مصر المذهب الفاطمى، و أحل محله المذهب السنى، و عنى بنشر العلم و تشجيع العلماء، و وقف فى وجه الصليبيين وقفات خالدات فى تاريخ الشرق الاسلامى .. و كان عادلا- محببا من قلوب الناس، و كانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق و معها اليمن و الحجاز ، و نشر العدل فى الرعية و حكم بالقسط بين البرية و بنى المدارس و الخوانق و أجرى الأرزاق على العلماء و الصلحاء، مع الدين و الورع و الزهد و العلم، و هو الذى ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم و أصبحت عاصمة البلاد فى عهده، و يذكر السيوطى أنه رحل بولديه الأفضل و العزيز لسماع الحديث من السلفى . و توفى عام ۸۵۹ ه عن سبعة و خمسين عاما.

مات السلطان فخلفه على عرش مصر ابنه عماد الدين عثمان فسار

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۲

سیرة حسنة و مات سنة ۵۹۵ ه و دفن فی قبة الامام الشافعی، فأقیم ولده المنصور مکانه، و لکن عم أبیه الملک العادل نزعه عام ۹۹۶ ه و تولی مکانه.

و الملک العادل أبو بکر بن أیوب هو أخو السلطان صلاح الدین، و کان شدید الحب للعلماء، و أبلی بلاء حسنا فی مقاومة الغزو الصلیبی للبلاد و مات عام ۶۱۶ ه.

و خلفه ابنه الملک الکامل محمد، (۶۱۶ ه- ۶۳۵ ه) و قد حکم مصر حوالی أربعین عاما، کان فی العشرین عاما الأولی نائبا عن أبیه، و کان فی العشرین عاما الأخیرة یحکم بنفسه بعد موت أبیه، و کان الکامل معظما للسنة النبویة و أهلها راغبا فی نشرها و التمسک بها، مؤثرا الاجتماع مع العلماء، و الکلام معهم حضرا و سفرا ، و قد أنشأ دار الحدیث بالقاهرة، و عمر القبة علی ضریح الشافعی و کان معظما للسنة و أهلها ، و توفی یوم الأربعاء حادی عشر من رجب عام ۶۳۵ ه، و أقیم بعده ابنه الملک العادل أبو بکر، و لکن الملک الصالح أیوب نزع الملک منه و تولی حکم مصر عام ۶۳۷ ه.

کان الملک الصالح مهیبا جدا، دبر المملکة علی أحسن وجه، و بنی المدارس الأربعة بین القصرین، و عمر قلعة بالروضة، و هو الذی أکثر من شراء الترک و عتقهم و تأمیرهم، و لم یکن ذلک قبله فقام الشیخ عر الدین بن عبد السلام القومة الکبری فی بیع أولئک الأمراء و صرف ثمنهم فی مصالح المسلمین ، و مات فی لیلة النصف من شعبان عام ۶۴۷ ه، و هو مستعد لقتال الصلیبیین فی المنصورة، فأخفت زوجته

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۸۳

شجرة الدر موته، حتی حضر ابنه الملک المعظم توران شاه فتولی الملک فی ذی القعدة عام ۶۴۷ ه، و قاتل الإفرنج و کسرهم، و کان فی عسکر المسلمین الشیخ عز الدین بن عبد السلام، و أسر الملک لویس السادس ملک فرنسا، و حبس فی دار ابن لقمان بالمنصورة ثم نفرت قلوب الجیش من توارن شاه فقتلوه فی ۱۷ محرم عام ۶۴۸ ه، و ولوا شجرة الدر مکانه و کان یخطب لها علی المنابر بعد الدعاء للخلیفة العباسی، و لم یل مصر امرأة فی الإسلام قبلها، و لما ولیت تکلم الشیخ عز الدین بن عبد السلام فی بعض تصانیفه علی ما إذا ابتلی المسلمون بولایة امرأة، و أرسل الخلیفة العباسی المستعصم یعاتب أهل مصر فی ذلک، و أقامت شجرة الدر فی المملکة ثلاثة أشهر ثم عزلت نفسها، و اتفق القواد علی أن یملکوا الملک الأشرف موسی بن صلاح الدین یوسف بن المسعود بن الملک الکامل فملکوه فی جمادی الأولی عام ۶۴۸ ه، و جعلوا عز الدین أیبک الترکمانی مملوک الملک الصالح قیما علیه، و عظم شأن الممالیک الأتراک من یومئذ، و فی عام ۶۵۲ ه خلع عز الدین الملک الأشرف و استقل بالملک، و هو أول من ملک مصر من الممالیک الأتراک، و تزوج شجرة الدر، ثم خطب علیها ابنة صاحب الموصل، فقتلته شجرة الدر عام ۶۵۵، و خلفه ابنه المنصور، حتی قضی علی ملک الدولة الأیوبیة الأمیر یوسف الدین قطز، الذی لقب نفسه بالملک المظفر، و ذلک عام ۶۵۷ ه.

و من الجدیر بالذکر أن ملوک الدولة الأیوبیة کانوا یتلقون مراسیم ولایتهم من خلفاء بغداد العباسیین، مع استقلالهم السیاسی و الإداری علی خلافة بغداد.

الأزهر فی عهد الدولة الأیوبیة:

بزوال الدولة الفاطمیة من مصر و قیام الدولة الأیوبیة مقامها، انمحت معالم الفقه الإسماعیلی الشیعی، فقد غالی الأیوبیون فی القضاء علی کل

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۸۴

أثر للشیعة، و أفتوا بإبطال إقامة الجمعة فی الأزهر و لبثت إقامة الجمعة معطلة. فیه نحو مائة عام، و ذلک من عام ۵۶۷- ۶۶۵ ه.

و فی عهد الدولة الأیوبیة أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر فی رسالته العلمیة، فبنی صلاح الدین مدرسة للشافعیة بجوار مسجد

عمرو، و مدرسة أخرى للمالكية و عرفت باسم «دار الغزل» ثم عرفت بالمدرسة القمحية، ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم «المدرسة السيوفية»، كما بنى مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعى خاصة، و هو المذهب الذى كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبى نفسه، و كانت مدرسة منها بجوار الإمام الشافعى و الأخرى بجوار المشهد الحسينى ..

و يحصى المقريزى المدارس التى بنيت فى القاهرة وحدها بثمانى عشرة مدرسة .

و قد بنيت فى القاهرة و الفسطاط معا نحو خمسة و عشرين مدرسة:

منها المدرسة الكاملية و تسمى دار الحديث، و قد أنشأها الملك الكامل عام ۶۲۱ ه و كملت عمارتها سنة ۶۲۲ ه، و تولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية ، و من مشايخها أيضا القسطلانى الشافعى و ابن دقيق العيد.

و من هذه المدارس المدرسة الصالحية و قد بناها الملك الصالح عام ۶۳۹ ه و هى أربع مدارس للمذاهب الأربعة، و كانت من أجل مدارس القاهرة .

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۵

و منها المدرسة الفاضلية بناها القاضى الفاضل عام ۵۸۰ ه و كان فى مكتبتها مائة ألف كتاب مجلد .

و كانت كل مدرسة من هذه المدارس تتخصص فى دراسة بعينها، و كان الغرض من إنشاء هذه المدارس هو منافسة الأزهر و صرف الطلاب عنه، و قد كان لقيام هذه المدارس و كثرتها خلال القرنين السابع و الثامن، أى حتى بعد عصر الأيوبيين أثر كبير فى سير الدراسة فى الأزهر، إذ نافسته هذه المدارس منافسة شديدة و جذبت إليها أعلام الأساتذة، و قضى الأزهر فى هذه المدة عصرا من الركود الطويل.

و قد كان الأيوبيون من الغلاة فى المذهب الشافعى، و كانوا من أتباع الأشعرى، و كان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكرا مستقلا يناهض معسكر الأشاعرة، و كان من نتائج تصادم الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعددة أن اشتدت روح التعصب و المغالاة، فكان كل فريق يدفع صاحبه بما يملك من أسلحة الهجوم، فكان أهل السنة يطعنون الشيعة بأنهم كفار زنادقة و فساق ملاحدة، و قد أصدر بلاط بغداد فى سنة ۴۰۲ ه فى عهد الخليفة القادر باللّه فتوى رسمية موقعا عليها من كبار الفقهاء و القضاة بهذا المعنى، طعنا فى الفاطميين خلفاء مصر.

و من ناحية أخرى لم يتوان الأشاعرة عن استعمال سلاح التكفير و التفسيق فى شتى المناسبات، حتى بلغ الأمر فصل الحنابلة كفرقة تلز فى قرن مع النصارى و اليهود و الباطنية. و من طريف ما يروى أن منشىء المدرسة الرواحية فى دمشق نص فى حجة وقفيته على هذه المدرسة نصا يمنع دخول اليهود و المسيحيين و الحنابلة لهذه المدرسة.

و من هنا ورث الأزهر التعصب المذهبى الشديد إلى حد الإفتاء بالكفر و عدم صحة الاقتداء بالمخالف فى المذهب، فقد أفتى ابن حجر الهيثمى بأن ابن تيمية العالم الفقيه كافر لا تصح الصلاة وراءه، و أمر

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۶

القاضى عياض بإحراق كتب الغزالى لما يوجد بها من أشياء لا يرتضيها أهل السنة. و نقل الكمال بن الهمام عن أحد علماء الحنفية أنه لا تجوز المناكحة بين أهل السنة و الاعتزال.

و ظل هذا التعصب يشتد و يشغل أمره العلماء، فاتهم كل مجتهد يخرج على التقاليد العلمية فى عصره بالزندقة و الضلال. و الضلال يومذاك كانت كلمة ترادف التفكير الحر الذى لا يرضى بالتقليد، و لا يرضى أن يكون فى آرائه من العبيد. و كان الضلال عنوان نضوج العقل، أو كما يقول الغزالى: و أستحقر من لا يحسد و لا يقذف، و أستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف.

و لما كثرت المدارس فى عهد الأيوبيين و أرادوا جذب أساتذة الأزهر إليها، أغدقوا لهم فى العطاء، و أجزلوا فى المرتبات، و بعد أن كان العلماء يعتمدون فى العصور الأولى على أنفسهم فى سد حاجات عيشهم عن طريق السعى وراء الرزق أو استجلاب الربح من

صنعة أو حرفة، فكان منهم فى العصر الأول البزاز و الزجاج و الصائغ و الصباغ و الفراء، إلى ما لهم من شهرة فى العلم، أصبحوا فى هذا العهد و ما تلاه من عهود المماليك يعتمدون على الدولة و ما تعطيهم من إعانات، و ما تدره عليهم من غلات أوقاف، أو نظارات فى حياتهم، مما مكن للدولة من ضمان بقائهم فى صفها، و لم يدع للعلماء حرية كاملة فى إبداء ما يرون من آراء على الوجه الذى يرضى اللّه و الضمير و الحق و العدل. بل كثيرا ما كان هذا النوع سببا فى تحاسد العلماء و سعى بعضهم ببعض عند الأمراء، لتوجبه وظيفة أو إعطاء وقف.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۷

أشهر العلماء فى عصر الدولة الأيوبيّة هل للأزهر و أثر الأزهر فيهم؟

نبغ فى العصر الأيوبى كثير من العلماء و الأدباء و الشعراء، منهم:

الحسن الفارسى الفقيه الحنفى العالم باللغة و الأدب و الطب و الهيئة المتوفى عام ۵۹۸ ه . و منهم: ابن الحاجب النحوى (۵۶۶- ۶۴۶ ه) المشهور ، و الشاطبى (۵۳۸- ۵۹۰ ه) ، و ابن الفارض (۵۷۶- ۶۳۲ ه) الصوفى الزاهد الشاعر المعروف ، و عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (۵۷۷- ۶۶۰ ه) و اشتهر فيه من الصوفية سيدى أحمد البدوى (۵۹۶- ۶۷۵ ه) ، و عبد الرحيم القنائى المتوفى عام ۵۹۲ ه ، و سواهم.

و من العلماء أيضا الحافظ المنذرى شيخ الإسلام (۵۸۱- ۶۶۰ ه)، و السخاوى المصرى (۵۵۸- ۶۴۳ ه) صاحب التفسير المشهور و شرح الشاطبية، و ابن سرايا (۵۷۰- ۶۵۱ ه) المفسر العالم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۸

بالقراءات، و ابن المنير (۶۲۰- ۶۸۳ ه) و كان إماما فى النحو و الأدب و الأصول و التفسير ..

و منهم ابن برى المتوفى عام ۵۸۲ ه، و ابن معطى المتوفى عام ۶۲۸ ه، و كانا إمامين فى العربية، و ابن مالك الأندلسى المتوفى عام ۶۷۲ ه و قد أقام بمصر حينا كما أقام بدمشق و حلب، و كذلك ابن الصلاح و توفى عام ۶۴۳ ه.

و من الأدباء ابن شيث من أدباء القرن السادس، و ابن أبى الأصبع المتوفى عام ۶۵۴ ه، و ابن الساعاتى المتوفى عام ۶۰۴ ه، و أبو الحسين الجزار الشاعر، و أبو شامة المتوفى عام ۶۹۵ ه، و التلعفرى (۵۹۳- ۶۷۵ ه)، و ابن واصل المتوفى عام ۶۹۷ ه، و القاضى الفاضل المتوفى عام ۵۹۶ ه، و العماد الأصبهانى المتوفى عام ۵۹۷ ه.

و من الحكماء الوزير القفطى (۵۶۸- ۶۴۶ ه).

و من المؤرخين ابن شداد (۵۳۹- ۶۱۵ ه)، و ابن عبد الظاهر (۶۲۰- ۶۹۲ ه).

و لا شك أنه كان لكثير من هؤلاء العلماء تلمذة على أساتذة الأزهر و حلقاته العلمية فى العصر الفاطمى، فإذا كان الأزهر قد أوقف نشاطه العلمى فى هذا العصر فأثره الروحى كان باقيا مستمرا.

و قد اشتهر فى هذا العصر الكثير من الشعراء، منهم: البهاء زهير (۵۸۱- ۶۵۶ ه)، و ابن مطروح (۵۹۲- ۶۴۹ ه)، و ابن النبيه المتوفى عام ۶۱۹ ه، و ابن الساعاتى المتوفى عام ۶۰۴ ه، و ابن سناء الملك المتوفى عام ۶۰۸ ه. و ابن التعاويذى (۵۱۹- ۵۸۴ ه)، و سراج الدين الوارق المتوفى عام ۶۵۵ ه. و لا شك أن نشأتهم الأدبية كانت أثرا لثقافة الأزهر اللغوية و الأدبية التى ظلت متوارثة فى عهد الأيوبيين.

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر فى تلك الحقبة لم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۸۹

يبطل صفته الجامعية، فقد لبث محتفظا بصفته كمعهد للدرس و القراءة.

و مع أنه لم يكن يحظى فى ذلك العصر بكثير من الرعاية الرسمية، فإنه لبث مع ذلك محتفظا بكثير من هيبته العلمية القديمة، فنراه

مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادى الذى وفد على مصر فى سنة ۵۸۹ ه أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين، و تولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز فى سنة ۵۹۵ ه .

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۹۱

الفصل السادس الأزهر فى ظلاک دولتى المماليک ۶۵۷- ۹۲۳ ه

التاريخ السياسى لهذا العصر:

ينقسم هذا العصر إلى عهدين: ۱- عهد دولة المماليک البحرية و ينتهى عام ۷۸۴ ه- ۱۳۸۲ م.

۲- و عهد دولة المماليک الشراكسة- أو المماليک البرجية (۷۸۴- ۹۲۳ ه: ۱۳۸۲- ۱۵۱۷ م).

أما دولة المماليک البحرية فتبدأ شكلا من عام ۶۵۷ ه و إن كان بدؤها الحقيقى هو عام ۶۴۸ ه: ۱۲۵۰ م، حينما قتل توران شاه و دخلت مصر بعدها فى نفوذ مماليک هذه الدولة، الذى كان الصالح أيوب يكثر من شرائهم و ينزلهم فى قلعة الروضة التى شيدها بجزيرة الروضة، حتى سموا لذلک بالمماليک البحرية، و قد بقى الملک فى أيديهم إلى عام ۷۸۴ ه، و كان عدد ملوكهم أربعة و عشرين سلطانا.

أولهم السلطان: عز الدين أيبک التركمانى الذى ولى الحكم عام ۶۴۸ ه، و تزوج شجرة الدر، و قتل عام ۶۵۵ ه، فخلفه ابنه المنصور، الذى تولى الوصاية عليه «سيف الدين قطز»، ثم أعلن قطز توليه الملک و خلع المنصور عام ۶۵۷ ه- ۱۲۵۹ م و بذلک تبدأ دولة المماليک البحرية فى تاريخ مصر.

كان «قطز» هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة، تولى الملک عام ۶۵۷ ه،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۹۲

و لما سقطت بغداد عام ۶۵۶ ه- ۱۲۵۸ م فى أيدى التتار، و زحفوا نحو مصر، التقى بهم «قطز» فى «عين جالوت» بفلسطين ثم فى «بيسان» و هزمهم هزيمة ساحقة، و كان الفضل فى ذلک لقائده «الأمير ركن الدين بيبرس»، و فى عودتهم إلى مصر قتل «بيبرس» السلطان «قطز» و تولى مكانه حكم البلاد.

تقلد السلطان الملک الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى حكم مصر (۶۵۸- ۶۷۶ ه: ۱۲۶۰- ۱۲۷۷ م) و كان أشهر سلاطين المماليک البحرية، و قد نظم أمور الدولة و الجيش، و أنشأ الأساطيل، و عنى بتحصين الشام .. و لكى يعزز زعامته للإسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد، و بايعه بالخلافة و لقبه بالمستنصر، و استمد سلطة الملک منه نائبا عنه عام ۶۵۹ ه- ۱۲۶۱ م ، و كان أول من بايع الخليفة العباسى شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام ، و قد ذهب الخليفة لمحاربة التتار على رأس جيش مصرى فقتل قرب دمشق عام ۶۶۰ ه فتولى بعده لقب الخلافة العباسية فى مصر الخليفة العباسى أبو العباس أحمد و لقب الحاكم بأمر اللّه .

و كان للسلطان «الظاهر بيبرس» أعمال حربية، و إصلاحات داخلية، محمودة و فى أيامه طيف بالمحمل و بكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة عام ۶۷۵ ه، و هو أول من فعل ذلک بالديار المصرية.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۹۳

و بعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر و لم تطل مدتهما، و انتهى الأمر بتولى السلطان الملک المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (۶۷۸- ۶۸۹ ه: ۱۲۷۹- ۱۲۹۰ م)، فبقى الملک فى بيته أكثر من مائة سنة، و ساد فى عهده العدل و السكينة.

و خلفه ابنه الأشرف خليل و كان شجاعا مقداما مظفرا عادلا، فقتل بعد ثلاث سنوات، و مما يذكر أنه هو الذى قضى على إمارات

الصليبيين بالشام. الأزهر فی ألف عام ؛ ج۱ ؛ ص۹۳

خلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (۶۹۳- ۷۴۱ ه:

۱۲۹۳- ۱۳۴۱ م)، و قد هزم التتار قرب دمشق عام ۷۰۲ ه- ۱۳۰۳ ه هزيمة ساحقة اثناء محاولتهم التقدم لفتح مصر، و عنی الناصر بشؤون بلاده الداخلية و نشر العلوم و المعارف، و شيد المبانی الفخمة، و توفی الخليفة العباسی الحاكم بأمر اللّه فی عهده عام ۷۰۱ ه، و دفن بجوار السيدة نفيسة فی قبة بنيت له، و هو أول خليفة مات بمصر من بنی العباس، و ولی الخلافة بعده ابنه أبو الربيع سليمان و لقب المستكفی باللّه و خطب له علی المنابر فی مصر و الشام ، و لم يكن السلطان قد أمضی عهد والده له بالخلافة حتی سأل الشيخ تقی الدين بن دقيق العيد قاضی القضاة بمصر يومئذ: هل يصلح للخلافة أو لا؟ فقال الشيخ: نعم يصلح، فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضی عهد والده له و مات، فی شعبان سنة ۷۴۰ ه فی قوص و دفن بها، و تولی بعده الخلافة الواثق باللّه رغم معارضة قاضی القضاة عز الدين بن جماعة، و مات الناصر عام ۷۴۱ ه (۱۳۴۱ م)، و لم يترك خلفا يقدر علی القيام بعبء الملك بعده، و من أبنائه السلطان حسن الذی بنی المدرسة العظيمة التی لم يخلف السلطان أعظم منها بناء و لا أتقن صناعة، و هی المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار قلعة القاهرة، و انتهی الامر بانقراض هذه الدولة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۹۴

و استيلاء المماليك الشراكسة علی الملك.

و قد عزل الخليفة الواثق و بويع لأحمد بن المستكفی و لقب المستنصر ثم لقب بعد ذلك الحاكم بأمر اللّه- لقب جده- و ذلك بحضور ابن جماعة و كتب له ابن فضل اللّه صورة المبايعة و ذلك عام ۷۴۲ ه و مات الخليفة عام ۷۵۳ ه، و بويع بعده لأخيه المعتضد باللّه و ظل خليفة حتی مات عام ۷۶۳ ه، و ظل بنو العباس فی مصر يتوارثون الخلافة إلی أمد بعيد.

و أما دولة المماليك الشراكسة فقد حكمت مصر من عام ۷۸۴- ۹۲۳ ه، و معظمهم من الشراكسة، بعكس المماليك البحريين فكانوا من الترك .. و لم يكن الملك فی دولة المماليك الشراكسة و راثيا كما كان فی بيت قلاوون، و عدد ملوك هذه الدولة ثلاثة و عشرون، حكم تسعة منهم مدة ۱۲۵ سنة، و حكم فی التسع السنوات الأخری أربعة عشر، و قد كان لملوك هذه الدولة ولع بالعلوم و الآداب و الفنون، و ان كانوا لم يحرصوا علی العدل فی حكمهم.

و أشهر ملوكهم و أولهم: «الملك الظاهر سيف الدين برقوق» و قد مات عام ۸۰۱ ه- ۱۳۹۹ م، و خلف مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق.

و خلفه ابنه فرج الذی حارب تيمورلنك، و عقد معه صلحا.

و من ملوك هذه الدولة «المؤيد شيخ» بانی الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار «باب زويلة».

و منهم: الأشرف برسباى ۸۲۵- ۸۴۱ ه: ۱۴۲۲- ۱۴۳۸ م، و قايتباى ۸۷۳- ۹۰۲ ه: ۱۴۶۸- ۱۴۹۶ م، و الغورى ۹۰۶- ۹۲۲ ه:

۱۵۰۱- ۱۵۱۶ م، و قد انتهی أمره بأن قتله السلطان سليم العثمانی فاتح مصر عام ۹۲۳ ه، و ضم مصر إلی الدولة العثمانية.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۹۵

الأزهر فی هذا العصر

۱- فی عهد السلطان بيبرس و السلاطين بعده:

فی سنة ۶۶۵ جدده الأمير عز الدين ايدمر الحلی بسبب أنه كان مجاورا له بالسكنی، و كانت داره مكان الأقبغاوية المجعولة مكتبة الأزهر الآن، فراعی حرمة الجوار و انتزع له أشياء كانت مغصوبة و أحاط أموره حتی جمع له شيئا صالحا مع ما تبرع به له من المال الجزيل، و أطلق له من السلطان جملة من المال و شرع فی عمارته، فعمر الواهی من أركانه و جدرانه و أصلح سقوفه و بلطه و فرشه و

کساه، حتی عاد حرما بعد أن کان بالیا، و استجد به مقصورة حسنة و ترک آثارا صالحة .. و کذا عمل فیه الأمیر بیلبک الخازندار مقصورة کبیرة رتب فیها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه علی مذهب الشافعی و محدثا یسمع الحدیث النبوی، و وقف علی ذلک الأوقاف الدرارة و رتب به سبعة لقراءة القرآن و مدرسا، و أقیمت فیه الجمعة یومئذ، و حضر فیه الأمراء و الکبراء و العلماء، و کان یوما مشهودا، و بعد الفراغ من الجمعة قام الأمیر عز الدین إلی داره و معه الأمراء فقدم لهم موائد الطعام، و کان قد أخذ فتاوی من العلماء بجواز الجمعة فیه.

و هذا أول افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة بعد انقطاعه منه فی عصر الدولة الأیوبیة.

و فی شهر الحجة سنة ۷۰۲ ه حدثت زلزلة شدیدة بدیار مصر فسقط الجامع الأزهر و الجامع الحاکمی و جامع عمرو، و غیرها، فتقاسم أمراء

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۹۶

الدولة عمارة الجوامع، فتولی الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر عمارة الجامع الحاکمی، و تولی الأمیر سیف الدین بکشمر الجوکندار عمارة جامع الصالح، و تولی الأمیر سلار عمارة الجامع الأزهر، فجددوا مبانیها و أعادوا ما تهدم منها .. و فی ۷۰۹ بنیت فیه مدرسة الطیبرسیة.

و الأمیر سلار کان من من ممالیک الصالح علاء الدین بن المنصور قلاوون، و اتصل بخدمة الأشرف و توفی عام ۷۱۰ ه.

و فی سنة ۷۲۵ ه جددت عمارة الجامع الأزهر علی ید القاضی نجم الدین محمد بن حسین بن علی الاسعردی محتسب القاهرة ... ثم فی سنة ۷۴۰ أنشئت الأقبغاویة التی هی محل المکتبة الأزهریة الآن، و فی سنة ۷۴۴ تممت الجوهریة.

و فی سنة ۷۶۱ جددت عمارة الأزهر عندما سکن الأمیر الطواشی سعد الدین بشیر الجمدار الناصری فی دار الأمیر فخر الدین ابان الزاهری الصالحی النجمی بخط الأبارین بجوار الجامع الأزهر بعدما هدمها و عمر داره التی تعرف فی ذاک الوقت بدار بشیر الجمدار، و أحب لقربه من الجامع الأزهر أن یؤثر فیه أثرا صالحا، فاستأذن السلطان الملک الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فی عمارته و کان خصیصا به، فأذن له فی ذلک و کان قد استجد بالجامع عدة مقاصیر و وضعت فیه صنادیق و خزائن حتی ضیقته، فأخرج الخزائن و الصنادیق و نزع تلک المقاصیر و تتبع جدرانه و سقوفه بالإصلاح، حتی عادت کأنها جدیدة، و بیض الجامع کله و بلطه، و منع الناس من المرور فیه و رتب فیه مصحفا و جعل له قارئا، و أنشأ علی باب الجامع القبلی حانوتا لسبیل الماء العذب فی کل یوم و عمل فوقه مدرسة لإقراء أیتام المسلمین کتاب اللّه العزیز و رتب للفقراء المجاورین طعاما یطبخ کل یوم. و أنزل إلیه قدورا من نحاس جعلها فیه و رتب فیه دروسا للفقهاء من الحنفیة یجلس مدرسهم لإلقاء الفقه فی المحراب و وقف علی ذلک أوقافا جلیلة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۹۷

و فی سنة ۷۸۴ ه ولی الأمیر بهادر المقدم علی الممالیک السلطانیة نظر الجامع الأزهر، و نجز مرسوم السلطان برقوق بأن من مات من مجاوری الجامع الأزهر من غیر وارث شرعی و ترک شیئا فإنه یأخذه المجاورون بالجامع، و نقش بذلک علی حجر عند الباب الکبیر و هو غیر موجود الآن.

و کان عدد طلبة الأزهر فی أوائل القرن الثامن ۵۷۰ طالبا کما یقول المقریزی. و فی سنة ۸۰۰ هدمت منارة الأزهر و کانت قصیرة و عمرت بأطول منها و بلغت النفقة علیها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم، و کملت فی ربیع الآخر من السنة المذکورة فعلقت القنادیل فیها لیلة الجمعة من هذا الشهر و أوقدت حتی اشتعل الضوء من أعلاها إلی أسفلها، و اجتمع القراء و الوعاظ به و تلوا ختمة شریفة و دعوا للسلطان، و لم تزل هذه المنارة إلی شوال سنة ۸۱۸ فهدمت لمیل ظهر فیها و عمل بدلها منارة من حجر علی باب الجامع البحری بعدما هدم الباب و أعید بناؤه بالحجر و رکبت المنارة فوق عقده، و أخذ الحجر لها من مدرسة الملک الأشرف خلیل التی کانت تجاه قلعة الجبل ثم هدمها الملک الناصر فرج بن برقوق، و قام بعمارة ذلک الأمیر تاج الدین الشوبکی و الی القاهرة و

محتسبها، و تمت سنة ۸۱۸ فلم تقم غير قليل و مالت حتى كادت تسقط، فهدمت سنة ۸۲۷، و أعيدت و فى هذه السنة ابتدىء بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء و وجد أيضا جثث أموات. و تم بناؤه فى ربيع الأول سنة ۷۲۷ ه و عمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسيل فيه الماء و غرس بصحن الجامع أربع شجرات و لم تفلح و ماتت، و لم يكن للجامع الأزهر ميضأة عندما بنى، ثم عملت ميضأته.

و فى سنة ۸۱۸ ه تولى نظارة الجامع الأزهر الأمير سودوب حاجب الحجاب، فأهان طلبة الأزهر و أخرجهم منه و كان عددهم يومئذ ۷۵۰ طالبا من شتى البلاد الإسلامية و أنحاء مصر، و كان الأزهر يومئذ عامرا بتلاوة

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۹۸

القرآن و دراسته و أنواع العلوم و الفقه و الحديث و التفسير و النحو و مجالس الوعظ.

و كان الإنسان إذا دخله يجد من الانس باللّه و الارتياح ما لا يجده فى غيره و صار يقصده أرباب الأموال للتبرك و يصلون أهله بأنواع الذهب و الفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة اللّه تعالى، فرأى سودوب المذكور ان يأمر بإخراجهم و منعهم من المبيت به فأخرجهم و ما كان لهم فيه من صناديق و خزائن و كراسى المصاحف، و قد حل بفقراء المجاورين بلاء شديد بعدما هجم عليهم مرة بعد العشاء الأخيرة، هو و من كان معه من الغلمان و الأعوان و غوغاء العامة و من يريد النهب، فضربهم و نهبت فرشهم و عمائمهم و سلبت نقودهم فتشتت شملهم و ساروا فى القرى و تبذلوا بعد الصيانة و فقد الجامع كثيرا مما كان فيه، فعاجل اللّه الأمير سودوب بالانتقام و قبض عليه السلطان و سجنه.

و فى سنة ۹۰۰ أجرى مصطفى بن محمود بن رستم الرومى عمارة الجامع الأزهر و صرف عليه من ماله نحو خمسة عشر ألف دينار و جاء فى غاية الحسن.

و أنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ميضأة بالجامع الأزهر و فسقية معتبرة من داخلها، و قد أبدلت بحنفيات سنة ۱۳۱۷، و أنشأ أيضا سبيلا و مكتبا على باب الجامع و قد أزيل المكتب أيضا، و هو الذى أنشأ رواق الشوام و رواق المغاربة، و أنشأ المنارة العظيمة على يمين الداخل فيه.

و قد رتب الملك قانصوه الأشرف خال الناصر الخزيرة بالجامع الأزهر فى شهر رمضان، و الخزيرة عصيدة بلحم .. ثم لما جاء الملك قنصوه الغورى ضاعف ذلك فى أيامه فرتب فى شهر رمضان فى مطبخ الجامع الأزهر كل سنة ستمائة و سبعين دينارا و مائة قنطار من العسل و خمسمائة أردب قمح، و بنى المنارة العظيمة ذات الرأسين به سنة ۹۰۲ ه.

و للعلماء فى سجل التاريخ الإسلامى ذكر، و للشيخ عز الدين بن عبد السلام خاصة نصيب من هذا المجد التليد.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۹۹

قدم الشيخ عز الدين إلى مصر سنة ۶۳۹ ه من دمشق، فتلقاه صاحب مصر و سلطانها الصالح نجم الدين أيوب بالإكرام و الإجلال، و أحاطه علماؤها و فقهاؤها بالتقدير و الاحترام، حتى امتنع الشيخ زكى الدين المنذرى عن الإفتاء تأدبا معه، و قال: كنا نفتى قبل حضوره، فمنصب الفتيا متعين فيه .. و بالغ السلطان نجم الدين فى إكرام الشيخ فولاه قضاء مصر و الوجه القبلى، و قبل الشيخ المنصب على إن يؤدى فيه حق اللّه كما يجب، و أن تكون كلمة الشرع هى الفاصلة بين الحاكمين و المحكومين، فلا دالة لصاحب سلطان، و لا تهاون مع ذى جاه، و لكن الناس سواسية أمام الحق، و فى شرط الإسلام، و على هذا تقلد الشيخ المنصب و تحمل العمل فيه.

و كان أول موقف للشيخ تجاه أصحاب النفوذ و السلطان بين الناس، و كان موقفا عجبا، ذلك أن السلطان قد أكثر من شراء الترك و تأميرهم على البلاد ليكونوا أعوانه و عيونه، و قد استشرى أمر هؤلاء الأتراك و صاروا أصحاب الجاه و النفوذ على الرعية لا يبالون فى ذلك بطشا و لا ظلما يقع على الناس، و ما كان فى الناس من يستطيع أن يتصدى لهم أو ينكر عليهم، و نظر الشيخ ابن عبد السلام فرأى فى ذلك فسادا لا يستقيم به حق الدين و لا واجب الحكم، و لما بحث الشيخ الأمر فى حقيقة هؤلاء الأمراء الأتراك رأى أنهم

بحكم الشرع أرقاء لسادتهم من أبناء مصر، و ذلك لأن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة و ما زال حكم الرق مستصحبا عليهم، و كان أن جلس الشيخ و كتب فتواه بأنه لم يثبت عنده أن هؤلاء الأمراء الأتراك أحرار و أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين و أنه لا بد من بيعهم و صرف ثمنهم فى وجوه الخير و مصالح الأمة. و كان من جملة هؤلاء الأمراء نائب السلطنة، و كلهم أصحاب حكم و سلطان.

و بلغت الفتوى أولئك الأمراء، فامتلأوا غضبا و غيظا، و أدهشتهم تلك الجرأة من ذلك الشيخ الفقيه عليهم، و أرسلوا إليه أن يكف عن هذا

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۰

الذى لا يليق معهم. و هم أصحاب الحكم و السلطان، و لكن الشيخ صمم على فتواه، و زاد على ذلك فصار لا يصحح لهم بيعا و لا شراء و لا- نكاحا و لا- أى تصريف فى أمور الناس و شؤون الحكم حتى تعطلت مصالحهم، و توقفت أعمالهم، و هم فى كل هذا يتعاظمون و يعجبون من جرأة ذلك الشيخ، و ما فى مقدور أحد أن ينكر عليهم أى شىء.

و رفع الأمراء الأمر إلى السلطان، و شكو إليه من هذه الجرأة التى هوت بمكانتهم بين الناس. و أرسل السلطان إلى الشيخ ابن عبد السلام يصرفه عن غايته، و بين له ما فى هذه الفتوى من الإضرار بأولئك الأمراء الذين لهم شأنهم فى شؤون الحكم، و كان ابن عبد السلام يقدر تماما أنه.

وفد على مصر غريبا لا أهل له، فقيرا لا مال عنده و ليس له من قوام.

الحياة إلا هذا المنصب الذى يجلس فيه، و زمام المناصب كلها بيد السلطان، و لكن حب الدنيا لم يكن أفسد نفوس رجال الدين فى ذلك الزمن، و ما لرجل مثل ابن عبد السلام ترك وطنه راضيا، و احتمل السجن و شظف العيش فى سبيل الرأى و الحق، أن يثنيه عن الحق مطلب من مطلب العيش أو رغبة فى منصب مهما يكن جاهه، فأرسل الى السلطان بأنه لا بد منفذ لفتواه لانها كلمة الشرع و حق الإسلام، و أنه سينادى على أولئك الأمراء بالبيع و يقبض ثمنهم، و إلا فإنه سيعزل نفسه من منصب القضاء و يترك فتواه قائمة فى أقطار الإسلام يعول عليها المسلمون فى تصريف أمورهم.

و انكمش السلطان بجبروته أمام الشيخ فى إبائه و جرأته، و تلمس نائب السلطان بابا آخر لصرف الشيخ عن إصراره «فأرسل إليه بالملاطفة و الملاينة و الرجاء أن يراجع نفسه فى تلك الفتوى الجريئة و أن يتصرف بما يتفق و مكانة الأمراء بين الناس، و لكن الشيخ الذى كان لا يرهبه فى الحق شدة، كان من الأولى ألا تجدى معه فى الحق ملاطفة أو ملاينة.

و عظم الخطب على نائب السلطنة، و ثار به الغضب ثورته، و قال:

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۱

كيف ينادى علينا هذا الشيخ الفقيه بالبيع و نحن ملوك الأرض، و اللّه لأضربنه بسيفى هذا «فما كان حكم الناس من شأن فقيه، و لا كانت أقدار الناس على ما يفتى به، ثم ركب فى جماعته ليثأر لنفسه و لجماعته بالسيف، و ليضع حدا لتطاوله عليهم و هم أمراء مصر و ملوك الأرض!

و وقف نائب السلطنة على باب الشيخ ممتطيا صهوة جواده، و السيف فى يده قائم كأنه متأهب لميدان حرب، و طرق الباب على الشيخ طرقات قوية عنيفة، فخرج ولد الشيخ يستطلع الأمر، فأذهله ما رأى من هيئة نائب السلطنة و جماعته و زاد من رعبه و فزعه أن سأله نائب السلطنة عن والده ليفتك به، و ليتركه بدادا بسيفه، و أسرع ولد الشيخ الى داخل الدار فزعا جزعا ينبىء والده بالشر المتربص بالباب و يسأله أن يختفى، فلا يظهر نفسه حتى يدبر للهرب أو يؤذن اللّه بالفرج.

و ابتسم الشيخ لما سمع، و هدّأ من روع ولده قائلا: لا عليك يا بنى، فأبوك أقل من أن يقتل فى سبيل اللّه، ثم نهض إلى باب الدار، شامخا كالطود، جريئا كالأسد ثابتا يزيد من ثباته و هيبته إيمان قوى باللّه يتضاءل كل ما فى هذه الدنيا بجانبه، و وقف الشيخ الأعزل

إلا من قوة الحق و صدق الأيمان أمام نائب السلطنة و هو فی سلاحه و عتاده و جنده، و ما زاد الشيخ علی أن أرسلها نظرة حادة نافذة، فإذا بنائب السلطنة يذعن أمام هيبة الشيخ و يتضاءل فی سلاحه و جنده، و إذا به يسرع فيغمد سيفه، و يترجل من فوق جواده، و يهوی علی يد الشيخ يقبلها، و أطرافه يمسحها، و يسأله أن يغفر له ما فرط منه، و أن يتجاوز عما ارتكب فی حقه، و يطلب منه الدعاء و الرضاء «قائلا: ايش يا سيدی تريد أن تعمل».

قال الشيخ: أريد أن أنادی عليكم و أبيعكم. قال: و ماذا تصنع بثمننا؟ قال: أصرفه فی مصالح المسلمين، قال: و من يقبض الثمن قال: أنا أقبضه و أتولی صرفه. قال: لك ما تشاء فی أمرنا.

و أصبح الصباح فی اليوم الثانی، و عقد مجلس كبير من رجالات

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۲

الدولة يحضره السلطان، و حشد الأمراء الأتراك بكامل عدهم فما تأخر نفر منهم، و أخذ قاضی القضاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينادی عليهم بالبيع واحدا واحدا، و يغالی فی ثمنهم لأنهم أمراء .. و لأنهم ملوك الأرض .. و غالی أكثر ما غالی فی ثمن نائب السلطنة، و دفع السلطان إلی الشيخ كل ما اشترط من مال، فوزعه علی وجوه الخير و مصالح المسلمين، ثم أعتق الأمراء الأرقاء، و منحهم حق الحرية فی التصرف و البيع و الشراء .

اعتنی الظاهر بيبرس - كما قدمنا- بأمر الأزهر فأعاد إليه خطبة الجمعة فی الثامن عشر من ربيع الأول سنة ۶۶۵ ه و شجع العلم فيه و حذا حذوه كثير من الأمراء فزاد الأمير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه علی مذهب الشافعی. و رتب فيها محدثا، و سبعة لقراءة القرآن، و وقف علی ذلك الأوقاف الدارة. و فی سنة ۷۶۱ ه أحب الأمير الطواشی سعد الدين بشير الجامدار الناصری عندما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثرا صالحا فأنشأ فيه مما أسداه إليه درسا لفقه الحنفية يلقی فی المحراب الكبير، و وقف علی هذا الدرس أوقافا كثيرة.

علی هذا النحو سار الأزهر فی عناية المماليك ، غير أنا نلاحظ أن الجامع الحاكمی أخذ ينافس الأزهر بعد أن أصلح من زلزال ۷۰۲ ه، فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمی دروسا أربعة لأقراء الفقه علی مذهب الأئمة الأربعة، و درسا لاقراء الحديث النبوی، و جعل لكل درس مدرسا و عدة كثيرة من الطلبة، فرتب فی تدريس الشافعية قاضی القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعی، و فی تدريس الحنفية قاضی القضاة شمس الدين أحمد السروجی الحنفی،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۳

و فی تدريس المالكية قاضی القضاة زين الدين علی بن مخلوف المالكی، و فی تدريس الحنابلة قاضی القضاة شرف الدين الجوانی، و فی درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثی، و فی درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان، و فی درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفی، و فی التصدير لافادة العلوم علاء الدين علی بن إسماعيل القونوی، و فی مشيخة الميعاد و المسجد عيسی بن الخشاب، و أنشئت به مكتبة جليلة و جعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، و عدة قراء يتناولون قراءته، و معلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جل. و أوقفت علی ذلك الأوقاف الدارة بناحية الجيزة، و الصعيد، و الإسكندرية .

و أصدر برقوق قرارا «بأن من مات من مجاوری الأزهر من غير وارث شرعی و ترك موجودا فإنه يأخذه المجاورون بالجامع».

و كان هذا لتقوية الأزهر بعد أن طغت عليه المدارس و الجامع الحاكمی. و لم يكتف الظاهر برقوق بإصدار المرسوم بل أمر بنقشه علی حجر عند الباب الكبير البحری ليكون بمثابة إعلان دائم.

نعرف شيئا عن نظام الأزهر و العلوم التی كانت تدرس فيه و بخاصة أيام المماليك الذين أنقذوه من اضطهاد الأيوبيين السنيين؟ بما ذكره المقريزی. فلقد رسم صورة لا بأس بها نری فيها شيئا عن علومه و نظامه و عدد طلبته و ما كان يجری فيه قال:

فی سنة ۸۱۸ ه ولی نظر هذا الجامع مع الأمير سودوب القاضی حاجب الحجاب فجرت فی أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها و

ذلک أنه لم یزل فی هـذا الجامع منـذ بنی عدة من الفقراء یلازمون الإقامة فیه و بلغت عدتهم فی هذه الأیام ۷۵۰ رجلا ما بین عجم و زیالعة و مغاربة و من أهل ریف مصـر و لکل طائفة رواق یعرف بهم فلا یزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن و دراسته و تلقیه و الاشتغال بأنواع العلوم من الفقه و التفسیر و الحدیث

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۴

و النحو و مجالس الوعظ و حلق الـذکر، و صار أرباب الأموال یقصـدون هـذا الجامع بأنواع البر من الـذهب و الفضة إعانة للمجاورین فیه علی عبـادة اللّه تعالی و کل قلیل تحمل إلیهم أنواع الأطعمـة و الخبز و الحلویات لا سـیما فی المواسم. فأمر هـذا الناظر فی جمادی الأولی من هذه السنة بإخراج المجاورین من الجامع و منعهم من الإقامة فیه و إخراج ما کان لهم فیه من صنادیق و خزائن.

و من هـذا نری ان الأـزهر کان فی ذلک الوقت فوق کونه مدرسـة لطلب العلم تـدرس فیها العلوم المختلفـة و مسـجدا للعبادة و مکانا للوعظ، کان بجوار ذلک دارا للتصوف، و تروی دائرة المعارف الإسلامیة عن ابن إیاس ان ابن الفارض الصوفی کان مقیما بالأزهر. و یروی رشـید بن غالب صاحب شـرح دیوان ابن الفارض ان والـد عمر بن الفارض حین امتنع أن یقبل وظیفـة قاضـی القضاة و نزل عن حکم القاهرة و مصر بالنیابة عن الخلیفة اعتزل الناس و انقطع إلی اللّه تعالی بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر و لعل ابنه کان یقیم معه بعد أن کـان یعود من سـیاحته فی جبـل المقطم. و علی کل فقـد کانت المساجـد و المـدارس فی ذلک الوقت مفتوحـة للریاضـة الروحیة بجوار درس العلم، و کانت المدارس و المساجد تقبل طلاب التصوف کما کانت تقبل طلاب العلم، و تفتح صدرها لهؤلاء کما تفتح صدرها لأولئک. فمثلا البدر العینی صاحب عمدة القاریء شـرح صـحیح البخاری حینما حضـر إلی القاهرة مع شیخه العلامة السیرامی سنة ۷۸۸ ه جعله الظاهر برقوق فی عداد صوفیة البرقوقیة.

و نری الأمیر الکبیر سـیف الدین شیخو الناصری لما أنشأ مسجده جعل فیه عشرین صوفیا، و أقام الشیخ أکمل الدین محمد بن محمود الرومی الحنفی شیخا لهم ... ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الأکمل و الصوفیة إلیها و زاد عدتهم.

و یـذکر صاحب خلاصـة الأثر فی أعیان القرن الحادی عشـر: ان الشـیخ أحمـد بن عیسـی بن غلاب، المنعوت بشـهاب الـدین الکلبی المالکی، شیخ المحیا النبوی بالأزهر، أخذ التصوف عن الشیخ الشعرانی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۵

و جلس بالمحیا الشـریف بعد والده، و والده جلس بعد الشیخ البلقینی و هو جلس بعد الشیخ صالح، و هو جلس بعد الشیخ نور الدین الشوقی المدفون بزاویة الشیخ عبد الوهاب الشعرانی.

۲- و قد أسهم الأزهر بنشاط کبیر فی هذا العصر، فی شتی نواحی الحیاة و العلم و الثقافة.

و کان ابن الدمامینی (۷۶۳- ۸۲۷ ه)- الذی ولد بالإسـکندریة، وفاق فی النحو و النظم و النثر، و شارک فی الفقه و غیره من العلوم، و مهر و اشتهر ذکره- یتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو .

و قـد نبغ فی هذا العهد من العلماء: الدمامینی، و ابن عقیل المتوفی عام ۷۶۹ ه ، و ابن هشام المتوفی عام ۷۴۹ ه ، و ابن إیاس المؤرخ المتوفی عـام ۹۳۰ ه، و أبـو حیـان (۶۵۴- ۷۴۵ ه) ، و ابـن مکرم صـاحب لسـان العرب (۶۳۲- ۷۶۱ ه) ، و الرضـی النحوی المشـهور المتوفی عام ۶۸۴ ه ، و ابن دقیق العیـد (۶۲۵- ۷۰۲ ه) و تقی الدین السـبکی (۶۸۳- ۷۵۶ ه) ، و شـیخ الإسلام البلقینی ۷۲۴- ۸۰۵ ه و العینی ۷۶۲- ۸۵۵ ه، و الشمنی ۸۰۱- ۸۷۲ ه، و ابن الهمام المتوفی عام ۸۶۱ ه ، و السیوطی (۸۴۹- ۹۱۱ ه) ..

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۶

و کان من الصالحین عبد العال خلیفة أحمد البدوی المتوفی ۷۳۲ ه .

و لا شک أن کثیرا من هؤلاء و سواهم قد اتصلوا بالأزهر اتصالا علمیا، فجلسوا فی حلقاته متعلمین، و تصدروها معلمین.

و کـان بجوار الأـزهر کـذلک مـدارس مشـهورة منها المدرسـة الظاهریـة القدیمـة التی بناها بیبرس عام ۶۶۱ ه، و رتب بهـا لتـدریس

الشافعیة تقی الدین بن رزین، و لتدریس الحنفیة محیی الدین بن عبد الرحمن بن الکحال بن العدیم، و لتدریس الحدیث الحافظ شرف الدین الدمیاطی، و لتدریس القراءات کمال الدین القرشی.

و منها المدرسة المنصوریة التی بناها الملک المنصور قلاوون عام ۶۷۹ ه و رتب فیها دروسا للفقه علی المذاهب الأربعة و الحدیث و التفسیر و دورسا کذلک للطب.

و منها المدرسة الناصریة التی بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ۷۰۳ و عین بها المدرسین للمذاهب الأربعة.

و مدرسة السلطان حسن التی بناها السلطان حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون عام ۷۵۸ ه.

و المدرسة الظاهریة الجدیدة التی فرغ من بنائها عام ۷۸۸ ه و عین السلطان فیها مدرسین للفقه علی المذاهب الأربعة و للحدیث و القراءات، و کان الشیخ سراج الدین البلقینی مدرسا فیها للتفسیر.

و لکن هذه المدارس کلها کانت عالة علی الأزهر، تأخذ منه، و تستمد علماءها من خریجیه و أساتذته، و یوجهها الأزهر توجیها علمیا.

و من أشهر من نبغوا فی هذا العهد من العلماء و الأدباء و الشعراء:

الفیروزبادی صاحب القاموس المحیط المتوفی عام ۸۱۷ ه، و القلقشندی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۷

صاحب صبح الأعشی المتوفی عام ۸۲۱ ه، و النویری صاحب نهایة الأرب المتوفی عام ۷۳۲ ه، و ابن فضل اللّه العمری المتوفی عام ۷۴۸ ه صاحب ممالک الأبصار، و تقی الدین ابن حجة الحموی (۷۶۷- ۸۳۷ ه) صاحب خزانة الأدب، و صلاح الدین خلیل بن أیبک الصفدی (۶۹۶- ۸۲۴)، و صفی الدین الحلی عبد العزیز بن علی (۶۷۷- ۷۵۰ ه)، و الشاب الظریف (۶۲۱- ۶۸۸ ه) و جمال الدین محمد بن نباتة المصری (۶۸۶- ۷۶۸ ه)، و ابن الوردی (۶۸۹- ۷۴۹ ه)، و البوصیری (۶۰۸- ۶۹۵ ه)، و ابن دقماق المتوفی عام ۸۰۹ ه مؤرخ الدیار المصریة، و المقریزی (۷۶۶- ۸۴۵ ه) و محمد جمال الدین الوطواط المتوفی عام ۷۱۸ ه و الدمیری صاحب حیاة الحیوان المتوفی عام ۸۰۸ ه، و هم کلهم إوجلهم أثر من آثار الأزهر العلمیة.

و قد حضر ابن خلدون إلی مصر و اشترک فی الحیاة العلمیة فیها، وزار حلقات الأزهر العلمیة، و تصدر للتدریس فیه.

کما هاجر إلی مصر فی هذا العهد کثیر من العلماء الذین جددوا شباب النهضة العلمیة فی العالم الإسلامی.

و قد کان من العلماء من یعرف کثیرا من العلوم العقلیة و الطبیة و غیرها زیادة علی العلوم الدینیة و العربیة، و هؤلاء لا یحصون، نذکر منهم علی سبیل المثال: الشیخ أحمد عبد المنعم الدمنهوری المتوفی سنة ۱۱۹۲ هجریة، فقد جاء فی سند إجازته ما ملخصه: أنه تلقی فی الأزهر العلوم الآتیة، و له تآلیف فی کثیر منها، و هی: الحساب و المیقات، و الجبر و المقابلة، و المنحرفات و أسباب الأمراض و علاماتها، و علم الأسطرلاب، و الزیج و الهندسة، و الهیئة، و علم الأرتماطیقی، و علم المزاول، و علم الأعمال الرصیدیة، و علم المواالید الثلاثة و هی الحیوان و النبات و المعادن، و علم استنباط المیاه، و علاج البواسیر، و علم التشریح، و علاج لسع العقرب، و تاریخ العرب و العجم.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۸

و ممن تولی التدریس فیه الفخر البلبیسی الضریر أستاذ القراءات و إمام الأزهر، و تولی ابن حجر خطابة الأزهر حینا آخر.

علی أنه یوجد مع ذلک فی أنباء العصر ما یدل علی أن الأزهر کان خلال هذه الحقبة یحتفظ بمکانته الخاصة؛ یعاونه فی ذلک اتساع حلقاته و أروقته، و تنوع دراساته، و هیبته القدیمة، و ما یلاقیه الطلاب فیه من أسباب التیسیر فی الدراسة و أحیانا فی الإقامة. و قد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أی مذ عفت معاهد بغداد و قرطبة، کعبة الأساتذة و الطلاب من سائر انحاء العالم الاسلامی، و غدا أعظم مرکز للدراسات الإسلامیة العامة.

و منذ القرن الثامن الهجرى أخذ يتبوأ الأزهر فى مصر و فى العالم الإسلامى نوعا من الزعامة الفكرية و الثقافية. و فى أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة السلاطين برعاية خاصة، و كان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه و النفوذ، و يشغلون وظائف القضاء العليا، و يستأثرون بمراكز التوجيه و الإرشاد. و كان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا، و أحيانا فى مصاير العرش و السلطان.

و ربما كانت هذه الفترة فى الواقع هى عصر الأزهر الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز، و من حيث تبوؤه لمركز الزعامة و النفوذ.

و فى أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية فى مصر الإسلامية فى الاضمحلال و ذلك تبعا لاضمحلال الدولة المصرية و المجتمع المصرى. و كانت دولة السلاطين قد شاخت و أخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة، و تصدع بناء المجتمع المصرى و أخذ فى الانحلال و التفكك؛ و اضطربت أحوال المعاهد و المدارس المصرية و تضاءلت مواردها، و فقدت كثيرا مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين و الأمراء؛ و أصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول و الركود. و لم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة فانهارت الدولة المصرية، و فقدت مصر استقلالها التالد و سقطت صريعة الغزو العثمانى سنة ۹۲۲ ه (۱۵۱۷ م).

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۰۹

جلال الدين السيوطى

ترجم الشيخ لنفسه ترجمة و جيزة فى كتابه (حسن المحاضرة) قال عن والده: هو الشيخ كمال الدين أبو المناقب السيوطى، الذى توفى و سن ولده جلال الدين ستة أعوام. و قد تأثر الولد بسيرة أبيه ميتا أكثر مما كان يتأثر بها حيا.

اشتغل ببلده أسيوط و تولى القضاء قبل قدومه إلى القاهرة، و هذا يدلنا على أن مدرسة العلم فى هذه الحقبة لم تكن قاصرة على الأزهر و إنما كانت فى كثير من عواصم البلاد. كما هو الحال الآن، ثم ذكر لنا كيف كانت أحوال أبيه بعد قدومه إلى القاهرة. حيث درس على كبار الشيوخ علوم الفقه و الأصول و الكلام و النحو و الإعراب و المعانى و المنطق و الحديث، ثم يقول (و أتقن علوما جمة)، و برع فى كل فنونه. و أقر له كل من رآه فى صناعة الإنشاء و أذعن له فيه أهل عصره كافة. بل كان شيخنا قاضى القضاة شرف الدين المناوى فى أوقات الحوادث يسأله فى إنشاء خطبة تليق بذلك ليخطب بها فى القلعة .. ثم يقول عن والده من الناحية الخلقية:

و كان على جانب عظيم من الدين و التحرى فى الأحكام و عزة النفس و الصيانة، يغلب عليه حب الانفراد و عدم الاجتماع بالناس.

ثم عدد تآليفه فقال:

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۰

«و له من التصانيف حاشية على شرح الألفية لابن المصنف.

و حاشية على شرح العضد كتب منها يسيرا، و رسالة فى الإعراب و أجوبة على اعتراضات ابن المقرى على الحاوى و له كتاب فى التصريف، و آخر فى التوقيع».

هذه خلاصة وافية لما كتبه الشيخ جلال فى ترجمة والده، و قد أسلفت أنه تركه بالموت و هو فى سن السادسة. فكيف- و هذه هى الحال- كتب ترجمة أبيه المتوفى، و كيف تأثر بحياته؟

إنه لم يشاهد من حالات والده إلا حالة واحدة ساعده على مشاهدتها أنه كان يقوم بها فى منزله، أما غيرها فلم يشاهده فيها. هذه الحالة هى التى حدثنا عنها بقوله:

«... مواظبا على قراءة القرآن، يختم كل جمعة ختمة، و لم أعرف من أحواله شيئا بالمشاهدة إلا هذا».

و قد وجد عند والده كل آثاره العلمية و الأدبية فحببه ذلك فى الانقطاع لطلب العلم و الأدب.

بيئة جلال الدين العلمية هى بيئة الأزهر الشريف بكل خصائصها الحقبة التى انتسب فيها جلال الدين إلى الأزهر هى منتصف القرن

التاسع الهجری. و کان فی الأزهر فی ذلک الوقت قد قطع فی بعثه الجدید أشواطا فإنه بعد أن عطله عن الحیاة حسا و معنی- السلطان صلاح الدین الأیوبی، لیزیل بذلک کل أثر للفاطمیین. و استبدل به مدارس تدرس فیها المذاهب الأربعة- بعد هذا جاء عهد السلطان الظاهر بیبرس من ملوک الجراکسة، فقد ولی هذا السلطان ملک مصر عام ۶۵۸ هجریة و کان- أول ما عنی به من الشؤون- بعث الأزهر بعثا جدیدا بترمیمه بعد التهدمة، و بإعداده لیکون معهدا علمیا تدرس فیه العلوم الدینیة، کما تدرس فیه العلوم العقلیة مثل (المنطق- آداب البحث و المناظرة) أما علوم التاریخ و الجبر و المقابلة و الإنشاء و الأدب، فلم یکن لها نظام معین تدرس

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۱

به، فقد تدرس و قد لا تدرس، و إذا رغبها طالب لم یرغب فیها طلبة.

لم یکن هناک مناهج و لا أوقات تضبط الدروس و تحدد أوقاتها. کما أن الطلبة کانوا أحرارا فی کل شیء: فی العلم الذی یختارونه. و فی الشیخ الذی یحضرون علیه، هذه الحریة فی التحصیل هی التی مکنت الرعیل الذی کان فیه السیوطی من الإجادة و الإتقان و التبحر فی مختلف أنواع العلوم و الفنون فکانوا أعلاما نابهین. أمثال السیوطی، و العز بن عبد السلام، و القرافی، و ابن هشام و السبکی و أبناؤه، و زکریا الأنصاری و غیرهم:

کما کان الزهد فی المال، طابعا للطلبة یقول العلامة ابن دقیق العید:

لعمری لقد قاسیت بالفقر شدةوقعت بها فی حیرة و شتات

فإن بحت بالشکوی هتکت مروءتیو إن لم أبح بالصبر خفت مماتی

و أعظم به من نازل بملمةیزیل حیائی أو یزیل حیاتی

و تحدث السیوطی عن قوة حافظته فقال:

«فحفظت القرآن ولی دون ثمان سنین. ثم حفظت العمدة و منهاج الفقه و الأصول و ألفیة ابن مالک» حفظ کل هذه المحفوظات قبل أن ینقطع إلی طلب العلم بالأزهر کما حدثنا.

و تحدث عن تبحره فی العلوم و تعمقه فی فهمها.

«و رزقت التبحر فی سبعة علوم: التفسیر، و الحدیث، و الفقه، و النحو، و المعانی، و البیان، و البدیع ... و الذی اعتقده أن الذی وصلت إلیه من هذه العلوم السبعة- سوی الفقه- و النقول التی اطلعت علیها فیها

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۲

لم یصل إلیه، و لا وقف علیه أحد من أشیاخی، فضلا عمن هو دونهم ... و لو شئت أن أکتب فی کل مسألة مصنفا بأقوالها و أدلتها العقلیة و القیاسیة، و مدارکها و نقوضها و أجوبتها، و الموازنة بین اختلاف المذاهب فیها لقدرت علی ذلک من فضل اللّه ...».

و یقول أیضا: «و قد کملت عندی آلات الاجتهاد بحمد اللّه تعالی».

ثم یقول فی مقدمة کتابه (المزهر فی علوم اللغة).

«هذا علم شریف ابتکرت ترتیبه، و اخترعت تنویعه و تبویبه. و ذلک فی علوم اللغة و شروط أدائها و سماعها، حاکیت به علوم الأحادیث فی التقاسیم و الأنواع، و أثبت فیه بعجائب و غرائب حسنة الإبداع، و قد کان کثیر ممن تقدم یلم بأشیاء من ذلک، و یعتنی فی تمهیدها ببیان المسالک، غیر أن المجموع لم یسبقنی إلیه سابق، و لا طرق سبیله قبلی طارق».

هذا ما کتبه الشیخ متفرقا فی ترجمته لنفسه، و فی مقدمات بعض کتبه.

و یقول السیوطی- «و قد بلغت مؤلفاتی للآن ثلثمائة کتاب سوی ما غسلته و رجعت عنه».

و من هذا العدد الکبیر نعرف أنه کان سریع الکتابة إلی حد کبیر، و هو فی ذلک یشبه إمامنا الجاحظ فی السرعة لا فی إشراق الأسلوب، و لا فی متانة التعبیر، و لا فی إجادة الإنشاء.

إن الثلثمائة كتاب التى ألفها السيوطى تدور فى مدار العلوم الآتية كما ذكرها هو بتعبيراته:

۱- فن التفسير و تعلقاته و القراءات.

۲- فن الحديث و تعلقاته.

۳- فن الفقه و تعلقاته.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۳

۴- الأجزاء المفردة (و هى المؤلفات التى يتناول كل منها مسألة واحدة).

۵- فن العربية و تعلقاته.

۶- فن الأصول و البيان و التصوف.

۷- فن التاريخ و الأدب.

هل درس السيوطى كل هذه العلوم فى الأزهر؟ اذا صح أنه درس التفسير و الحديث و الأصول و اللغة العربية و بقية ما عرف من العلوم الأزهرية فى وقته، فهل درس أيضا التاريخ و الأدب على الصورة التى رسمها لنا فى تعداد الكتب التى ألفها، أنه لم يترك طبقة من الطبقات إلا ألف فيها كتابا: (الصحابة- الحفاظ- النحاة كبرى و وسطى و صغرى- المفسرين- الأصوليين- الكتاب- الشعراء- الخلفاء).

كما أنه الف فى التاريخ العام و الخاص و الرحلات كتبا كثيرة مثل (حسن المحاضرة- رفع الباس عن بنى العباس- ياقوت الشماريخ فى علم التاريخ- رفع شأن الحبشان ... الرحلة الدمياطية).

فهل درس الطبقات و التاريخ و كتب اللغة و الأدب فى الأزهر فأهلته المدارسة ليؤلف فيها بهذه الغزارة كما ألف فى العلوم الأزهرية؟

ان السيوطى كانت له صوفية علمية تجعله يدرس التاريخ و السير و المغازى على نفسه، و لم يكن فى الأزهر حلقات لمثل هذه العلوم.

لقد شبهت جلال الدين السيوطى بالجاحظ فى سرعة الأداء و الكتابة، و لكننى فرقت بينهما من حيث طلاوة الأسلوب، و إشراق الديباجة. و الآن أشبه مرة أخرى السيوطى بالجاحظ فى كثرة الاطلاع و متنوع الدراسات، فلقد كان الجاحظ يستأجر دكاكين الوراقين ليطلع على ما فيها من كتب و ربما كان يقضى فيها الليالى بأكملها لنهمه فى القراءة و الاطلاع. و كذلك الشيخ السيوطى فإنه لم يترك كتابا فى زمانه إلا قرأه و استفاد به.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۴

و قد كانت له رحلات، و لكنه لم يكشف لنا عن الدافع إليها، فقد قال فى ترجمته.

«و سافرت بحمد اللّه تعالى إلى بلاد الشام و الحجاز و اليمن و الهند و المغرب و التكرور» و هى رحلات بعضها شاق طويل، و أى رحلة أبعد من الهند؟ و أى متاعب أقسى فى زمنه من الجمع بين الرحيل إلى الشام و الحجاز و اليمن و الهند و الغرب و التكرور؟ إنه طوف فى ذلك بأكثر اجزاء نصف الكرة الشرقى.

و قد ولد السيوطى عام ۸۴۹ و انتقل الى رحمة اللّه عام ۹۱۱ هجرية.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۵

الفصل السابع الأزهر فى عهد الدولة العثمانيّة ۹۲۳- ۱۲۲۰ ه

تمهيد:

خضعت مصر للحكم العثمانى خضوعا تاما منذ عام ۹۲۳، و استمرت ولاية عثمانية إلى أن وضع محمد على يده عليها عام ۱۲۲۰ ه، و

کان یتولی الحکم فیها الوالی الترکی و مساعدوه، و یسنده الجیش و المماليک.

الحرکة العلمیة فی الأزهر:

فی أواخر القرن التاسع أخذت الحرکة العلمیة فی مصر الإسلامیة تضمحل، و کانت دولة السلاطین هی الأخری فی طریقها إلی الإنهیار، و اضطربت أحوال المجتمع و تفککت عراه، و أصاب المدارس الرکود، و أصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخری من الذبول، و فقدت مصر استقلالها، و سقطت فی ید الأتراک العثمانیین سنة ۹۲۲ ه (۱۵۱۷ م) و تقلص ظل الازدهار العلمی، و انصرف کثیر عن العلوم العقلیة و الفلسفة و الریاضة و الجغرافیا، و أخذ القول بحرمتها یقوی شیئا فشیئا، حتی ترکت هذه العلوم من الأزهر، و بقیت مهجورة ینظر إلیها بعین السخط، حتی صدرت أخیرا فتوی من شیخ الأزهر الشیخ الإنبابی و الشیخ محمد محمد البنا المفتی بجواز تعلمها و عدم حرمة تدریسها.

و فی الحق أن الفتح العثمانی قضی علی مظاهر النشاط الفکری التی کانت مزدهرة فی عهد السلاطین. فقد عنی الغزاة الأتراک عقب الفتح

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۶

مباشرة بتجرید مصر الإسلامیة من ذخائرها النفیسة فی الآثار و الکتب، و حمل کل ذلک الی القسطنطینیة، و قد قبض الغزاة علی العلماء الأعلام و الزعماء و قادة الفکر و بعثوا بهم جمیعا إلی ترکیا، و هکذا انهار صرح الحرکة الفکریة الإسلامیة، و تضاءل شأن العلوم و الفنون، و انحط معیار الثقافة، بعد أن کانت مصر موئل الثقافة و محط العلماء بعد سقوط بغداد علی أیدی المغول، و انقضاء البقیة الباقیة من سلطان المسلمین فی الأندلس. بعد أن وجد العلماء من المماليک ما أملوا، و وجد الإسلام فیهم حماة یقفون له کما وقف الأیوبیون من قبل، و کان ردهم للمغول فی موقعة عین جالوت علی ید قطز حدثا تاریخیا حفظ الحضارة الإسلامیة من معاول التتر، و رفع شأن مصر، و جعلها مهبط الثقافة الإسلامیة، و الأمینة علی تراث الإسلام منذ ذلک التاریخ حتی الیوم.

و قد کان الفضل فی ذلک للأزهر. فقد اتسع صدره للواردین من العلماء و الطلاب فی کافة البلاد، و مکن لهم من الدراسة الهادئة و البحث المنظم مما أفاد الحضارة الإنسانیة بأجزل الفوائد، بما أخرجوا من فرائد الکتب فی الفقه و الحدیث و التفسیر و اللغة.

و إذا کان الأزهر قد انطوی علی نفسه فی العصر الترکی و ذوت آثاره العلمیة، فقد استطاع بما له من نفوذ فی نفوس العامة و الخاصة أن یحمل العناصر الاستعماریة علی احترام مکانته و علی اللجوء إلیه فی الملمات، و کان یتوسط فیما ینشب بینهم و بین المصریین من خلاف، و استطاع الأزهر فی هذه الحقبة المظلمة من تاریخه أن یحفظ اللغة العربیة، و أن یقاوم لغة الفاتحین، و أن یبقی بابه مفتوحا لطلاب العلوم الإسلامیة و اللغة العربیة مدی ثلاثة قرون، حتی انزاح عن صدره الکابوس الترکی، و بدأ النور یبزغ من جدید فی أوائل القرن التاسع عشر یحمل فی طیاته الأمل .. و قد تمیز العصر الترکی فی مصر بفتور الهمم عن التألیف و التدوین، و انصراف المؤرخین عن تناول الشؤون العامة و الأمور النافعة إلی ملق الحکام و الأکابر، و تدوین سیرهم الشخصیة. و أما العلماء فقد استکانوا إلی الراحة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۷

و ظنوا أنه لا مطمع لهم فی الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه و رضوا بالتقلید و عکفوا علی کتب لا یوجد فیها روح العلم، و ابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحیاة و جهلهم الناس، و جهلوا طرق التفکیر الحدیثة و طرق البحث الحدیث، و ما جد فی الحیاة من علم، و ما جد فیها من مذاهب و آراء، فأعرض الناس عنهم، و نقموا هم علی الناس، فلم یؤدوا الواجب الدینی الذی خصصوا أنفسهم له.

و لما فترت همة المتأخرین من العلماء عن التألیف. عمدوا الی مصنفات السلف الصالح رضوان اللّه علیهم و شرحوها، ثم عمدوا إلی الشرح فشرحوها، و سموا ذلک حاشیة، ثم عمدوا الی الحواشی فشرحوها و سموا ذلک تقریرا، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف، و شرح، و شرح شرح، و شرح شرح الشرح، و کانت النتیجة أن تطرق الإبهام الی المعانی الأصلیة، و اضطربت المباحث، و

اختلت التراكيب، و تعقدت العبارات، و اختفى مراد المصنف.

و ورث الأزهر من هذا التعقيد العناية بالمناقشة اللفظية، و تتبع كلمات المؤلفين فى المصنفات و الشروح و الحواشى و التقارير، و تغلبت هذه العناية اللفظية على الروح العلمية الموضوعية، و صرفت الذهن عن الفكرة الأصلية الى ما يتصل بها من ألفاظ و عبارات.

و اتجه العلماء إلى الاشتغال بالفروض و الاحتمالات العقلية التى لا تقع و ما يتصل بها من أحكام، و على الأخص فى العبادات و المعاملات، و بدأوا يصنفون الرسائل فى هذه الفروض و الاحتمالات؛ و بذلك انصرفوا عن تنمية الفقه العملى الذى يحتاج إليه الناس فى معاملاتهم.

و انصرف الأزهر فى هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم الرياضية و العقلية، و وجد فيه من ينادى بتحريمها؛ و هكذا بدت بوادر الانحلال فى الأزهر، و انقطعت صلته بماضيه الزاهر، و وقفت حركة التفكير العلمى،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۸

و كادت هذه المدرسة الاسلامية الكبرى أن تفقد مميزاتها، من حرية الفكر و الإنتاج الخصب، لو لا أن قيض اللّه لها مصلحين أخذوا بيدها، و جنبوها عواقب هذه الآفات و العلل حتى تجمعت فيها، و أثرت فى مجرى حياتها.

لقد نفى العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية ؛ و انتزعوا الكتب من المساجد و المدارس و المجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية. و ما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة فى مكتبات استانبول، و منها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجرى المصريين مثل المقريزى، و السيوطى، و السخاوى، و ابن إياس، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمى.

و هكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر عقب الفتح التركى، كما انهارت عناصر القوة و الحياة فى المجتمع المصرى، و تضاءل شأن العلوم و الآداب، و انحط معيار الثقافة، و اختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة، و لم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة، يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر.

و قد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال و التدهور، و اختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت زاهرة به من قبل، حتى إن العلوم الرياضية. لم تكن تدرس به فى أواخر القرن الثانى عشر، و قد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ۱۱۶۱ ه (۱۷۴۸ م)، فى نقاشه للشيخ عبد اللّه الشبراوى شيخ الأزهر يومئذ و أنكره فى حديث أورده الجبرتى ، مما يدل على ما آلت اليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركى من التأخر و الركود.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۱۹

على أن الجامع الأزهر- كما يقول عنان- قام عندئذ بأعظم و أسمى مهمة أتيح له أن يقوم بها. فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته، و أن يؤثر بماضيه التالد و هيبته القديمة فى نفوس الغزاة انفسهم، فنجد الفاتح التركى يتبرك بالصلاة فيه غير مرة ، و نجد الغزاة يبتعدون عن كل مساس به، و يحلونه مكانا خاصا، و يحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية. و فى خلال ذلك صار الأزهر ملاذا أخيرا لعلوم الدين و اللغة، و غدا بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية، يحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها و حيويتها، و يدرأ عنها عادية التدهور النهائى، و يمكنها من مغالبة لغة الفاتحين و مقاومتها، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى .

و هكذا استطاع الأزهر فى تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية أجل الخدمات. و إذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركى ملاذا لطلاب العلوم الاسلامية و اللغة العربية من سائر أنحاء العالم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۰

العربى و العالم الإسلامى، فأكبر الفضل فى ذلك عائد إلى الأزهر. و قد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها ان تحمى هذا التراث نحو ثلاثة قرون، حتى انقضى العصر التركى بمحنه و ظلماته، و قيض لها أن تبدأ منذ اوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة

بمازجها النور و الأمل

و ربما كانت هذه المهمة السامية التى ألقى القدر زمامها الى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية، و العالم الإسلامى بأسره، هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته، و أعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين و اللغة خلال تاريخه الطويل الحافل.

نصيب الأزهر من التعمير فى هذا العصر:

فى عام ۱۰۰۴ ه أيام ولاية الشريف محمد باشا على عمر الأزهر، و جدد ما خرب منه، و رتب فيه غذاء للفقراء.

و فى عام ۱۰۱۴ عمر الوزير حسن والى مصر مقام السادة الحنفية أحسن عمارة و بلطة بالبلاط الجيد، و قد تولى مصر من عام ۱۰۱۴- ۱۰۱۶ ه.

و جدد اسماعيل بن إيواظ سقف الجامع الأزهر الذى كان آيلا للسقوط، و قد مات اسماعيل عام ۱۱۳۶ ه و من آثاره إنشاء مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى و مسجد سيدى على المليجى.

و أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة فى الأزهر مقدار النصف طولا و عرضا يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت و سقف أعلاها بالخشب النقى، و بنى به محرابا جديدا، و أنشأ به منبرا و أنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة المعروف بالدوداري و هو المشهور اليوم بباب الصعايدة و بنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف و جعل بداخله رحبة متسعة و صهريجا عظيما و سقاية للشرب، و عمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة و جعل

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۱

عليه قبة معقودة و تركيبة من رخام بديعة الصنعة منقوش عليها اسماء العشرة المبشرين بالجنة و كتابات أخرى .. و قد توفى الامير عبد الرحمن كتخدا عام ۱۱۹۰ ه :.

و بنى أمام المدفن المذكور رواقا مخصوصا بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم الشريف بالأزهر، و به مرافق و منافع و مطبخ و مخادع و خزائن كتب و بنى بجانب ذلك الباب منارة، و أنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع و هو المشهور بباب الشوربة، و جعل أيضا على يمينه منارة، و جعل فوقه مكتبا و بداخله على يمين الداخل ميضأة، و أنشأ لها ساقية، و صار الان محل الميضة حجرة مكتبة إدارة الأزهر، و قد جاء هذا الباب الكبير و ما بداخله من الطيبرسية و الاقبغاوية من أحسن المبانى فى العظم و الوجاهة و الفخامة و أرخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات:

تبارك اللّه باب الأزهر انفتحاو عاد أحسن مما كان و انصلحا

تقر عينا إذا شاهدت بهجتهبإخلاص بأن له للعلم و الصلحا

و ادخل على أدب تلق الهداة بهقد قرروا حكما يزدانها رجحا

بالباب قد بدأ الأكوان أرخهبعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

و جدد رواقا للمكاويين و التكروريين و زاد فى مرتبات الجامع، و رتب لمطبخه فى خصوص أيام رمضان فى كل يوم خمسة أرادب أرزا أبيض و قنطارا من السمن و لحوما و غير ذلك من المرتبات و الزيت و الوقود للطبخ، و زاد فى طعام المجاورين.

و لما مات هذا الأمير عام ۱۱۹۰ ه صلى عليه فى الأزهر، و دفن فى مدفنه الذى أعده لنفسه فيه.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۲

و قد حدثت فى الأزهر فى هذا العهد عدة حوادث مختلفة .. فلما توفى ثانى شيخ للأزهر و هو الشيخ النشرتى وقعت فتنة بالأزهر عام ۱۱۲۰ ه بسبب المشيخة و التدريس بالاقبغاوية و افترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى و الأخرى تريد الشيخ عبد

الباقی القلینی و لم یکن حاضرا بمصر، فتعصب له جماعة النشرتی، و ارسلوا یستعجلونه للحضور فقبل حضوره تصدر الشیخ النفراوی و حضر للتدریس بالاقبغاویة فمنعه القاطنون بها و حضر القلینی فانضم الیه جماعة النشرتی و تعصبوا له فحضر جماعة النفراوی الی الجامع لیلا و معهم بنادق و أسلحة و ضربوا بالبنادق فی الجامع و أخرجوا جماعة القلینی و کسروا باب الاقبغاویة و أجلسوا النفراوی مکان النشرتی، فاجتمعت جماعة القلینی فی یومها بعد العصر و کبسوا الجامع و اقفلوا ابوابه و تضاربوا مع جماعة النفراوی فقتلوا منهم نحو العشرة و جرح بینهم جرحی کثیرون و انتهبت الخزائن و کسرت القنادیل و حضر الوالی فأخرج القتلی و تفرق المجاورون و لم یبق بالجامع أحد و لم یصل فیه ذلک الیوم و أمر النفراوی بلزوم بیته و استقر القلینی مکانه.

و لما قربت وفاة شیخ الاسلام الشیخ الدمنهوری الشیخ التاسع للأزهر رغب الشیخ العریشی الحنفی فی المشیخة اذ هی اعظم مناصب العلماء فحضر الی الجامع مع ابراهیم بک و جمع الفقهاء و المشایخ و عرفهم أن الشیخ الدمنهوری أقامه وکیلا و بعد أیام توفی الشیخ الدمنهوری فتعین هو للمشیخة بتلک الطریقة و ساعده الأمراء و کبراء الأشیاخ و أبو الأنور السادات و کاد أمره یتم، و منع من ذلک اجتماع بعض الشافعیة و ذهابهم إلی الشیخ أحمد الجوهری حیث ساروا إلی بیت البکری و جمعوا علیهم جملة من أکابر الشافعیة مثل الشیخ احمد العروسی و الشیخ أحمد السمنودی و الشیخ حسن الکفراوی، و کتبوا طلبا للأمراء مضمونه أن مشیخة الأزهر من مناصب الشافعیة و لیس للحنفیة فیها قدیم عهد و خصوصا إذا کان آفاقیا کالشیخ عبد الرحمن العریشی و فی العلماء الشافعیة من هو أهل لذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۳

علما وتنا و انهم اتفقوا علی ان یکون المتعین لذلک الشیخ احمد العروسی، و ختموا جمیعا علی الطلب و أرسلوه إلی إبراهیم بک و مراد بک فتوقف الأمراء و شددوا فی عدم النقض ورد الطلب للمشایخ فقاموا علی ساق، و شدد الشیخ الجوهری فی ذلک و رکبوا بأجمعهم إلی جامع الامام الشافعی و باتوا به لیلة الجمعة، فهرعت الناس ینظرون فیما یؤول الیه هذا الأمر و کان للأمراء اعتقاد فی الشیخ الجوهری، فسعی أکثرهم فی انفاذ غرضه و خافوا العطب أو ثوران فتنة و حضر مراد بک للزیارة، فکلمه الشیخ الجوهری و قال له لا بد من فروة تلبسها للشیخ العروسی و یکون شیخا علی الشافعیة و ذاک شیخ علی الحنفیة کما أن الشیخ الدردیری شیخ المالکیة و البلد بلد الامام الشافعی و قد جئنا الیه و هو یأمرک بذلک فان خالفت یخشی علیک فاحضر فروة و ألبسها للشیخ العروسی و ذهب العروسی الی بیته و أخذ شأنه فی الظهور و احتد العریشی لذلک و ذهب إلی السادات و الأمراء فألبسوه فروة و تفاقم الأمر و صاروا حزبین، و تعصب للعریشی طائفة الشوام و المغاربة و منعوا الطائفة الأخری من دخول الجامع و استمر الامر نحو سبعة أشهر إلی وقوع حادثة بین الشوام و الأتراک و احتد الامراء للجنسیة و اکدوا فی طلب الفصل فی الامر و تصدی العریشی للذب عن الشوام، فانطلقت علیه الألسن و انحرف علیه الأمراء و طلبوه فاختفی فعزلوه عن الافتاء و حضر الأغا و صحبته العروسی للقبض علی الشوام ففروا فاغلقوا رواقهم و سمروه أیاما، ثم اصطلحوا و ثبتت مشیخة العروسی و امر العریشی بلزوم بیته فاختلی بنفسه للعبادة و مرض من الحزن و توفی سنة ۱۱۹۳ ه رحم اللّه الجمیع ...

و فی غرة رمضان سنة ۱۱۹۹ ثار فقراء المجاورین و القاطنون بالأزهر و أقفلوا أبوابه و منعوا منه الصلوات و کان ذلک یوم جمعة فلم یصل فیه ذلک الیوم و کذلک اغلقوا المسجد الحسینی و خرج العمیان و المجاورون یسیرون فی الأسواق و یخطفون ما یجدونه من الخبز و غیره، و سبب ذلک قطع رواتبهم و اخبازهم المعتادة، و استمروا علی ذلک حتی حضر سلیم اغا بعد

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۴

العشاء فی المدرسة الأشرفیة و أرسل إلی مشایخ الأروقة و تکلم معهم و التزم لهم بإجراء رواتبهم ... و فی سنة ۱۲۰۰ ه قطعت أخبازهم و مرتباتهم و فعلوا مثل ذلک و حضر إلیهم سلیم أغا مثل الأول و التزم و لم یوف، فضجت المجاورون فوق المنارات فحضر و نجز لهم بعض المرتبات مدة، ثم انقطع ثم التزم و تکرر الغلق و الفتح مرارا عدیدة مع منع المرتبات و إجرائها.

و فی أول جمعة من جمادی الأولی سنة ۱۲۰۰ ه ثار جماعة من أهالی الحسینیة بسبب ما حصل من حسین بک بشفت فإنه تسلط علی هجم البیوت فرکب بجنده إلی الحسینیة و هجم علی دار أحمد سالم الجزار المتولی ریاسة دراویش الشیخ البیومی و نهبه حتی حلی النساء و الفرش، فحضر أهل الحسینیة إلی الجامع الأزهر و معهم طبول و انضم الیهم کثیر من العامة و بأیدیهم نبابیت و مساوق، و ذهبوا الی الشیخ الدردیر فساعدهم بالکلام، و قال لهم أنا معکم فخرجوا من نواحی الجامع و أقفلوا أبوابه و صعد منهم طائفة علی المنارات یصیحون و یدقون بالطبول و انتشروا بالأسواق فی حالة منکرة و أغلقوا الحوانیت، و قال لهم الشیخ الدردیر: فی غدا نجمع أهالی الأطراف و الحارات و بولاق و مصر القدیمة و نرکب معهم و ننهب بیوتهم کما ینهبون بیوتنا و نموت شهداء أو ینصرنا اللّه علیهم، فلما کان بعد المغرب حضر سلیم أغا و محمد کتخدا الجلفی کتخدا إبراهیم بک و جلسوا فی الغوریة، ثم ذهبوا الی الشیخ الدردیر و تکلموا معه و خافوا من تضاعف الحال و قالوا اکتبوا لنا قائمة بالمنهوبات و نأتی بها من محل ما تکون و قرءوا الفاتحة علی ذلک و انصرفوا، و رکب الشیخ إلی إبراهیم بک و أرسل إلی حسین‌بک و أحضره و کلمه فی ذلک فقال: کلنا نهابون أنت تنهب و مراد بک ینهب و أنا أنهب ثم انفض المجلس و هدأت القضیة.

و بعد حادثة أهل الحسینیة السابقة بأیام قلیلة تعصب مجاورو الصعایدة فی الأزهر و أبطلوا دروس المدرسین به بسبب نهب سلیمان بک الأغا سفینة لهم فیها تمر و سمن مدعیا أن له مالا متأخرا عند أولاد وافی فی الصعید و أن ذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۵

مالهم، و لیس کذلک بل هو مال مجاوری الصعایدة، فرکب الشیخ الدردیر و الشیخ العروسی و الشیخ المصیلحی و آخرون إلی إبراهیم بک و تکلموا معه بحضوة سلیمان بک کلاما کثیرا مفحما، فرد سلیمان بک بعض ما أخذه.

و قد حدثت حوادث أیام مشیخة الشیخ الشرقاوی، منها أن طائفة المجاورین بالأزهر من الشرقاویین کانوا قاطنین بالطبیرسیة و کانت لهم خزائن برواق معمر فوقع بینهم و بین أهل الطبیرسیة مشاجرة و ضربوا نقیب الرواق و منعهم شیخ الطبیرسیة منها و کان ذلک سببا لبناء رواق السراقوة.

و منها فی سنة ۱۲۰۹ ه حضر أهل قریة بشرقیة بلبیس، و ذکروا أن أتباع محمد بک الألفی ظلموهم و طلبوا منهم مالا لا قدرة لهم علیه، فاغتاظ الشیخ الشرقاوی من ذلک و حضر إلی الأزهر و جمع المشایخ و قفلوا ابواب الجامع و ذلک بعد أن خاطب مراد بک و إبراهیم بک و لم یبدیا شیئا، و أمر الشیخ الناس بغلق الأسواق و الحوانیت ثم رکبوا ثانی یوم إلی بیت السادات و تبعهم کثیر من العامة و ازدحموا أمام الباب و البرکة، بحیث یراهم إبراهیم بک، فأرسل لهم أیوب بیک الدفتردار فوقف بین أیدیهم و سألهم عن مرادهم فقالوا نرید العدل و إبطال الحوادث و المکوسات التی ابتدعتموها، فقال لا تمکن الإجابة إلی هذا کله فإنا إن فعلنا ذلک لضاقت علینا المعایش، فقالوا لیس هذا بعذر عند اللّه و ما الباعث علی الإکثار من النفقات و المماریک و الأمیر یکون أمیرا بالإعطاء لا بالأخذ، فقال حتی أبلغ و انصرف و انفض المجلس و رکب المشایخ إلی الجامع الأزهر، و اجتمع أهل الأطراف و باتوا به، فبعث مراد بک یقول أجیبکم إلی جمیع ما ذکرتموه إلا شیئین: دیوان بولاق و طلبکم المتأخر من الجامکیة، ثم طلب أربعة من المشایخ عینهم بأسمائهم فذهبوا إلیه بالجیزة فلاطفهم و التمس منهم السعی فی الصلح، و فی الیوم الثلث اجتمع الأمراء و المشایخ فی بیت إبراهیم بک و فیهم الشیخ الشرقاوی و انعقد الصلح علی رفع المظالم ما عدا دیوان بولاق و أن یکفوا أتابعهم عن مد أیدیهم إلی أموال الناس و یسیروا فی الناس سیرة حسنة، و کتب القاضی حجة بذلک

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۶

و وقع علیها الباشا و الأمراء و انجلت الفتنة، و فرح الناس نحو شهر، ثم عاد الحال إلی أصله.

و یذکر ابن إیاس أن السلطان سلیم شاه العثمانی دخل الجامع الأزهر یوم الجمعة سنة ۹۲۳ ه فصلی به الجمعة و تصدق هناک بمبلغ کبیر ..

وزار الأزهر الشريف السلطان الأعظم عبد العزيز خان، و قد حظى بكثير من خيرات ملوك آل عثمان.

الأزهر و الحركة العلمية فى هذا العهد:

نبغ من هذا العصر عدد كبير من العلماء و الأدباء و الشعراء، منهم:

الشهاب الخفاجى المتوفى ۱۰۶۹ ه، و البديعى المتوفى عام ۱۰۷۳ ه، و عبد القادر البغدادى المتوفى عام ۱۰۹۳ ه صاحب خزانة الأدب، و السيد مرتضى الزبيدى (۱۱۴۵- ۱۲۰۵ ه) مؤلف تاج العروس، و الصبان المتوفى عام ۱۲۰۶ ه.

و منهم المحبى (۱۰۶۱- ۱۱۱۱ ه) مؤلف خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، و الشعرانى المتصوف المتوفى عام ۹۷۳ ه، و عبد اللّه الشبراوى المتوفى عام ۱۱۷۲ ه، و سواهم.

و هؤلاء كانوا من غير شك ممن أفادوا من الأزهر، و تأثروا به.

و فى هذا العهد استمر الأزهر مدى القرون الثلاثة التى حكم العثمانيون فيها مصر، يجاهد لحفظ البقية الباقية من اللغة العربية و العلوم القرآنية التى أصبحت فى حال ذبول أو شبه جفاف، و كان له الفضل على كل حال فى الإبقاء على حشاشة هذا التراث الإسلامى، لقد صار الأزهر أشهر الجوامع فى التدريس على الإطلاق. و قصده طلاب العلم من كل ناحية حتى تركستان و الهند و زيلع و سنار. و لكل طائفة منهم رواق باسمهم كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم، أو الزيالعة، أو اليمنية أو الهندية، فضلا عن أروقة الصعيد.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۷

و بلغ عدد تلاميذ الأزهر فى أوائل القرن التاسع للهجرة- أى نحو عام ۸۱۸ ه- ۷۵۰ طالبا من طوائف مختلفة، و كانوا مقيمين فى الجامع و معهم صناديقهم و خزائنهم يتعلمون فيه فى الفقه و الحديث و النحو و المنطق، و زادوا فى عصر العثمانيين على ذلك زيادة كبيرة.

و فى كتاب التعليم العام فى مصر ما يفيد أن العلوم التى كانت تدرس غالبا بالأزهر حتى منتصف القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) هى الآداب و الفقه التوحيد.

و كانت تدرس أحيانا بصفة استثنائية علوم الفلك، و العلوم الرياضية، و العلوم الطبيعية، و التجريبية، إجمالا.

و اشتدت المنافسة الفكرية التى كانت بين المذاهب فى الأزهر، و التى أدت إلى ظهور المذهب الشافعى على سائر المذاهب، حيث نرى منذ هذا الوقت المذاهب كلها تدرس سويا بالأزهر، إلا أن المشيخة كانت فى الغالب للشافعيين. و المنافسة كما يدلنا التاريخ كانت شديدة على هذا المنصب، و كانت فى أكثر الأوقات تدور بين المذهبين الشافعى و الحنفى، و المذهب الحنفى كان غالبا مذهب الأمراء و الولاة من الأكراد و المماليك و الأتراك. و لا زلنا للآن نجد المذهب الحنفى فى صف السلطة القضائية فى هيئة الحكم، فعليه تسير المحاكم الشرعية فى قضائها. و يرى الأستاذ «فولر» أن وجود جدث الامام الشافعى الطاهر فى مسجده المنيف، و كذلك سلطانه الروحى فى نفوس الأهالى، مما ساعدا على كثرة أتباعه. و قد يكون هذا صحيحا، و الواقع أن مرجع هذه المنافسة يعود إلى خلاف فى طبيعة المذهبين.

و مهما يكن من أمر فالأزهر فى كل عصوره حتى حكم محمد على كان مركز التعليم الذى تدور حوله الحركة العلمية فى البلاد، و لهذا المركز الممتاز أدت هذه الجامعة خدمتين من أجل الخدمات التى لها أثرها الواضح فى حياة مصر الاجتماعية و السياسية عامة:

الأولى عمله على نشر

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۸

اللغة العربية و توطيدها بالبلاد المصرية، و شد أزرها ضد اللغة القومية التى غزاها الإسلام بلغته العربية العريقة. و الثانية دعم أسس الديانة الإسلامية و وقوفها تسند الإسلام بكل ما انبعث فيها من المجهودات العقلية و الروحية.

و الخطة التی انتهجها الأزهر تتلخص فی أنه بعد زوال الدولة الفاطمیة و عمل صلاح الدین علی إبادة آثارها، أدخلت المذاهب الأربعة فی الأزهر و صارت سواسیة فی التدریس فیه، و کان لکل مذهب شیخ، و له مطلق السلطة علی الأساتذة و الطلاب الدین ینضمون تحت لواء مذهبه.

و کان من آثار الأزهر فوق هذا أن جعل لمصر مکانة ممتازة و سلطانا أدبیا علی شعوب الشرق، و أصبحت البلاد الشرقیة تنظر إلی مصر نظرة الحائر إلی الهادی المرشد. و تعترف لها بالفضل و العلم.

و کان التعلیم فیه علی ثلاث مراحل: المرحلة الأولی یبدأ التلمیذ فیها بتعلم الهجاء و القراءة و الکتابة و یحفظ ما تیسر من القرآن عن ظهر قلب لیکون هذا الجزء المادة التی یستطیع أن یطبق التلمیذ فیها عملیا ما أخذ من المعلومات النظریة فی تعلمه قواعد الهجاء و الکتابة، فیطالب التلمیذ بکتابة هذا الجزء و قراءته، ثم ینتقل من هذا الجزء إلی غیره کتابة و قراءة و حفظا حتی یتم القرآن و هذه أول مراحل التعلیم، و یکون التلمیذ فیها قد تعلم القراءة و الکتابة و تستغرق هذه المرحلة من سنتین إلی ثلاث.

ثم ینتقل إلی المرحلة الثانیة و یظل تحت إشراف أستاذه، یعطیه دروسا فی القراءة و الکتابة، و موضوعات إنشائیة سهلة تتدرج فیها من السهولة إلی الصعوبة، متمشیا فی ذلک مع النمو العقلی للتلمیذ، و یکون التلمیذ فی هذه السن علی أبواب دور المراهقة و کل ما استفاده من هذه البرامج تحصیله للقرآن الشریف، فالتلمیذ یستطیع أن یستغل ما حفظه منه فی تعمیر حیاته الروحیة، و تلاوته تکون سلواه و أنیسه، و یتخیر من الآیات ما یتفق و نفسه فیستعملها فی دعائه و عبادته و صلاته کل یوم، و تکون قواه

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۲۹

العقلیة بهذا التمرین قد نشطت بوجه ما، و یکون لسانه قد تقوم و اکتسب اللهجة العربیة الفصحی .. و أظهر ما یبدو فی هذا الأسلوب التعلیمی أنه لا یبدأ بتعلیم القواعد و التعاریف و الکلیات فی اللغة إلا بعد أن یکون التلمیذ قد تذوق هذه اللغة بنفسه، و تکونت فی عقله ملکة و ذوق.

و أغلب المتعلمین کانوا یقفون عند هذا الحد، و یتخرجون فی سن الثانیة عشرة، و بعضهم کان یخطو إلی المرحلة الثالثة، یدرسون فیها علوم الدین من فقه و حدیث و توحید الخ، و فی الأحوال الاستثنائیة کان بعض الأفراد یدرسون العلوم الطبیعیة و الریاضیة.

و المتخرج ما کان یحصل علی شهادة یعترف بها رسمیا، و إنما کان یعتمد علی مجهوده الشخصی و شهرته و کفاءته فی إلزام الناس بالاعتراف بوجوده و منزلته، و کان لا یتصدر للتدریس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر، و تلقاها من أفواه المشایخ، و صار متأهلا للتصدر، حلّالا للمشکلات و معضلات المسائل، فلا یحتاج لاستئذان إلا علی جهة الأدب و البرکة، و إنما یعلم بعض المشایخ و الطلبة فیحضرون درسه، و یتراکمون علیه، و هو یتأنق فی الابتداء و یتهالک فی طریق الإغراب و التوغل و قد یتعصب علیه بعض الحاضرین و یتعنت، و البعض الآخر ینتصر له، و إذا تلعثم فی إجابته لسائل ربما أقاموه و منعوه من التصدر، و إذا عاند ربما ضربوه.

و لم یکن للأزهر شیخ منذ أن أنشیء إلی القرن العاشر، و إنما کان یتولاه الملوک و الأمراء الذین کانوا یهتمون بشأنه و یکرمون أهله، حتی إذا کان القرن الحادی عشر الهجری جعل للأزهر شیخ، و مما یجمل ذکره أن شیخ الأزهر کان بمثابة شیخ الإسلام فی دار الخلافة، فکان یقوم بشؤون الأزهر و یرعی أمور أهله و یفصل فی قضایاهم و یضبط مرتباتهم، و یمثلهم لدی الحکومة، و منوط به إقامة شعائر الدین فی أنحاء القطر قاطبة.

و أول من تولی المشیخة- کما قاله الجبرتی- هو الإمام محمد بن

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۰

عبد اللّه الخرشی المالکی، و قد توفی سنة ۱۱۰۱ ه، و تولی بعده الشیخ محمد النشرتی و توفی سنة ۱۱۲۰ ه، و جاء بعده الشیخ عبد الباقی المالکی القلینی، فلما مات تقلد بعده الشیخ محمد شنن المالکی المتوفی سنة ۱۱۳۳ ه؛ ثم تولی بعده الشیخ إبراهیم ابن موسی الفیومی المالکی المتوفی سنة ۱۱۳۷ ه، ثم تولی بعده الشیخ إبراهیم الشبراوی الشافعی و توفی سنة ۱۱۷۱ ه، فتولی المشیخة بعده

الشیخ الحفنی المتوفی سنة ۱۱۸۱ ه، ثم تولی المشیخة بعده الشیخ عبد الرؤوف السجینی و توفی سنة ۱۱۸۲ ه، ثم تولی بعده الشیخ أحمد الدمنهوری المذاهبی و توفی بمنزله ببولاق سنة ۱۱۹۲ ه، و بعد وفاته حصل نزاع فی تولی المشیخة بین الشیخین عبد الرحمن بن عمر العریشی الحنفی و أحمد العروسی الشافعی مدة سبعة أشهر، ثم آلت إلی الثانی و توفی سنة ۱۲۰۸ ه، فانتقلت المشیخة إلی الشیخ عبد اللّه الشهیر بالشرقاوی و هو الذی أنشأ رواق الشراقوة، و قد دخل الفرنسیون مصر فی أیامه و انتخبوه عضوا فی الدیوانین: العمومی و الخصوصی.

الأزهر و تاریخنا القومی:

قاد الأزهر ثورتین هامتین تعتبران من أسبق الثورات الدستوریة العالمیة، إحداهما کانت بقیادة أکبر علماء ذلک العصر و هو الإمام أحمد الدردیر، و الأخری بقیادة شیخ الأزهر فی ذلک الوقت الشیخ عبد اللّه الشرقاوی رحمهما اللّه تعالی.

فالثورة الاولی سبقت إشارة لها و خلاصتها أنه فی یوم من أیام ربیع الأول عام ۱۲۰۰ ه (ینایر عام ۱۷۸۶ م) نهب حسین بک شفت و جنوده دارا لشخص یدعی أحمد سالم الجزار بالحسینیة جهارا نهارا ظلما و عدوانا. فثارت ثائرة الأهالی، و تشاوروا فیما یجب علیهم أن یفعلوه و اتفقوا أخیرا علی الالتجاء إلی أقوی العلماء شخصیة و أوسعهم نفوذا، و هو الإمام الدردیر، فاجتمع الأهالی فی الیوم التالی للحادث و یمموا شطر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۱

الجامع الأزهر و قصدوا الشیخ و أخبروه بالواقعة، فغضب الشیخ لاستهتار الأمراء و تعسفهم و نادی فی الجماهیر غیر هیاب و لا وجل: أنا معکم، و غدا نجمع أهالی الأطراف و الحارات و بولاق و مصر القدیمة و أرکب معکم و ننهب بیوتهم کما نهبوا بیوتنا و نموت شهداء أو ینصرنا اللّه علیهم و أمر الشیخ بدق الطبول علی المنارات إیذانا بالاستعداد للقتال، و ترامت الأخبار بین الأهالی، فأسرعوا نحو الأزهر للاشتراک فی المعرکة، و کانت أخبار الجماهیر الهائجة قد وصلت إلی إبراهیم بک، و بلغه تصمیم الإمام الدردیر علی قیادة الشعب ضد الأمراء، و کان یعلم مقدار ما للشیخ من نفوذ و مکانة علی الأهالی، فخشی أن یستفحل الأمر و یؤدی إلی ضیاع سلطته فی مصر، فأرسل نائبه و معه أحد الأمراء إلی الإمام الدردیر و اعتذر له عما حدث، و وعد بأن یکف أیدی الأمراء عن الناس. کما قرر توبیخ حسن بک شفت علی صنیعه و طلب قائمة بجمیع ما نهبه لیأمره برد ذلک إلی صاحبه، و هکذا وضع الامام قاعدة دستوریة هامة و هی احترام الحکم لارادة المحکومین .

و الثورة الثانیة تتلخص کما تقدم فی أنه فی شهر ذی الحجة عام (۱۲۰۹ ه- ۱۷۹۵ م) اشتکی فلاحو قریة من قری بلبیس إلی الشیخ عبد اللّه الشرقاوی من ظلم محمد بک الألفی و رجاله، فبلغ الشیخ الشرقاوی الشکوی إلی کل من مراد و إبراهیم بک، و خاطبهما فی کف أذی محمد بک الألفی عن الفلاحین فلم یفعلا شیئا، فما کان من الشیخ الشرقاوی رحمه اللّه تعالی إلا أن عقد اجتماعا فی الأزهر حضره العلماء و تشاوروا فی الأمر فاستقر رأیهم علی مقاومة الامراء بالقوة حتی یجیبوا مطالبهم، و قرروا إغلاق أبواب الجامع الأزهر، و أمروا الناس بغلق الأسواق و الحوانیت استعدادا للقتال.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۲

و فی الیوم التالی: رکب الشیخ الشرقاوی و معه العلماء و تبعهم الجماهیر و سار الجمیع الی منزل الشیخ السادات یستشیرونه فی بدء المعرکة، و کان قصر ابراهیم بک قریبا من قصر الشیخ السادات، فراعه احتشاد الجماهیر هناک، و علم باجتماع العلماء عند الشیخ السادات، فبادر بارسال أیوب بک الدفتردار لیسأل عن مرادهم.

فقالوا له: نرید العدل و رفع الظلم و الجور و إقامة الشرع و إبطال الحوادث و المکوسات التی ابتدعتموها و أحدثتموها.

فأجابهم قائلا: لا یمکن الإجابة إلی هذا کله فإننا إن فعلنا ذلک ضاقت علینا المعایش و النفقات. فقالوا له: هذا لیس بعذر عند اللّه و لا

عند الناس، و ما الباعث على الاكثار من النفقات و شراء المماليك، و الأمير يكون اميرا بالاعطاء لا بالأخذ!.

فقال لهم: حتى أبلغ و انصرف و لم يعد لهم بجواب.

صمم العلماء فى هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الأمراء، فإما ان يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة. و أعلنوا أهالى القاهرة بعزمهم. فتقاطرت الجماهير صوب الأزهر و باتوا هم و العلماء داخل المسجد و حوله.

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب و مرابطته مع العلماء استعدادا للقتال. فأرسل الى العلماء يعتذر إليهم و يبرىء نفسه ملقيا التبعة على شريكه فى الحكم مراد بك، بل ذهب الى أبعد من هذا إذ يقول «أنا معكم و هذه الأمور على غير خاطرى و مرادى»، و أرسل مراد بك يستحثه لعمل شىء و يخيفه عاقبة الثورة التى توشك ان تنفجر.

و فى اليوم الثالث للثورة توجه والى مصر إلى منزل إبراهيم بك و اجتمع مع أمراء المماليك و قرروا إيجاد حل سريع حاسم قبل ان يفلت الزمام فتشتعل الثورة، و أرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع، فحضر الشيخ السادات و السيد عمر مكرم و الشيخ الشرقاوى و الشيخ البكرى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۳

و الشيخ الأمير و طال الحديث بينهم، و كان مداره حول حقوق الشعب، و لم يستطع ابراهيم بك و لا مراد بك و لا الأمراء المكابرة فى هذه المرة، فقد كانت القاهرة تغلى كالمرجل و كانت أشبه ببركان يوشك أن يثور، و كان الشعب المتكتل فى الخارج يلوح مهددا متوعدا، و انتهى هذا المجلس التاريخى بموافقة الأمراء و الوالى على القرارات الآتية:

أولا: لا تفرض ضريبة الا إذا أقرها مندوبو الشعب.

ثانيا: أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم.

ثالثا: ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق و الشرع.

و كان القاضى الشرعى حاضر فحرر (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها الوالى، و ختم عليها إبراهيم بك و أرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا و انحلت الأزمة. و رجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأهالى و هم ينادون: حسب مارسمه سادتنا العلماء بأن جميع المظالم و الحوادث و المكوس بطالة من مملكة الديار المصرية.

و لو تأملنا فى هذا النص الذى ساقه مؤرخ مصر الجبرتى و دققنا النظر فى قوله «حسب ما رسمه سادتنا العلماء» لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلا: و هو أن الأمة مصدر السلطات.

و قد توافق رأى أكثر المؤرخين الفرنجة على ان هذه الحجة بمثابة و ثيقة إعلان حقوق الانسان، سبقت بها مصر غيرها.

و قد طبق و كلاء الشعب و يمثلهم العلماء و الأعيان هذا المبدأ- مبدأ الأمة مصدر السلطات- على والى مصر خورشيد باشا، حين عجز عن ضبط الأمن فى البلاد، إذ عقدوا مؤتمرا وطنيا يوم ۱۳ صفر عام ۱۲۲۰ ه، و قرروا عزل الوالى. و لما رفض الاذعان لهذا القرار قام العلماء و الأعيان و الشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة و دارت رحا الحرب بينهم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۴

و بين الوالى، و كانت الأوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم و العلماء بصفتهم و كلاء الأمة، و أجبروه أخيرا على الاذعان لقرار الأمة فى ۲۹ جمادى الأولى عام ۱۲۲۰ ه.

هذا و قد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة فى الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الإمام شمس الدين محمد الحنفى المتوفى ى عام ۸۴۷ ه، و الشيخ شمس الدين الديروطى الواعظ بالأزهر الشريف و المتوفى عام ۹۲۱ ه، و شيخ الاسلام الامام محمد بن سالم الحنفى المتوفى عام ۱۱۸۱ ه.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۵

الشهاب الخفاجی المصری ۹۷۵- ۱۰۶۹ ه

والده هو محمد بن عمر الخفاجی المصری الشافعی احد علماء عصره، و أعلام دهره.

و کان من الفضلاء و الأدباء البارعین، المتعمقین المحققین المتقنین، و أخذ عن کبار الشیوخ، و تصدر للإفادة، فانتفع به جماعة من کبار العلماء، من جملتهم ابنه الشاعر العلامة الشهاب الخفاجی صاحب طراز المجالس و سواه من المؤلفات القیمة.

و توفی الخفاجی عام ۱۰۱۹ ه بعد حیاة حافلة، و خدمات جلیلة أسداها للعلم و الدین و الأدب و اللغة .

أما الشهاب الخفاجی :

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۶

فمجال الحدیث عنه واسع، و المراجع التاریخیة و الأدبیة عنه و عن حیاته و شعره کثیرة

و سأتناول جوانب هذه الشخصیة الکبیرة فی إیجاز:

یقول ابن معصوم فی «السلافة» عنه:

أحد الشهب السیارة، و المقتحم من بحر الفضل لجه و تیاره، فرع تهدل من خفاجة و فرد سلک سبیل البیان و مهد فجاجه ، إلی آخر ما یقول:

و یقول فندیک فی کتابه «اکتفاء المطبوع»:

و الخفاجی یرجع نسبه إلی قبیلة «خفاجة»، و سکن أبوه فی قطعة أرض بقرب سریاقوس شمالی القاهرة و هی قبیلة عربیة کبیرة کان لها دولة فی العراق و منها أمراء کثیرون.

و إذا فالشهاب یرجع فی نسبته إلی بنی خفاجة علی وجه التحقیق کما رأینا فی هذه المصادر و کما ورد فی سوی هذه المصادر.

و إذا کان المحبی فی خلاصة الأثر لم یحقق هذه النسبة و اکتفی بقوله: خفاجة هی من بنی عامر فلعل أصل والده منهم ، فذلک لأنه لم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۷

یکن من علماء الأنساب و کانت حیاته بعیدة عن الحجاز و نجد و صمیم القبائل العربیة، و لم یکن من العرب الخلص، و غیر العرب الخلص لا یهتمون بالأنساب و معرفتها اهتماما کبیرا.

و الشهاب هو شهاب الدین محمود بن محمد بن عمر الخفاجی.

ترجم لنفسه فی الریحانة فقال ما ننقله عنها فی إیجاز «کنت بعد سن التمییز، فی مغرس طیب النبت عزیز، فی حجر و الدی. و مقام والدی غنی عن المدح، فلما درجت من عشی قرأت علی خالی سیبویه زمانه علوم العربیة ، و نافست إخوانی فی الجد و الطلب، ثم قرأت المعانی و المنطق و بقیة علوم الأدب الاثنی عشر و نظرت فی کتب المذهبین: أبی حنیفة و الشافعی. و من أجل من أخذت عنهم: شیخ الإسلام ابن شیخ الإسلام الشمس الرملی و أجازنی بجمیع مؤلفاته و مروایاته بروایته عن شیخ الإسلام زکریا الأنصاری [توفی ۹۲۶ ه] و عن والده، و منهم أحمد العلقمی أخذت عنه الأدب و الشعر، و العلامة الصالحی الشامی و الشیخ داود البصیر أخذت عنه الطب»

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۸

ثم ارتحلت مع والدی للحرمین و قرأت هناک علی ابن جاد اللّه و علی حفید العصام و غیره.

ثم ارتحلت الی القسطنطینیة فتشرفت بمن فیها من الفضلاء و المصنفین و استفدت و تخرجت علیهم، و ممن أخذت عنه الریاضیات و قرأت علیه اقلیدس و غیره أستاذی ابن حسن، ثم انقرض هؤلاء العلماء فی مدة یسیرة فلم یبق بها عین و لا أثر و آل الامر إلی اجتراء

السلاطین و الوزراء بقتل العلماء و إهانتهم. و لما عدت إليها- أی القسطنطينية- ثانيا بعدما و ليت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأمر و غلبة الجهل فذكرت ذلك للوزير فكان ذلك سبب عزلی و أمری بالخروج من تلك المدينة .

«فان أردت مالی من المآثر فمن تأليفی: الرسائل الأربعون، و حاشية تفسير القاضی فی مجلدات، و حاشية شرح الفرائض، و شرح الدرة، و طراز المجالس، و حديقة السحر، و كتاب السوائح، و الرحلة ، و حواشی الرضی، و الجامی، و شرح الشفاء و غير ذلك: ولی من النظم ما هو مسطور فی ديوانی؛ و من المنثور رسائل منها: الفصول القصار و المقامة الرومية التی ذكرت فيها أحوال الروم و علمائها ».

و للشهاب عدة مقامات نسج فيها علی منوال مقامات الحريری منها:

مقامة الغربة ، و المقامة الساسانية ، و مقامة عارض بها مقامة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۳۹

الوطواط ، و المقامة المغربية .

«و له كتاب شفاء الغليل فيما فی كلام العرب من الدخيل، و كتاب ديوان الأدب فی ذكر شعراء العرب ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء و المولدين و له كتاب طراز المجالس و هو مجموع حسن الوضع جم الفائدة رتبه علی خمسين مجلسا ذكر فيه مباحث لغوية و نحوية و أصولية و تفسيرية، و له رسائل كثيرة و مكاتبات وافرة لم يجمعها و مقامات ذكر بعضها فی ريحانته ».

«و كان لما وصل إلی الروم فی رحلته الأولی ولی القضاء ببلاد «الروم ايلی» حتی وصل إلی أعلی مناصبها فی زمن السلطان مراد حتی اشتهر بالفضل الباهر فولاه السلطان قضاء سلانيك فاستفاد مالا كثيرا ثم اعطی بعدها قضاء مصر و بعد ما عزل عنها رجع الی الروم فمر علی دمشق و أقام بها أياما و مدحه فضلاؤها بالقصائد و اعتنی به أهلها و علماؤها، و دخل حلب إثر ذلك ثم رحل إلی الروم و كان إذ ذاك مفتيها يحيی بن زكريا فأعرض عنه فصنع مقامته التی ذكرها فی الريحانة و تعرض فيها للمولی المذكور فكان ذلك سبب نفيه الی مصر و أعطی قضاء فيها فاستقر بمصر يؤلف و يصنف و أخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر، منهم: عبد القادر و الحموی و أخذ عنه والدی و كتب عنه أصل الريحانة الذی سماه «خبايا الزوايا فيما فی الرجال من البقايا» ، «و أصل والده من سرياقوس قرية من قری الخانقاه» .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۰

«و منی الشهاب بعداوة بعض شعراء عصره » «و توفی سنة ۱۰۶۹ ه- ۱۶۵۸ م» فی رمضان و عمره فوق التسعين ». و إذا يكون ميلاده حوالی سنة ۹۷۵ ه.

مكانته العلمية:

«الشهاب الخفاجی الحنفی قاضی القضاة المصری و صاحب التصانيف الكثيرة واحد الأفراد المجمع علی إمامته و تفروقه و براعته فی عصره ».

أجری من ينبوع الفضل ما أخجل بمصر نيلها و بالشام سيحانه، و أهدی لأرباب الأدب من رياض أدبه أطيب ريحانه .

و كان أحد أفراد الدنيا المجمع علی تفوقه و كان فی عصره بدر سماء العلم و نير أفق النثر و النظم رأس المؤلفين و رئيس المصنفين، سار ذكره مسير المثل، و طلعت أخباره طلوع الشهب فی الفلك، و كل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد فی التقرير و التحرير و حسن الإنشاء و ليس فيهم من يلحق شأوه و لا يدعی ذلك. و تآليفه كثيرة مقبولة و انتشرت فی البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها، و أشعاره و منشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها. و الحاصل أنه فاق كل من تقدمه فی كل فضيلة، و أتعب من يجیء بعده مع ما خوله اللّه من السعة و كثرة الكتب و لطف الطبع و النكتة و النادرة .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۱

و هذا یغنینا عن کل کلام فی بیان منزلة الشهاب الخفاجی فی عصره و بعد عصره.

ثقافة الشهاب:

اما ثقافة الخفاجی الأدبیة فواسعة جدا تنبئنا عنها الریحانة و طراز المجالس أحد مؤلفاته و یدلنا علیها أیضا شعره و مقامته؛ و لقد کان الخفاجی متضلعا فی علوم اللغة و الأدب و البلاغة الی حد بعید.

و أما ثقافته الدینیة فقد أهلته لتولی عدة مناصب قضائیة عظیمة منها منصب قاضی القضاة المصری.

و أما ثقافته العامة الأخری فواسعة جدا کما تنبئنا عنها آثار الخفاجی و کما ذکر فی ترجمته لنفسه و کانت له مکتبة مشهورة، و ذکر بعضهم أنه وجد فی مخلفاته عشرة آلاف مجلد.

نثره: عاش الخفاجی فی آخر عصر المالیک حیث الملکات الأدبیة فی اضمحلال و فناء و الإنتاج الأدبی فی الشعر و النثر سقیم مرذول؛ و لکن الخفاجی مع هذا کله سلیم العبارة قوی الملکة حسن الأسلوب بلیغ الأداء یسیر کلامه مع الطبع و الذوق و لا تنبو عنه الإسماع و لا الأذواق فهو فی نثره:

رسائله و مقاماته و کتبه الأدبیة التی ألفها- زعیم عصره فی هذا المذهب الأدبی المطبوع المقبول البعید عن أثر الصنعة و التکلف أو الحوشیة و الإغراب أو السوقیة و الابتذال.

شعره: للخفاجی دیوان شعر مفقود ذکره فی الریحانة و قد عثرنا بعد ذلک علی نسخة خطیة منه بمکتبة الأزهر (بنمرة ۵۰۵ خصوصیة أدب) و له عدا ذلک شعر کثیر جدا ذکره فی کتابه الریحانة و فی کتابه طراز المجالس.

و له مقصورة فی مدح النبی صلوات اللّه علیه عارض بها مقصورة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۲

ابن درید و قصائد أخری فی هذا المعنی ضمن مجموعة مخطوطة بدار الکتب (۷۶ مجامیع) و مقصورته فی مدح النبی عارض بها مقصورة زهیر ابن أبی سلمی ضمن ترجمة له و عدة أشیاء أخری من آثاره ألحقت بکتاب خبایا الزوایا المخطوط و روی المحبی فی خلاصة الأثر بعض شعره، قال: و من أجود شعره قصیدة دالیة مشهورة:

قدحت رعود البرق زنداأضرمن أشجانا و وجدا

فی فحمة الظلماء إذمدت علی الخضراء بردا

حتی تثاءب نورهو تمطت الأغصان قدا

و علی الغدیر مفاضةسردت له النسمات سردا

و حبابه من فوقهقد بات یلعب فیه نردا

فسقی معاهد بالحمیقد أنبتت حبا و ودا

تذر اللیالی فی ثریمن عنبر للمسک أهدی

عجبا لدر ناصع أودعن فی مسک مندی

فی ظل عیش ناعمبنسیم اسحار تردی

و الدهر عبد طائع أهدی لنا شرفا و سعدا

ما زال أصدق ناصح کم قال ل هزلا و جدا

سلم امرؤ عن طورهفی کل حال ما تعدی

فالخطب بحر زاخرفاصبر له جزرا و مدا

فی ذمة الأیام للأحرار دین قد یؤدی

إن ماطلت فلربماأنجزن بعد المطل وعدا

فإذا رمی طأطیء لهرأسا تراه عنک عدی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۳ أفبعد إخوانی الألی‌درجوا أخاف الیوم نقدا

عینی إذا استسقت بهم‌تسقی بدمع العین خدا

لو کانت القطرات تجمدنظمت فی الجید عقدا

قوم لهم یدعو الثنامن شاسع الأقطار وفدا

کم فی عکاظ ندیهم‌جلبوا لهم شکرا و حمدا

لا یشترون بذخرهم‌إلا جمیل الذکر نقدا

أبقی لهم حسن الحدیث‌برغم أنف الدهر خلدا

ورثوا المکارم کابراعن کابر فرضا وردا

من کل طود شامخ‌متسربل برداه مجدا

أمست عیونا کلهاترنو إلی الأعداء حقدا

تلقی الوری بندیهم‌نکس العیون إذا تبدّی

لبس الجلال علی الجمال‌فصد عنه الطرف صدا

فهمو بسلطان التقی اتخذواقلوب الناس جندا

أمسوا بغمد ضریحهمو بقیت مثل السیف فردا

ما لی أقیم ببلدةفیها بناء الدین هدا

و نها الشهاب إذا سمایخشی من السلطان طردا

و ستأتی نماذج صغیرة من شعره.

مؤلفات الخفاجی:

۱- الریحانة و اسمها «ریحانة الالبا و زهرة الحیاة الدنیا» و یقول فیها الشهاب ذخائر من «خبایا الزوایا فیما فی الرجال من البقایا» و قد سار علیها هذا الإسم أیضا .

و هی تراجم أدبیة واسعة لشعراء القرن الحادی عشر و أدبائه و علمائه فی مصر و الشام و الیمن و الحجاز و المغرب، قسمها عدة أقسام:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۴

فالقسم الأول فی تراجم اهل الشام و نواحیها.

و القسم الثانی فی تراجم العصریین من أهل المغرب و ما والاها.

و القسم الثالث فی تراجم مکة و من بحماها ذکر فیه الدولة الحسینیة و من بها من بقیة العلماء و الشعراء و الأعیان.

و القسم الرابع فی ترجمة أهل الیمن ممن بلغه خبره فی هذا الزمان ممن بقی بها من الفضلاء و الشعراء و کان قریب العهد.

و القسم الخامس فی الترجمة لأدباء و علماء مصر.

و القسم السادس فی الترجمة لنفسه

و قد اثنی علیها کل العلماء و رجال الأدب و یقول فیها ابن معصوم:

«أهدی إلی من مکة المشرفة کتاب ریحانة الألبا تألیف العلامة النحریر. شهاب الدین الخفاجی و هو الشهاب الذی أضاء نور فضله فی هذا الزمن الداجی، فرأیته قد أجاد فیما ألف و تکفل بالمقصود و ما تکلف فللّه کتابه من ریحانة تنفست فی لیلها البارد و عطرت معاطس الإسماع بطیب نشرها الوارد حتی خاطبها کل کلف بالأدب راح لعرفها منتشقا الخ» .

«و قد بنی الخفاجی الریحانة علی التراجم و لکنه توسع فی تراجم الشعراء فشرح أقوالهم و نقد ما یستحق النقد منها و هو کتاب أدب و تاریخ جلیل الفائدة .

و قد ذیلها المحبی صاحب خلاصة الأثر م ۱۱۱۱ ه بکتاب سماه «نفحة الریحانة» و قد طبعت الریحانة فی مصر سنة ۱۲۹۴ ه فی ۳۲۸ صفحة و هذه الطبعة المذکورة هی التی نقلنا منها ما ذکرناه عن الشهاب ثم طبعت مرة أخری سنة ۱۳۰۶ ه فی ۴۳۲ صفحة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۵

۲- حدیقة السحر أشار إلیه الشهاب فی الریحانة .

۳- الفصول القصار و أشار إلیه الشهاب فی الریحانة .

۴- الشهب السیارة .

۵- طراز المجالس کتاب أدب و لغة بناه علی خمسین مجلسا (أی درسا) بحث فیها کثیرا من موضوعات البلاغة و النقد و الأدب و اللغة و التفسیر و الحدیث و التاریخ و سواها و قد طبع فی القاهرة سنة ۱۲۸۴ و طبع بطنطا طبعة أخری و قد أشار إلیه الخفاجی فی الریحانة .

۶- خبایا الزوایا فیما فی الرجال من البقایا، و هو من کتب الأدب و لکنه متضمن تراجم من أهل عصره فیهم شیوخه و شیوخ ابنه و عددهم یزید علی سبعین و منه عدة نسخ خطیة بدار الکتب ؛ و هو خمسة أقسام و خاتمة: الأول فی رجال الشام و الثانی فی رجال الحجاز و الثالث فی رجال مصر و الرابع فی رجال المغرب و الخامس فی رجال الروم .

۷- شفاء الغلیل بما فی کلام العرب من الدخیل، صدره بمقدمة فی التعریب و شروطه ثم أورد الکلمات المعربة مرتبة علی حروف المعجم و بین أصلها فی لغاتها الأولی و کان یأتی بین هذه الألفاظ بکثیر من المحرف و المولد مع الإشارة الی أصلهما و الکتاب نافع عظیم الفائدة فی بابه و قد طبع الشفاء فی مصر سنة ۱۲۸۳ فی ۲۴۵ صفحة ثم طبعته دار الکتب أخیرا فی مجلد کبیر الحجم.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۶

۸- شرح درة الغواص فی أوهام الخواص و هو نقد شدید للحریری تعقبه فیه فی کل ما أورده فی «درة الغواص» ورد علیه بحجج و شواهد قویة. و قد طبع هذا الکتاب فی مطبعة الجواکب بالقسطنطینیة من مدة کبیرة .

۹- حاشیة الشهاب علی تفسیر البیضاوی سماها: «عنایة القاضی و کفایة الراضی علی تفسیر البیضاوی» طبعت فی ثمانیة أجزاء ببولاق سنة ۱۲۸۳ ه، فالجزء الأول و الثانی فی تفسیر البقرة، و الثالث و الرابع إلی آخر التوبة.

و الخامس و السادس إلی آخر الفرقان.

و السابع إلی آخر الزخرف

و الثامن هو نهایة هذا الکتاب.

و قد طبع بتصحیح الشیخ محمد الصباغ فی عهد الخدیوی إسماعیل عام ۱۲۸۳ ه و فی آخر الجزء الثامن قصیدة للسید عبد الهادی نجا تقریظا للکتاب.

و فی مقدمة الجزء الأول منه تقریظ للشیخ محمد الدمنهوری.

۱۰- و للخفاجی شرح للشفاء سماه «نسیم الریاض فی شرح شفاء القاضی عیاض» و قد طبع فی أربعة أجزاء فی القسطنطینیة سنة ۱۲۶۷

ه.

۱۱- و من مؤلفاته: کتاب الرحلة، و کتاب السوانح و کتاب حدیقة السحر، و کتاب الرسائل الأربعون، و کتاب حاشیة شرح الفرائض، و کتاب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۷

حواشی الرضی و الجامی؛ مما ذکرناه سابقا.

۱۲- و للخفاجی دیوان شعر، و له عدة مقامات و رسائل أوردها فی الریحانة و قد ذکر جورجی زیدان أن فی الخزانة التیموریة نسخة من دیوان الشهاب فی نحو ۳۰۰ صفحة بخط المؤلف علی الأرجح.

و له قصائد مختلفة فی برلین و المکتبة الخدیویة.

و له کتاب ریحانة النار أو ذوات الأمثال یتضمن کل بیت مثلا و هو فی باریس.

و قد ذکرنا أن له ابنا ترجم الشهاب لشیوخه فی کتابه خبایا الزوایا، و لیس لدی الآن شیء عن تاریخ ابنه و قد بقیت ذریة الشهاب فی شنوان حتی العصر الحدیث، فقد جاء فی الخطط التوفیقیة فی الکلام عن شنوان ما یأتی:

و من ذریة الشیخ شهاب الدین المتقدم ذکره عبد الفتاح افندی صبری (الخفاجی) تربی بالمهند سخانة الخدیویة ثم نقل من هذه المدرسة فی أواخر سنة ۱۲۶۹ إلی آلای المهندسین للحصول علی التعلیمات و الفنون الحربیة ثم ترقی إلی ملازم ثانی بآلالای المذکور ثم نقل إلی هندسة الاستحکامات بقلعة القناطر و بلغ فیها رتبة الیوزباشی و الآن- أی سنة ۱۲۹۲ ه هو رئیس هندسة القناطر الخیریة برتبة صافول أغاشی.

و والده أصله من سریاقوس و کل ما أستنتجه من هذا أن أم الشهاب کانت من شنوان و هی إحدی قری المنوفیة و أقام بأرض له بجوار

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۸

سریاقوس، و إن الشهاب کان له ذریة کبیرة بقیت إلی العصر الحدیث.

و أخیرا فإن التراث العلمی و الأدبی للشهاب الخفاجی کبیر ضخم و عظیم خالد و هو فی حاجة إلی البحث عنه و العنایة به.

رحم اللّه الخفاجی و طیب ذکراه و أکرم مثواه فلقد خدم الدین و العلم و الأدب أجل الخدمات.

نماذج من شعره:

۱- أرح طرف عین جفاها الهجوع‌فإن عناء الجفون الدموع

حسیت کؤوس الهوی سحرةو ساقی المنی لمرادی مطیع

إلی حین غابت نجوم الهدی‌فکان لها فی عذاری طلوع

تقنعت بالوصل من طیفهو کل محب لعمری قنوع

ولی عنده حاجة للهویو لیس لها غیر ذلی شفیع

رهنت فؤادی علی حبهفما باله لفؤادی یضیع

تقیل المحاسن فی ظلهو ماء الحمال علیه یشیع

۲- قلت للندمان لمامزقوا برد الدیاجی

قتلتنا الراح صرفافاقتلوها بالمزاج

۳- و من شعره:

لا و غصن راق للطرف ورقو علیه حلل الظرف ورق

و شموس لم تغب عن ناظریو الشعور الليل و الخد الشفق

و عيون حرمت نومی و ماحللت لی غير دمعی و الأرق

و له أيضا:

ما احمرار الراح الا خجلمن رضاب سكرت منه الحدق

فجعلت أيام الوصال قصيرةو لبست ليلا للهموم طويلا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۴۹

۵- و له :

سلا بانة الوادی لدی المنزل الرحبمتی فقدت غر المناقب من صحبی

فهل لی فی حماها نفحة عنبريةفقد استودعتها الريح من نفس الركب

و هل بين أطلال الرسوم و نؤيهاحمائم بان فی الربی طيرت لبی

و هل من عهود قد تقضت بقيةيوفی بها حقی و يقضی بها نحبی

سقی اللّه عهدا للأحبة صيبامن الطرف تغنيه عن الوابل السكب

و هيف غصون جادها هاطل الغنیفتنبت أوراقا من الشجر القضب

و كل خليل رقرق الود صافيافكل ملام فی محبته يصبی

أصدق فيه الظن من ضنتی بهعلی كل شیء قد عرفت سوی قلبی

و ما ذاک من سوء الفعال جبلةفكم جاء سوء الظن من شدة الحب

و بعد فشعر الخفاجی كثير و قوی الأسلوب واضح المعنی كثير ألوان الخيال ينم عن ثقافة صاحبه و عقليته و شخصيته؛ و الخفاجی و لا شک بين شعراء القرن الحادی عشر الهجری زعيم الشعر و الشعراء.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۱

الفصل الثامن الأزهر بعد الحكم العثمانی

الأزهر و الغزو الفرنسی لمصر:

بعد دخول نابليون بونابرت القاهرة جمع العلماء و طلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم، فوقع اختيارهم علی هؤلاء المشايخ العشرة: عبد اللّه الشرقاوی، خليل البكری، مصطفی الصاوی، سليمان الفيومی، محمد المهدی الكبير، موسی السرسی، مصطفی الدمنهوری، أحمد العريشی، يوسف الشبراخيتی، محمد الدواخلی، ثم اختار هؤلاء رئيسا لهم الشيخ الشرقاوی، و احتفل بونابرت بافتتاح الديوان و أكرم أعضاءه، و أمر المصورين بأخذ صورة كل منهم علی حدة. و هذه الصور ما تزال محفوظة فی معرض فرسای، و هو أول ديوان وطنی، و يعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية.

و فی ثورة القاهرة علی الفرنسيين ضرب الأزهر بالمدافع، و تتابع الرمی من القلعة و تلال البرقية حتی تزعزعت الأركان و هدمت حيطان الدور، فركب المشايخ إلی كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل و يكف عسكره عن الرمی، فعاتبهم فی التقصير فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم و رفع عنهم الرمی و قاموا من عنده ينادون بالأمان فی المسالک و الطرقات.

و بعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية و العطوف و بين الإفرنج و تراموا، و لم يزل الرمی بين الطائفتين حتی فرغ من الطائفة الأولی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۲

البارود، فأثخنهم الفرنج بالرمی المتتابع، و بعد هجعة من اللیل دخل الفرنج المدینة و مروا فی الأزقة و الشوارع و هدموا ما وجدوا من المتاریس و انتشروا فی الطرقات و تراسلوا رجالا و رکبانا. ثم دخلوا الجامع الأزهر راکبین علی خیولهم و تفرقوا بصحنه و مقصورته و ربطوا خیولهم بقبلته و عاثوا بالأروقة و کسروا القنادیل و السهارات و هشموا خزائن الطلبة و نهبوا أمتعتهم و دشتوا الکتب و المصاحف و طرحوها علی الأرض و داسوها بأرجلهم و نعالهم، و بالوا علیها و تغوطوا فیه، و جردوا کل من وجدوه به و أخرجوهم و أصبحوا مصطفین بباب الجامع، و کل من حضر للصلاة یراهم فیکر راجعا، و نهبوا بعض الدور التی بالقرب من الجامع، و خرج سکان تلک الجهة یهرعون للنجاة بأنفسهم، و انتهکت حرمة تلک البقعة بعد أن کانت أشرف البقاع، و بقی الأمر کذلک یومین قتل فیهما خلائق لا تحصی، و نهبت أموال لا تستقصی، فرکب المشایخ بإجمعهم و ذهبوا الی بیت سر عسکر الفرنساویة و طلبوا منه الأمان، فوعدهم مع التسویف، و طلب منهم بیانا بمن تسبب فی إثارة الفتنة من المعممین فغالطوه، فقال لهم علی لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد، فرجوه فی إخراج العسکر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلک و أمر بخروجهم و أسکن منهم نحو السبعین فی الخطة، ثم فحصوا عن المتهمین، فطلبوا الشیخ سلیمان الجوسقی شیخ طائفة العمیان، و الشیخ أحمد الشرقاوی، و الشیخ عبد الوهاب الشبروای، و الشیخ یوسف المصیلحی، و الشیخ إسماعیل البراوی، و حبسوهم ببیت البکری، ثم رکب الشیخ السادات و المشایخ إلی بیت سر عسکر و تشفعوا فی المسجونین، فقیل لهم: لا تستعجلوا، و بعد أیام حضر جماعة من عسکر الفرنسیین إلی بیت البکری نصف اللیل و طلبوا المشایخ المحبوسین عند سر عسکر لیتحدث معهم، فذهبوا بهم إلی بیت قائمقام بدرب الجمامیز و هناک جردوهم من ثیابهم و طلعوا بهم إلی القلعة فسجنوهم إلی الصباح، ثم أخرجوهم و قتلوهم بالبنادق و ألقوهم خلف القلعة.

و لما توجه بونابرت إلی الشام بعد استیلائه علی مصر؛ استولی علی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۳

مدینة العریش و غزة و خان یونس و ورد الخبر الی مصر، فعمل الفرنساویون حصارا و ضربوا عدة مدافع من القلعة و الأزبکیة و حضر عدة منهم راکبین الخیول و بعضهم مشاة و علی بعضهم عمائم بیض و معهم نفیر ینفخون فیه، و بیدهم بیارق کانت عند المسلمین بقلعة العریش إلی أن وصلوا إلی الجامع الأزهر و اصطفوا ببابه رجالا و رکبانا و طلبوا الشیخ الشرقاوی شیخ الجامع الأزهر، و أمروه برفع تلک البیارق علی منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بیرقین ملونین علی المنارة الکبیر ذات الهلالین و علی منارة أخری بیرقا و ضربوا عدة مدافع بهجة و سرورا، و کان ذلک لیلة عید الفطر و عند الغروب ضربوا مدافع إعلاما بالعید.

و فی افتتاح محرم سنة ۱۲۱۵ ه وقعت حادثة عجیبة و هی أن سر عسکر الفرنساویة کلیبیر کان واقفا فی بستان داره بالأزبکیة و فی صحبته أحد خواصه فدخل شخص یوهم أن له حاجة و ضربه بخنجر فشق بطنه و فر هاربا، ففتشوا علیه حتی أخرجوه من بئر فوجدوه شامیا، فسألوه فخلط فی کلامه فعاقبوه و حرقوا یدیه بالنار فقال لهم لا تظلموا أهل مصر فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت و اتفقنا علی قتل رؤسائکم فقیل له أین کنت تأوی فقال عند فلان و فلان برواق الشوام بالأزهر و لا یدرون حالی فأحضروا الشیخ الشرقاوی و العریشی و ألزموهما بإحضار الذین کان یأوی الیهم و هم أربعة ثم رکبوا إلی الأزهر و صحبتهم أغوات الانکشاریة و قبضوا علی ثلاثة و لم یجدوا الرابع ثم أخذوا المقتول و ألبسوه برنیطة، و وضعوا معه الخنجر الذی قتل به و حملوه علی عربة إلی تل العقارب حیث القلعة التی بنوها هناک و ضربوا له المدافع و احضروا القاتل و ضربوا رقاب الشوام الثلاثة المظلومین و حرقوا جثثهم و رفعوا رؤوسهم علی خوازیق ثم وضعوا قتیلهم فی تخشیبة وضعوا عندها عسکرا یتناوبون لیلا و نهارا و خلفه منو و اظهر أنه أسلم و تسمی بعبد اللّه، و حضر قائمقام و الأغا الی الازهر و شقوا فیه و فی أروقته و أرادوا نبش اماکن للتفتیش علی السلاح و اخذ المجاورون فی نقل أمتعتهم و إخلاء الأروقة و نقلوا کتب الوقف، ثم أنهم کتبوا أسماء

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۴

المجاورین فی قائمة و أمروهم أن لا- یأووا آفاقیا مطلقا و أخرجوا منه الأتراک بالکلیة، و فی الیوم نفسه توجه الشیخ الشرقاوی و المهدی و الصاوی إلی عسکر منو، و استأذنوه فی قفل الجامع و تسمیره فتکلم بعض القبط و قال هذا لا یصح فحنق علیه الشیخ الشرقاوی و قال ارترکونا یا قبط و اکفونا شر دسائسکم و قصد الشیخ منع الریبة فإنه ربما دسوا من یبیت به و احتجوا بذلک علی إنجاز أغراضهم و لا یمکن الاحتراس من ذلک لکثرة أبواب الجامع و اتساع زوایاه، فأذنوا لهم بذلک و سمروا أبوابه و کذا سمروا مدرسة محمد بک المقابلة له و أخرجوا منها الاتراک و استمرت الشدة و الازعاج إلی أن أخذ الفرنساویون فی الجلاء من الدیار المصریة .. و فی غایة محرم سنة ۱۲۱۶ ه فتح الجامع الأزهر و کذلک المدرسة و فرح الناس فرحا شدیدا و هنأ بعضهم بعضا.

و فی صفر سنة ۱۲۱۹ ه فرض علی أرباب الحرف و الصنائع خمسمائة کیس فضجوا مع ما هم فیه من وقف الحال و أصبحوا لم یفتحوا الدکاکین و حضر منهم طائفة إلی الجامع الازهر و مر الأغا و الوالی ینادون بالأمان و فتح الدکاکین، و فی ثانی یوم تجمع الکثیر من غوغاء العامة و الأطفال و معهم طبول و صعدوا إلی منارات الجامع الأزهر یصرخون و یطبلون و تحلقوا بمقصورة الجامع یدعون و یتضرعون و وصل الخبر إلی الباشا فأرسل إلی السید عمر مکرم النقیب یقول إنا رفعنا عن الفقراء فقال السید عمر إن هؤلاء الناس و أرباب الحرف کلهم فقراء و کفاهم ما هم فیه من القحط و وقف الحال فکیف تطلب منهم مغارم الجوامک، فرجع الرسول بذلک ثم عاد بفرمان یتضمن رفع الغرامة عن المذکورین و نادی المنادی بذلک فاطمأن الناس و تفرقوا إلی بیوتهم و خرج الأطفال یفرحون.

و فی صفر سنة ۱۲۲۰ ه أکلت العسکر الدلانیة الزرع و خطفوا ما صادفهم من الفلاحین و المارین و أخذوا النساء و الأولاد بلا فساد فحضر سکان مصر القدیمة نساء و رجالا إلی الجامع الأزهر یستغیثون و یخبرون أن الدلاتیة أخرجوهم من دیارهم و أخذوا أمتعتهم و نساءهم، فخاطب المشایخ

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۵

الباشا فی أمرهم فکتب للدلاتیة بترک الدور لأهلها فلم یمتثلوا فاجتمع المشایخ بالأزهر و ترکوا قراءة الدروس و خرجت الأولاد الصغار یصرخون فی الأسواق فأرسل الباشا کتخداه إلی الازهر فلم یجد به أحدا و کان المشایخ انتقلوا إلی بیوتهم، فذهب إلی بیت الشرقاوی و حضر هناک السید عمر مکرم و خلافه فکلموه و أوهموه، ثم قام و انصرف فرجمه الأولاد بالحجارة و بقی الأمر علی السکون أیاما.

لقد قاد الأزهر الحرکة الوطنیة ضد الفرنسیین و الطغاة، و کانت له زعامة الشعب، و قیادة الحرکة العقلیة و العلمیة فی البلاد.

جهاد الأزهر الوطنی فی الحملة الفرنسیة و ما بعدها:

مرت مصر خلال هذه الفترة بأحداث مثیرة استدعت بذل ضروب عالیة من التضحیة، و قد خاض الأزهر غمار هذه الحوادث، و استجاب زعماؤه لداعی الوطن، باذلین ما فی وسعهم من تضحیات فی سبیله.

فلم تکد تستقر الحملة الفرنسیة فی القطر المصری فی صفر ۱۲۱۳ ه (یولیه ۱۷۹۸) حتی نفر الشعب و زعماؤه دفاعا عن کرامة الوطن و حریته، فقامت الثورات فی جمیع أنحاء القطر، لطرد المستعمرین من البلاد.

و کانت القاهرة مرکزا لثورتین مهمتین: الأولی فی جمادی الأولی ۱۲۱۳ ه (أکتوبر ۱۷۹۸) و علی رأسها الشیخ السادات، و کان رئیسا لمجلس الثورة.

و الثانیة فی ۲۳ شوال ۱۲۱۴ ه (۲۰ مارس ۱۸۰۰) و علی رأسها زعیم العلماء فی ذلک الوقت السید عمر مکرم نقیب الأشراف. و قد استعمل الفرنسیون جمیع أنواع القسوة لکبت الشعور القومی و القضاء علی المقاومة الأهلیة، و لکنهم لم ینجحوا فی خطتهم، و انتهی الأمر بفوز المقاومة الأهلیة، و جلاء الغاصبین عن ارض الوطن.

فبعد ثورة القاهرة الأولی فی ۹ جمادی الأولی ۱۲۱۳ (۲۰ أکتوبر ۱۷۹۸)

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۶

وجه نابلیون نظره إلی الأزهر، إذ کان یعلم أنه المعسکر العام للثورة، فقبض علی زعماء الحرکة، و أصدر أمره إلی الجنرال بون قومندان القاهرة بأن یأخذهم لیلا إلی شاطیء النیل- ما بین مصر القدیمة و بولاق- حیث یعدمهم، ثم یلقی بجثثهم فی النهر. و بهذه الطریقة خفی علینا تاریخ کثیر من المجاهدین الذین استشهدوا فی هذه الثورة.

اما الذین حوکموا رسمیا من العلماء باعتبارهم من زعماء الثورة فهم:

الشیخ إسماعیل البراوی و الشیخ أحمد الشرقاوی و کانا یقومان بالتدریس فی الأزهر، و الشیخ عبد الوهاب الشبراوی و کان یقوم بقراءة کتب الحدیث کالبخاری و مسلم فی المشهد الحسینی، و الشیخ یوسف المصیلحی و کان یقوم بالتدریس فی جامع الکردی، و الشیخ سلیمان الجوسقی و کان من العلماء المشهورین بشدة السطو و البأس، و کانت محاکمتهم سریة و قد حکم علیهم بالإعدام فی یوم ۲۷ جمادی الأولی ۱۲۱۳ (۳ نوفمر ۱۷۹۸).

و فی الساعة الثامنة من صباح یوم ۲۸ جمادی الأولی (۴ نوفمبر) أخرجوا من سجنهم إلی القلعة حیث تلی علیهم الحکم، ثم أعدموا رمیا بالرصاص، و لم یعلم لهم قبر بعد مقتلهم، و یروی الجبرتی أن الفرنسیین ألقوهم من السور خلف القلعة بعد تنفیذ الحکم.

و قد نشرت صحیفة (کوریه دلیجبت) بالعدد الصادر فی ۱۰ نوفمبر سنة ۱۷۹۸ م (غرة جمادی الآخرة ۱۲۱۳ ه) نبأ إعدامهم و أضافت إلی الأسماء التی ذکرها الجبرتی اسم (السید عبد الکریم) الذی لم یوقف له علی ذکر.

و کان الشهداء من العلماء خلال هذه الثورة أکثر من هذا العدد، إذ قرر الشیخ عبد اللّه الشرقاوی فی تاریخه «تحفة الناظرین» أن الفرنسیین قتلوا ثلاثة عشر عالما و یؤید ذلک ما رواه المعلم نقولا الترک فی کتابه «ذکر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۷

تملک الفرنساویة للدیار المصریة» إذ قرر أن نابلیون أمر بإعدام اثنین من العلماء کانا من أعضاء المجلس العالی.

و علی الرغم من أن نابلیون کان یعلم تمام العلم أن الشیخ السادات کان رئیسا لمجلس الثورة إلا أنه لم یمسسه بسوء نظرا لمکانته فی نفوس المصریین المستمدة من نسبه الشریف، و قد طلب الجنرال کلیبر من نابلیون أن یقبض علیه فأجابه بأن إعدام مثل هذا الشیخ الجلیل لا یفید الفرنسیین بل یؤدی إلی عواقب و خیمة.

أما ثورة القاهرة الثانیة التی حدثت فی ۲۳ شوال سنة ۱۲۱۴ ه إلی ۲۵ ذی القعدة سنة ۱۲۱۴ ه (۲۰ مارس- ۲۱ أبریل سنة ۱۸۰۰ م)، فتتلخص أحداثها فی أن نابلیون غادر القطر المصری تارکا قیادة الحملة الفرنسیة للجنرال کلیبر الذی لم یلبث أن واجه أعنف ثورة قامت بها القاهرة، و یرجع عنف هذه الثورة إلی أن رأسها المفکر کان زعیم علماء ذلک الوقت السید عمر مکرم نقیب الأشراف، و لو لا خیانة الممالیک لکان لهذه الثورة الوطنیة الجارفة شأن آخر. أما العلماء الذین تعرضوا لانتقام الفرنسیین بعد إخمادها فهم:

الشیخ مصطفی الصاوی و قد فرضت علیه غرامة ۲۶۰ الف فرنک الشیخ محمد الجوهری و أخوه فتوح و قد فرضت علیهما غرامة قدرها ۲۶۰ الف فرنک.

و کان الشیخ السادات معروفا لدی الجنرال کلیبر بوطنیته منذ تزعم الثورة الأولی، و لکنه لم یتمکن من النیل لمعارضة نابلیون، فانتهز فرصة اشتراکه فی هذه الثورة لینکل به تنکیلا، إذ فرض علیه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنک، و سجن فی غرفة قذرة بالقلعة حیث کان ینام علی التراب و یتوسد بحجر، مع ضربه ضربا مبرحا. ثم سمح له بالنزول مخفورا إلی داره لیسعی فی سداد الغرامة المفروضة علیه، فجمع ما فی منزله من المال، و قوم الفرنسیون ما وجدوه من مصاغ و ملابس و متاع فبلغت

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۸

قیمة ذلک کله ۱۱۲ ألف فرنک، و لم یکتف الفرنسیون بذلک بل جاسوا خلال الدار و حفروا الارض بحثا عن الخبایا، حتی أعیاهم

البحث و لم يجدوا شيئا، ثم نقلوه إلى السجن و صاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح و مثلها فى الليل، وجدوا فى البحث وراء زوجته و ابنه حتى قبضوا أخيرا على تابعة محمد السندوبى الذى عذبوه حتى أقر على مكانهما، فقبضوا عليهما، و سجنوا زوجته معه، و صاروا يضربونه أمامها زيادة فى التعذيب، فشفع فيها كبار العلماء لنقلها من السجن، فأصدر الجنرال كليبر أمرا بتاريخ ۲۲ مايو بنقلها إلى منزل الشيخ سليمان الفيومى. و صودرت املاك الشيخ السادات و مرتباته و أوقاف أسلافه، و بقى معتقلا حتى أفرج عنه فى عهد قيادة الجنرال مينو فى ۲۵ صفر سنة ۱۲۱۵ (۱۹ يولية سنة ۱۸۰۰) و شرطوا عليه ألا- يجتمع بالناس، و ألا- يركب دون إذن من القيادة الفرنسية. و قد بقى رهن المراقبة فى داره حتى اعتقل للمرة الرابعة فى أواسط شوال ۱۲۱۵ (أوائل مارس سنة ۱۸۰۱) بعد وصول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى مصر، و قد اتخذ الفرنسيون هذا الإجراء خوفا من ان يثير عليهم الشيخ السادات الأهالى، و قد توفى ابنه أثناء اعتقاله فأذن له بتشييعه مخفورا، و لما انتهى ذلك أعيد إلى سجنه بالقلعة.

و يقول نابليون فى مذكراته تعليقا على اضطهاد الشيخ السادات: أن تعذيبه كان من أهم الأسباب التى أدت إلى مصرع الجنرال كليبر فى ۲ صفر ۱۲۱۶ (۱۴- يونيه سنة ۱۸۰۰).

و كان السيد عمر مكرم الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية، و اليه يرجع الفضل فى تعبئة القوات الوطنية تعبئة قلما تتوفر فى ثورة من الثورات، و لم يستطع الفرنسيون القبض عليه عقب إخماد الثورة، إذ تمكن من الفرار من القاهرة تاركا أملاكه عرضة للنهب و المصادرة، و لم يدخل القاهرة بعد ذلك حتى جلاء الفرنسيين عن عاصمة البلاد فى ربيع الأول سنة ۱۲۱۶ (يولية ۱۸۰۱).

و قد اختارت الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم و الشيخ

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۵۹

عبد اللّه الشرقاوى محمد على واليا على مصر بشرط أن يحكم بمشورة وكلاء الشعب. و لكن محمد على كان يميل إلى الحكم المطلق، و سرعان ما ضاق ذرعا برقابة وكلاء الشعب خصوصا السيد عمر مكرم زعيم العلماء، الذى أخذ يحاسب محمد على باشا على جمع الضرائب التى فرضها، و بلغ من حماسته فى الدفاع عن حقوق الشعب أن عقد مجلسا عاما من العلماء فى (أواسط جمادى الأول سنة ۱۲۲۴- أول يولية سنة ۱۸۰۹)، و قد أقسم المجتمعون على ألا- يلينوا حتى يجيب الوالى مطالبهم التى تتخلص فى عدم فرض ضرائب جديدة و إلغاء الضرائب المستحدثة، و قد ازدادت العلاقات توترا حينما رفض السيد عمر مكرم أن يوقع الميزانية السنوية. كما يريدها محمد على، و أن من المعتاد أن يوقع على الميزانية وجوه المصريين قبل إرسالها إلى السلطان العثمانى.

تنكر محمد على للسيد عمر مكرم، و أخذ يسعى فى التخلص منه، حتى سمحت له الفرصة فى رجب ۱۲۲۴ (اغسطس ۱۸۰۹)، فقرر خلعه من نقابة الأشراف و نفيه إلى دمياط، و قد تلقى السيد عمر مكرم هذا النبأ بقوله: «أما منصب النقابة فإنى راغب عنه و زاهد فيه و ليس فيه إلا التعب، و أما النفى فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة، و لكنى أريد أن أكون فى بلدة لا تدين لحكم محمد على».

مكث السيد عمر مكرم أربع سنوات فى دمياط نقل بعدها إلى طنطا التى استمر بها حتى عام ۱۲۳۳ (۱۸۱۸)، ثم أذن له بالعودة إلى القاهرة، و لكن استقبال الشعب الرائع لزعيمه أثار شكوك محمد على مرة اخرى، فأمر بنفيه الى طنطا عام ۱۳۳۷ (۱۸۲۲) حيث توفى فى نفس العام.

و قام الأزهر بتأييد القوات الوطنية فى جهادها ضد الإنجليز عام ۱۸۰۷ ه، و أفتى زعماؤه فى المؤتمر الوطنى المنعقد فى الأزهر بوجوب الجهاد الوطنى، و قام العلماء ببذل مجهود كبير فى سبيل الدفاع عن الوطن سواء بالتطوع أو إمداد الجيش بالمؤن و الذخائر أو الدعوة إلى الجهاد.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۰

عمر مكرم الأزهرى الزعيم المصرى الخالد:

و کان عمر مکرم من أرفع أسماء المصریین ذکرا فی القرن الثامن عشر، قضی حیاته فی خدمة الشعب و تحقیق أمانیه و رفع الحیف عنه و السعی إلی تحریره و إعلاء کرامته، و قد حفزته عاطفته الوطنیة المشبوبة الی منأهضة الفرنسیین توطئة لإخراجهم من مصر.

کانت بیوت البکری و السادات و مکرم هی البیوتات المعروفة فی غضون القرنین السابع عشر و الثامن عشر، فإذا ألم ظلم بأفراد الشعب من الحکام العثمانیین أو الممالیک أو رجال الحملة الفرنسیة لجأوا إلی هذه البیوت یستظلون بحماها، و یستعدون أربابها و یطلبون المشورة و دفع الحیف عنهم.

و کان أول ظهور عمر مکرم فی میدان السیاسة فی عام ۱۷۹۵ حین اضطربت الأمور فی القاهرة و فزع الناس من طغیان إبراهیم و مراد من أمراء الممالیک، فقد أبی الشعب و علی رأسه العلماء و نقیب الأشراف أن یترک الطاغیة یحکم علی هواه، و ألزموه بشروط یعدها المؤرخون و ثیقة حقوق الإنسان الأولی التی سبقت فی تاریخها إعلان حقوق الانسان فی فرنسا فی اعقاب ثورة سنة ۱۷۹۸، و فی هذه الوثیقة الاجتماعیة الکبری أعلن الأمراء الممالیک أنهم یتعهدون بالعدل، و یتوبون عن المظالم، و یعدون بالقیام بالواجبات التی یفرضها علیهم القانون و العرف: من صرف الأموال علی مستحقیها، و رفع الضرائب الإضافیة، و یتکفلون بکف أتباعهم عن امتداد أیدیهم بالأذی، و بأن یسیروا فی الحکم سیرة حسنة.

و مضت عدة أعوام حتی إذا کان یوم ۳ یولیه عام ۱۷۹۸ هبطت قوات الحملة الفرنسیة مدینة الإسکندریة تغزو البلاد، و کان شعب القاهرة فی حالة فزع و اضطراب، فهل فی وسع الممالیک أن یدافعوا و یکافحوا و یردوا الغزاة الفاتحین؟ و تمثلت هذه المحنة فی خاطر عمر مکرم بأنها امتداد للحروب الصلیبیة، و لذلک أذاع نداء علی الشعب یحثه علی الجهاد

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۱

الدینی، فخرج الرجال و الشبان و لم یبق سوی الضعفاء و الأطفال و النساء، و جاد کل منهم بما یملک من دراهم، و ابتاعوا السلاح و الذخیرة و الخیام.

و هبط مکرم من القلعة إلی ساحل بولاق یحمل علما یسمیه العامة «البیرق النبوی»، و الناس حوله ألوف مؤلفة، و فی أیدیهم السلاح الساذج من سیوف و مدی و هراوات، و معهم الطبول و الزمور، و وقفوا علی غیر نظام یشدون أزر جیش الممالیک الذی کان یقاتل علی الضفة الأخری للنیل.

کان مکرم یحسب أن الأمراء الممالیک من طراز بیبرس و قلاوون و الناصر الذین صدوا جحافل التتار و الصلیبیین، و لکن موقعة النیل بددت أحلامه، فقد هزموا فی ساعات معدودات، مما جعله یؤمن بأن ممالیک أیامه لا یحاکون فی شیء الممالیک الأول، فهم جبناء، عتاة، ظالمون.

و علی الرغم من ان مکرم لا- درایة له بفنون الحرب و لا- أسالیب القتال، إلا- أنه شهد بعینیه فرار قوات الممالیک، و زحف القوات المغیرة علی القاهرة، و احتلال أطرافها، و أبت علیه کرامته أن یقبل هذا الهوان، فخرج الی الشام و أقام فی جنوبها یرقب الأحداث التی تجری فی وطنه عن کثب، فلما کان نابلیون بونابرت فی یافا حرص علی أکرام من وجدهم من المصریین هناک .. و أکبر فی عمر مکرم عاطفته المشبوبة و رأسه المرفوع، و کرامته التی یذود عنها، فیسر له سبیل العودة إلی وطنه.

و کانت القاهرة فی غضون الفترة التی عاد فیها مکرم تغلی کالمرجل، و الثورة علی الأبواب. کانت فی حالة ثورة نفسیة کامنة، و کان تحریر الوطن من نیر الأجنبی قبلة الجمیع، فلما شرع الزعیم یدعو أفراد الشعب إلی الخروج و الجهاد و لقاء الغاصب المحتل، أقبل الناس علی تلبیة دعوته، فأقاموا المتاریس و حفروا الخنادق و تحصنوا فی الجوامع، و انشأوا معملا للبارود، و جاءوا بالصناع و العمال، و احتالوا فی صنع آلات القتال من بنادق و ذخائر، و أشرف مکرم علی جمع التبرعات لتمویل الحرکة، و أخیرا بدأ النضال عنیفا سافرا بین المحاصرین و المدافعین، و شهد الفرنسیون ببسالة المصریین و اقتحامهم المخاطر و الأهوال، و لکن المقاومة انتهت بتغلب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۲

المحتلين لتفوقهم فی معدات القتال، و فرضوا على السكان غرامة مقدارها عشرة ملايين من الفرنكات، و لجأوا الى أحط وسائل العسف و القسوة فی تحصيلها، و نقموا على زعيم الحركة، فأمروا بنفيه الى مدينة دمياط.

جلت الحملة الفرنسية و عادت مصر إلى حكم العثمانيين، و فی خلال السنوات الخمس المتعاقبة تولى الحكم خمسة من الولاة، قتل منهم اثنان و طرد الباقون بعد أن سجنوا فی القلعة .. كان آخر هؤلاء الولاة أحمد خورشيد، و كان رجلا ضيق الأفق، من بقايا الارستقراطية العثمانية، يدعی السيادة على كل شیء، و لكن دولته كانت تخذله فلا تمده بالمال و الرجال .. كان فی موقف حرج، فخزائنه خاوية من المال لدفع مرتبات الجند، و المماليك يغيرون على القرى و يتولون تحصيل الضرائب و الاستيلاء عليها، و طبقات الشعب متذمرة من الكلف الفادحة المفروضة عليهم. فاحشدت فی الأزهر جموع من التجار و الصناع و طلبة العلم و جاهروا بالتمرد و العصيان، ثم أغلقوا المتاجر و المصانع و المنازل، حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة.

و انتهز محمد على أحد قواد الفرقة الألبانية غير النظامية فرصة تذمر طبقات الشعب، فصار يتودد إلى مكرم بوصفه زعيم الشعب، و يزوره سرا فی الليل و يستميله بشتى الوعود، و يقسم له الإيمان الكاذبة بأنهم أن مكنوه من الحكم، فإنه يسير حسب نصوص الشرع، و الإقلاع عن المظالم، و لا يبرم امرا إلا بمشورة العلماء، و انه إذا خالف هذه الشروط عزلوه، و أخرجوه من الحكم.

و صدق عمر مكرم هذه الوعود، و أخذ على عاتقه إقناع العلماء بمشاركته فكرته، و أذاع نداء على الشعب بالاجتماع امام المحكمة الشرعية. فلما كان اليوم التالی خرج الأفراد و الجماعات من دورهم و مصانعهم و متاجرهم، و أقبل المزارعون من الضواحی حتى احتشدت بهم الطرق و المسالك المؤدية إلى المحكمة، و كانوا جميعا يهتفون بقولهم: «يا رب يا متجلی أهلك العثمانلی»، و هم يقصدون طبعا الوالی العثمانی، ثم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۳

أقبل السيد عمر مكرم، فاقترح المناداة بعزل خورشيد و إسناد الولاية إلى محمد على.

و كان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة و بالضرائب الفادحة التی يطلب إليها دفعها صاغرا. كان فی حاجة إلى مصافحة ای يد تمتد إليه، لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكروب و المحن، و لذلك وافق على الاقتراح الذی تقدم به السيد مكرم، لا حبا فی القائد الألبانی، و إنما كرها فی الوالی العثمانی.

و طلب العلماء و على رأسهم مكرم إلى الوالی النزول عن الحكم طوعا لإرادة الشعب، فأبى مستكبرا و أجابهم بأننی معين بأمر السلطان فلا أنزل بإرادة الفلاحين.

و استشاط العلماء غضبا من هذه الإهانة الموجهة إلى الشعب، و اتفقت كلمتهم على محاصرة الوالی فی القلعة لإرغامه على التنازل عن الحكم، و بدأ النضال سافرا، و شرع أفراد الشعب فی تكوين فرق شبه عسكرية تتولى إقامة المتاريس و حفر الخنادق و حراسة مداخل المدينة و مد المساعدة إلى الجنود و تسليح الشعب بالأسلحة البيضاء و الهراوى، و منعوا الماء و الغذاء و المدد عن الوالی فی القلعة.

و كان مكرم فی غضون فترة الحصار حركة لا تهدأ، كان يتنقل بين الصفوف، و يستثير الهمم و النخوة القومية و يشجع المحاصرين، و برزت إلى جانبه أسماء زعماء من الشعب: كابن شمعة و حجاج الخضرى الذی تمكن من أسر قافلة من الإبل محملة بالذخائر و المؤن كانت فی طريقها إلى القلعة لتموين الوالی، و قدم هذه القافلة غنيمة باردة إلى القائد المرشح للولاية.

و انتهى النزاع طوعا لإرادة الشعب، فنزل الوالی المعزول عن الحكم، و أسندت الولاية إلى الحاكم الجديد، و بذلك انتصرت إرادة الشعب.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۴

ثم وفدت بعد عامين حملة عسكرية بريطانية لاحتلال مصر و تمكنت من أن تسيطر على مدينة الاسكندرية دون مقاومة تذكر، بتأثير خيانة الضباط العثمانيين فی المدينة، ثم سارت الحملة إلى رشيد، فقاومها أهل رشيد فی بسالة و بطولة و تمكنوا من قهرها و حملت

رؤوس القتلی علی أسنة الرماح إلی القاهرة و علقت بأبوابها، و سیق الأسری من الضباط و الجنود الإنجلیز و طیف بهم فی شوارع العاصمة.

و شرع مکرم فی حفز همم سکان القاهرة لمقاومة المعتدین إذا ما حاولوا اقتحام العاصمة، فجمع الجموع و حصن المداخل و أقام المتاریس فی الشوارع، و کون فرقا نظامیة سلحها بالأسلحة الخفیفة، و کان محمد علی فی غضون ذلک فی آرباض اسیوط یقاتل الممالیک، فلما وفد علی القاهرة و أفضی إلیه مکرم بما اعتزمه الشعب من الکفاح و النضال لرد غارة المعتدین، صدمه محمد علی فی عواطفه بأن قال له: علیکم بالمال و بمعدات الحرب و علی أنا وحدی مقاتلة المغیرین.

کان الوالی الجدید لا یفتأ یلجأ الی مکرم لأنه یدرک قوة زعامته الشعبیة فی نفوس العلماء و قادة الرأی و جمیع الطبقات، و لکن لما استولی علی مقالید الأمور أخذ یقلب له ظهر المجنّ، و یقصیه عن الاشتراک فی المسائل العلیا للدولة و فی مهمة الدفاع عن الوطن.

و کان الوالی کلما أعوزته الحاجة إلی المال، مال إلی أموال الأوقاف، فاغتصب منها ما هو فی حاجة إلیه، فضج العلماء بالشکوی لأن هذه الأموال مرصودة علی تعمیر بیوت اللّه و إنفاقها فی وجوه البر، و کان ان اجتمع عمر مکرم بالمشایخ و رجال الدین، و احتجوا علی مسلک الوالی احتجاجا مرا فکان جوابه:

- أنا وحدی الذی ینتفع بالضریبة، و أما أنتم فتبهظون کاهل الأمة بأثقل الأعباء، إنکم تعقدون الاجتماعات فی المساجد، و تتکلمون عنی بلهجة تکاد تکون لهجة الآمر، و هذه نزعة باطلة لا یمکن قبولها بغیر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۵

الازدراء و الاستخفاف، و إننی علی استعداد لأن أرمی عنق کل من یستظل بلواء المعارضة فی وجه سیاستی.

و بادر مکرم بأن جمع العلماء و قال لهم:

- ان هذا الحاکم محتال و إذا تمکن فسیصعب إزالته فلنعزله من الآن.

و نمی ذلک إلی محمد علی فأسرع إلی نفی مکرم تحت الحراسة، و کان ان أجاب علی هذا الأمر بشجاعة: أن النفی غایة ما أتمناه. غیر أننی أرید العیش فی بلد لا یدین بحکم محمد علی.

و رأی مکرم بعین الحسرة أن الآمال التی کان یعلقها علی قیام دولة جدیدة یشترک فیها المصریون قد تبخرت و ذهبت فی الهواء.

و فی یوم ۱۳ أغسطس عام ۱۸۰۹ احتشدت علی ساحل بولاق طوائف مختلفة من الشعب، یودعون زعیمهم الراحل، و هو یبحر فی مرکبه الی دمیاط و انهمرت الدموع من مآقیهم و هم یودعون الرجل الذی وقف حیاته فی سبیل الدفاع عن حقوقهم ورد المظالم عنهم.

و بنفی مکرم اختفت الزعامة الشعبیة من المیدان، و خلا جو المعارضة امام الوالی الذی رفعه الشعب إلی منصة الحکم بعد أن أخذ علیه العهود و المواثیق لیحکم بالعدل و المحبة فتخلی عن هذه العهود و المواثیق.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۶

فحوک العلماء فی قرنین

و هؤلاء أعلام من فحول علماء الأزهر فی القرنین: الثانی عشر و الثالث عشر الهجری ... نذکر أسماءهم فی إیجاز: الأزهر فی ألف عام ؛ ج۱ ؛ ص۱۶۶

شیخ محمد البنانی: طلب العلم فی الأزهر. و حضر دروس الشیخ الصعیدی و الدردیر و غیرهم، حتی مهر و أنجب و درس و مات سنة ۱۱۸۶ ه عن ثلاثین سنة .

الشیخ حسن الشبینی، رحل من بلدته فوه إلی الجامع الأزهر، فطلب العلم و أخذ من الشیخ الدیربی فجعله مملیا علیه فی الدرس و توفی عام ۱۱۸۳ ه.

الفقیه الشیخ الحماقی الحفنی من کبار علماء الشافعیة. و تصدر للإقراء و التدریس بالأزهر عدة سنین. ثم تولی مشیخة إفتاء الحنفیة بعد موت الشیخ حسن المقدسی و قد توفی عام ۱۱۸۷ ه.

المحدث المقری شمس الدین محمد بن قاسم البقری شیخ القراء و الحدیث بصحن الجامع الأزهر .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۷

و الشیخ المحدث منصور بن عبد الرزاق الطوخی الشافعی إمام الجامع الأزهر

شیخ الإسلام البراوی الشافعی الأزهری. ورد الجامع الأزهر و هو صغیر، فقرأ العلم علی مشایخ عصره، و تفقه علی الشیخ مصطفی العزیزی، و حضر دروس الملوی و الجوهری و الشبراوی، و شهد له بالفضل أهل عصره و أحدقت به الطلبة، و اتسعت حلقته و قد صلی علیه فی الأزهر فی مشهد حافل و دفن عام ۱۱۸۲ ه.

الفقیه الصالح الشیخ أحمد بن أحمد السنبلاوی الشافعی الأزهری، کان عالما مواظبا علی تدریس الفقه و المعقول بالجامع الأزهر، و لازم علی قراءة ابن قاسم بالأزهر کل یوم بعد الظهر، و کان یحترف بیع الکتب- توفی سنة ۱۱۸۰ ه

الشاعر الکاتب محمد بن رضوان السیوطی الشهیر بابن الصلاحی.

الفقیه (۱۱۴۰- ۱۱۸۰ ه) المحدث شیخ الإسلام الشیخ أحمد بن الحسن الخالدی الشافعی الأزهری الشهیر بالجوهری (۱۰۹۶ ه- ۱۱۸۲ ه). و قد اشتغل بالعلم، و جد فی تحصیله حتی فاق أهل عصره، و درس بالأزهر و أفتی نحو ستین سنة، و مات فصلی علیه بالأزهر عام ۱۱۸۲ ه.

الشیخ عبد الرؤوف بن محمد البشبیشی ولد ببشبیش من أعمال المحلة الکبری، و قد تصدر لتقریر العلوم الدقیقة و النحو و المعانی و الفقه، و انتفع به غالب مدرسی الأزهر. و توفی سنة ۱۱۴۳

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۸

الشیخ أبو الحسن البکری خطیب الأزهر

شیخ مشایخ الاسلام عالم العلماء الاعلام الشیخ علی العدوی المالکی (۱۱۱۲- ۱۱۸۹ ه). و هو من بنی عدی، و من مشهوری العلماء، صلی علیه فی الأزهر بمشهد عظیم، و دفن بالبستان بالقرافة الکبری عام ۱۱۸۹ ه.

المفتی الفقیه الشیخ إبراهیم الشرقاوی. و کان لا یفارق محل درسه بالأزهر طول النهار ، و توفی عام ۱۱۸۵ ه.

الشیخ علی الشاوری المالکی مفتی فرشوط قرأ بالأزهر العلوم. و قدم الی مصر و مات بها و صلی علیه فی الأزهر عام ۱۱۸۵ ه الشیخ علی العدوی المالکی الأزهری (۱۱۰۰- ۱۱۸۵ ه) تلقی العلم فی الأزهر ثم درس بالأزهر و نفع الطلبة

الشیخ مصطفی الصاوی، و قد تعلم فی الأزهر، و لازم الشیخ البراوی و تخرج به و أقرأ الدروس، و کان شاعرا لطیفا و کاتبا مجیدا. و توفی عام ۱۲۱۶ ه .

الشیخ محمد الخالدی الشافعی (۱۱۵۱- ۱۲۱۵ ه)، و قد کان من مشهوری علماء الأزهر فی عهده .. و له کتب کثیرة، و صلی علیه بالأزهر فی مشهد حافل، رحمه اللّه

السید مصطفی الدمنهوری الشافعی من العلماء المشهورین

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۶۹

المذکورین، تفقه علی أشیاخ العصر و لازم الشیخ الشرقاوی الذی صار شیخ الأزهر، و کان یکتب علی الفتاوی علی لسان الشیخ

الشرقاوی و یتحری الصواب ... و مات فی عهد الفرنسیین مقتولا

الشیخ عبد الرحمن الأجهوری المالکی، من علماء الأزهر الشریف، درس و درّس بالأزهر مدة فی أنواع الفنون فی الدین و اللغة، و توفی سنة ۱۱۹۸ ه .

الشیخ محمد بن علی الصبان الشافعی الأزهری، صاحب المؤلفات الذائعة المشهورة التی خلدت ذکره، و توفی سنة ۱۲۰۶ ه .

الشیخ أحمد العروسی الشافعی الأزهری (۱۱۳۳- ۱۲۰۸ ه) حضر فی الأزهر علی شیوخه و علمائه .

الشیخ شهاب الدین السمنودی المحلی الشافعی، العالم الأزهری، و قد قرأ بالجامع الأزهر، و توفی عام ۱۲۰۹ ه .

الشیخ أحمد السمالیجی الشافعی المدرس بالمقام الأحمدی بطنطا .. توفی عام ۱۲۰۹ ه .

الشیخ عبد الرحمن النحراوی الأجهوری، درس بالأزهر و أفاد الطلبة و توفی عام ۱۲۱۰ ه .

و فی هذه السنة أیضا توفی الشیخ حسن الهواری المالکی شیخ رواق الصعایدة .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۰

الشیخ عثمان بن محمد الحنفی المصری الشهیر بالشامی، و توفی عام ۱۲۱۰ ه و کذلک الشیخ شمس الدین الفرغلی الشافعی و له شعر عذب.

الشیخ أحمد محمد السجاعی الأزهری قدم الأزهر صغیرا فتمهر و درس و أفتی و ألف، و ترک آثار علمیة مشهورة توفی عام ۱۱۹۰ ه .

الشیخ عطیة الأجهوری الشافعی، العالم الأزهری؛ و قد توفی عام ۱۱۹۰ ه .

الشیخ إبراهیم بن خلیل الصبحانی الغزی الحنفی العالم الأزهری، و قد ولد بغزة و ورد إلی الأزهر فتعلم فیه، ثم عاد إلی غزة و تولی فیها الإفتاء، و ارتحل إلی دمشق و تولی أمانة الفتوی. توفی عام ۱۱۹۰ ه .

الشیخ محمد العوفی المالکی کان شاعرا ماجنا، و مع ذلک کانت حلقة درسه فی الأزهر تزید علی الثلثمائة. مات سنة ۱۱۹۱ ه .

الإمام الشیخ أحمد بن عیسی الزبیری الشافعی البراوی من علماء الأزهر، ولد بمصر و بها نشأ و حضر دروس مشایخ الوقت، و لما توفی والده أجلس مکانه فی الأزهر و قد توفی بطنطا عام ۱۱۹۲ ه، و صلی علیه بالأزهر، و دفن بتربة المجاورین

الشیخ محمد العدوی من علماء الأزهر، درس فی الأزهر و درّس فیه و توفی عام ۱۱۹۳

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۱

الشیخ شهاب الدین أحمد السجاعی الشافعی الأزهری، من علماء الأزهر، ولد بمصر و نشأ بها و تصدر للتدریس فی حیاة أبیه و بعد موته فی مواضعه، و صار من أعیان العلماء. و توفی عام ۱۱۹۷ ه .

الشیخ عبد اللّه بن أحمد المعروف باللبان الشافعی الأزهری. توفی عام ۱۱۹۸ ه .

و من مشهوری العلماء الشیخ محمد بن حسن الشافعی الأحمدی الأزهری المتوفی عام ۱۱۹۹ ه .

الشیخ محمد الخشنی الشافعی و کان من خیار شیوخ الأزهر و توفی سنة ۱۲۲۱ ه.

و الشیخ سلیمان البجیرمی الشافعی من علماء الأزهر المشهورین

الشیخ أحمد البرماوی الشافعی (۱۱۳۸- ۱۲۲۲ ه) .. و کان من الشیوخ الأجلاء

الشیخ إبراهیم الحریری مفتی مذهب السادات الحنفیة کوالده، و قد توفی عام ۱۲۲۴ ه .. و توفی فی هذا العام الشیخ عبد المنعم العماوی المالکی و هو من کبار الشیوخ

الشیخ محمد أحمد بن عرفة الدسوقی المالکی الأزهری من علماء البلاغة، تصدر للإقراء و التدریس بالأزهر و إفادة الطلبة، و کان فریدا فی تسهیل المعانی و توفی عام ۱۲۳۰ ه و دفن بتربة المجاورین .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۲

الشیخ محمد الأمیر المالکی الأزهری (۱۱۵۴- ۱۲۳۲ ه) من کبار الشیوخ الأجلاء فی الأزهر

الشیخ محمد الأشمونی الشافعی (۱۲۱۸- ۱۳۲۱ ه) تعلم فی الأزهر و صار مدرسا فیه (۵۰- ۵۲ تراجم أعیان القرن الثالث عشر و أوائل الرابع عشر لأحمد تیمور ط ۱۹۴۰).

الشیخ أحمد الرفاعی المالکی، تعلم و درس فی الأزهر و حضر علیه محمد عبده و الشیخ بخیت و الشیخ أبو الفضل و سواهم، و قد رشح للمشیخة بعد استقالة الشیخ سلیم عام ۱۳۲۰ ه، و لکن لم یقدر اللّه له ذلک، و قد توفی عام ۱۳۲۵ ه (۶۴- ۶۶ المرجع).

الشیخ حسین الطویل المالکی (۱۲۵۰ ه- ۱۳۱۷ ه) من مشهوری العلماء، حضر و درس فی الأزهر، و أول درس قرأه بالأزهر عام ۱۲۸۳ ه، و تتلمذ علیه الکثیرون، و عین مفتشا ثانیا للغة العربیة بوزارة المعارف، ثم مدرسا بدار العلوم

الشیخ أحمد خطوة الحنفی (۱۲۶۸- ۱۳۲۴ ه)، من جلة العلماء، و حضر و درس فی الأزهر، و کان أکثر اشتغاله فی المعقول علی الشیخ حسن الطویل، و کان ابتداؤه للتدریس فی الأزهر سنة ۱۲۹۶ ه، و قد عین مفتیا للأوقاف، ثم نقل عضوا فی المحکمة الشرعیة العلیا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۳

الباب الثانی تاریخ الأزهر الحدیث

اشارة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۵

الفصل الأول القوّة الشعبیّة بعد الحملة الفرنسیّة ممثلة فی الأزهر

اشارة

بعد خروج الفرنسیین من مصر تنازعت الوطن أیاد قویة؛ کل ید تعمل علی الاستئثار بحکم مصر، و کان من هؤلاء الطامعین فی العرش طامح من رعایا خلافة ترکیا هو محمد علی القوللی رئیس إحدی الفرق العسکریة التی أرسلتها ترکیا إلی مصر لطرد الفرنسیین منها.

و تودد محمد علی إلی شعب مصر و الی علماء الأزهر الشریف، و دس أعوانه فی وسط الشعب لینادی به حاکما علی مصر، و استجاب علماء الأزهر لرغبة الشعب، ورأوا فی تولیة مثل محمد علی حکم مصر دفعا لأخطار الحکام الأتراک المتغطرسین، فتوجهوا و علی رأسهم شیخ الإسلام الشیخ عبد اللّه الشرقاوی شیخ الجامع الأزهر، و الشیخ محمد المهدی المفتی، و الشیخ محمد الأمیر من کبار العلماء، و الشیخ سلیمان الفیومی، و السید عمر مکرم نقیب الإشراف، و السید محمد السادات شیخ مشایخ الطرق الصوفیة، و الشیخ العریشی القاضی، و غیرهم من الشیوخ و العلماء، إلی قصر محمد علی و أفضوا إلیه برغبتهم فی المناداة به والیا علی مصر لإجماع الشعب علی ذلک، و خرج العلماء من عنده إلی الجامع الأزهر لرسم الخطة و متابعة الحوادث. غیر أن الانتظار لم یطل، فما کاد یعلن نبأ تولیة «محمد علی» ولایة «جدة» و استعداده للرحیل، حتی خرج أهل القاهرة عن حد الاحتمال فالتفوا حول شیوخ الأزهر، و طالبوا بوضع حد لسوء الحال، و انتهوا إلی المطالبة بعزل الوالی، و المناداة بمحمد علی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۶

والیا علی مصر: و کان عدد المحتشدین من الشعب فی الأزهر یربو علی الأربعین ألفا. و لم یجد العلماء إزاء هذا الموقف بدا من

تحقیق رغبة الشعب، فاتجهوا الی دار المحکمة فی بیت القاضی، و حولهم هذا البحر الزاخر من الشعب الهائج یهتف بسقوط الوالی، و فی المحکمة حضر الجمیع و اتفقوا علی کتابة عریضة بمطالب الشعب عددوا فیها المظالم التی وقعت بالناس من مصادرة الحریات و فرض الضرائب، و طالبوا برفع هذه المظالم، و کان ذلک فی یوم الأحد ۱۲ من صفر سنة ۱۲۲۰ ه (۱۲ مایو سنة ۱۸۰۵ م). و لما وصلت هذه القرارات إلی الوالی استدعی العلماء لمقابلته، و لکنهم رفضوا، لأنهم علموا أنه دبر مؤامرة لاغتیالهم فی الطریق و القضاء علی هذه الحرکة الشعبیة، فلما امتنعوا عن الذهاب رفض الوالی إجابة مطالبهم، فاجتمع و کلاء الشعب من العلماء فی یوم الاثنین ۱۳ من صفر سنة ۱۲۲۰ ه (۱۳ مایو سنة ۱۸۰۵ م) بدار المحکمة و قرروا عزل خورشید باشا و تنصیب محمد علی والیا علی مصر.

و عقب إصدار القرار فی المحکمة توجهت الجموع إلی محمد علی، و فی طلیعتهم علماء الأزهر علی رأسهم: الشیخ الشرقاوی شیخ الأزهر، و نقیب الاشراف السید عمر مکرم «و ذهبوا إلی محمد علی و قالوا له: إنا لا نرید هذا الباشا حاکما علینا و لا بد من عزله من الولایة. فقال: و من تریدونه أن یکون والیا؟ قالوا: لا نرضی الا بک، و تکون والیا علینا بشروطنا لما نتوسمه فیک من العدالة و الخیر. فامتنع أولا، ثم رضی.

و أخضروا له کرکا و علیه قفطان. و قام إلیه شیخ الاسلام الشیخ الشرقاوی و السید عمر فألبساه إیاه، و ذلک وقت العصر، و نادوا بذلک فی تلک اللیلة فی المدینة».

و فی ۱۱ من ربیع الثانی سنة ۱۲۲۰ ه (۹ من یولیه سنة ۱۸۰۵ م) وصل مرسوم الدولة، و مضمونه الخطاب لمحمد علی والی جدة سابقا و والی مصر حالا، من ابتداء ۲۰ من ربیع الأول، حیث رضی بذلک العلماء و الرعیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۷

هذه هی روایة الجبرتی و نحن لا نکاد نسلم بها، فإن محمد علی عندما علم بنبأ وصول الوحدات البحریة الترکیة بقیادة قبودان باشا یحمل أمر السلطان بعزل محمد علی و تولیة موسی باشا، سارع إلی الالتجاء إلی القلعة مستعدا للمقاومة و جمع فیها ما استطاع أن یجمعه من معدات الحرب و العمال و الاجناد، و فی هذه الأثناء علم أن محمد بک الألفی المتحصن فی البحیرة قد اتصل بالأتراک و اتفق معهم. فرأی أن المقاومة لن تجدی ما دام الشعب لا- یظاهره، و أن أعوانه فی المقاومة هم قواد الجیش الذین اجتمع بهم و شاورهم فأیدوه فی المقاومة «لأنه ما من أحد منهم إلا و صار له عدة زوجات و عدة بیوت و التزام بلاد (جمع ضرائبها) و سیادة لم یکن یتخیلها و لم تخطر بذهنه أن ینسلخ عنها و الخروج منها و لو خرجت روحه».

و وصلت الأنباء أن الألفی بعث إلی قبودان هدیة فیها ۳۰ جوادا و ۴۰۰۰ رأس من الغنم و البقر و الجاموس و مائة جمل بالذخیرة و نقود و ثیاب و أقمشة.

و هنا التجأ محمد علی إلی زعیم مصر الکبیر السید عمر مکرم نقیب الأشراف و بعض الأعیان، و عرض علیهم الموقف و ما فعله الأمراء و الممالیک و اتفاقهم مع السلطان، و طلب منهم دراسة الموقف فترکوه و انصرفوا.

حدث هذا فی یوم الجمعة و لو أن الشعب المصری کان متعلقا بمحمد علی لا یرضی عنه بدیلا، کما صوره المؤرخون، لما استدعی بحث الموقف طویلا- بل کان الرد أن الشعب سیقف بجانب محمد علی فی موقفه و مقاومته و لا یحتاج إلی تفکیر. و لکن الذی حدث فعلا أن البحث و الدرس و تقلیب الموقف استمر بین الزعماء المصریین أیاما.

فمضی السبت و الأحد و الاثنین و الثلاثاء و الأربعاء دون أن یتلقی محمد علی ردا، و هنا قرر محمد علی اتخاذ إجراء حاسم.

بعث باثنین من رجاله هما مدیر مکتبه و رئیس التراجمة، و قد فاجئا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۸

السید عمر مکرم فی داره صباح الخمیس، و قدما إلیه صورة التماس کتبه دیوان محمد علی، علی لسان المشایخ الی الباب العالی لتثبیت محمد علی لولایة مصر.

و لو أن المصريين كانوا متمسكين بمحمد على لوقع الزعماء- الذين دعاهم السيد عمر النقيب إلى داره لبحث هذا التطور الجديد فى الموقف- الالتماس دون مناقشة، و لكن الذى حدث هذه المرة أيضا أن الاجتماع استمر اليوم كله.

و فى اليوم التالى، السبت، حمل هذا الالتماس إلى الشيخ عبد اللّه الشرقاوى و معه أمر بتنظيم «العرضحال» و ترصيعه «و توقيعه» بتوقيعات المشايخ و بصمه بأختامهم ليرسله الباشا إلى الدولة، فلم تسعهم المخالفة» ... و قد تم هذا فعلا.

و هذا الالتماس رغم طوله لم يخرج عن كونه مدحا للسلطان، ثم تحقير أعمال الأمراء المماليك، ثم رفع شأن محمد على و تبرير لبعض تصرفاته التى أنكرها عليه السلطان و ينتهى بطلب إبقائه واليا.

و سارع محمد على، بطبيعة الحال، بإرسال العريضة إلى تركيا، و لكن حدث مساء الاثنين أن وصل إلى القاهرة رسول من قبودان باشا ليبلغ المسؤولين عن الشعب و هم الشيخ السادات و السيد عمر مكرم و الأئمة قرار السلطان بعزل محمد على. و لما كان الأمر قد خرج من أيدى هؤلاء الزعماء بعد توقيع الالتماس، فقد ذهبوا إلى محمد على يعرضون الأمر فأمرهم بالعودة إلى منازلهم على أن يرسل إليهم فى اليوم الثانى صورة التماس جديد ينسخونه و يوقعونه.

و فى هذا العرضحال يبدى الزعماء خضوعهم و امتثال لقرار السلطان و لكنهم يبدون تخوفهم من الجند ألا يمتثلوا للأوامر بسبب رواتبهم. و كان محمد على قد احتاط بتدبير هذه المؤامرة بالاتفاق مع قواد الجند الذين يهمهم البقاء فى مصر.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۷۹

و انتهز محمد على الفرصة و ماطل فى تنفيذ أمر السلطان، و هنا وجد قبودان باشا مركزه حرجا، و أن الاعتماد على الأمراء المماليك لا خير فيه و سيؤدى إلى ضياع هيبته، فقر رأيه أن يتصل بمحمد على الذى انتهز الفرصة فعرض العروض الباذخة و تعهد ان يؤدى ضعف ما تعهد الأمراء بتأديته لقبودان: بعضه معجل و الآخر مؤجل.

و اتفق قبودان مع محمد على أن يعود الى استكتاب الزعماء كتابا آخر يرسله إليه مع ولده شخصيا. على أن يتضمن أن محمد على حامى الإقليم و حافظ ثغوره و مؤمن سبله و قامع المعتدين و أن الكلية من الخاصة و العامة راضية بولايته و أحكامه و عدله، و أن الشريعة مقامة فى أيامه و لا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم .. الخ الفضائل و الصفات التى اتفق قبودان باشا مع محمد على، على نسبتها إلى مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ مصر!! ..

و قد انتهت هذه المساعى كلها بإلغاء أمر النقل و تثبيت محمد على على ولاية مصر.

و هذه هى حقيقة مطالبة المصريين بولاية محمد على عندما عزله السلطان، فى المرة الثانية .. و هذا هو موقف الزعماء المصريين، الذين لم يطالبوا بتثبيت محمد على إلا بحد السيف الذى سلطه عليهم.

و لكن ماذا فعل محمد على و أولاده بهذه الثقة الغالية؟ لقد قرر محمد على منذ اللحظة الاولى أن يستبد بالأمر، و يبعد الشعب و زعيمه عن الميدان ..

و أخذته الغيرة من زعيم المصريين عمر مكرم، و أنكر منه أن يتحدث اليه عن آلام الشعب مما فرضه عليهم من الضرائب بسبب الاستعداد للحملة الوهابية .. ثم أراد أن يأخذ إمضاء السيد عمر على حساب غير مضبوط أعده ليرسله إلى الدولة .. فأبى السيد عمر مكرم ذلك قائلا:

ان الضرائب المعتادة كانت تكفى لكل ما قام به الباشا من الأعمال

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۰

العامة ... و إنى لا أستطيع أن أشهد بغير ما أعتقد أنه حق ...

فقرر محمد على التخلص من عمر مكرم .. و أراد أن يحتال عليه، و طلب إليه أن يذهب لمقابلته فى الديوان، فأجاب السيد عمر مكرم قائلا:

إن الباشا إذا أراد مقابلتی، فلینزل من القلعة لمقابلتی فی بیت السادات، لتکون المقابلة علی سواء.

و کان محمد علی یجمع من الضرائب أکثر مما ینفق .. و یحتجز الأموال لنفسه، فاحتج عمر مکرم، و قال کلاما کثیرا جاء فیه:

أما ما صرفه الباشا فی سد الترعة فإن الذی جمعه و جباه من البلاد یزید علی ما صرفه أضعافا کثیرة، و أما غیر ذلک، فکله کذب لا أصل له، و إن وجد من یحاسبه علی ما أخذه من القطر المصری من الفرض و المظالم لما وسعته المظالم ..

فقرر محمد علی نفیه من القاهرة، فابتسم الشیخ عمر مکرم و قال:

أما منصب النقابة فإنی راغب عنه و زاهد فیه، و لیس فیه إلا التعب:

و أما النفی فهو غایة مطلوبی، و أرتاح من هذه الورطة، و لکن أرید ان أکون فی بلد لم تکن تحت حکمه، فإذا لم بآذن لی فی الذهاب إلی أسیوط، فلیأذن لی فی الذهاب إلی الطور أو إلی درنة.

فأخبروا الباشا بذلک، فلم یرض إلا بذهابه إلی دمیاط.

و خرج عمر مکرم زعیم الشعب إلی منفاه فی ۱۳ اغسطس ۱۸۰۹.

و هکذا أخرج محمد علی الشعب المصری من المیدان، و قرر أن یستبد بأمر مصر وحده.

و هکذا أنکر فضل هذا الشعب علیه، و أخذ طریق المستبدین، و خلفه أبناؤه فساروا فی طریقه، و وضعوا أیدیهم فی ید أعداء البلاد .. و زاد أمرهم سوءا، و أحاطت بهم الأزمات ..

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۱

و تقدم شعب مصر لیعینهم، فمکروا به، و سخروا منه، إلی أن حدث ما لم یکن لهم فی حسبان

الأزهر یسیر فی حیاته العلمیة:

و قد سار الأزهر فی حیاته العلمیة یائسا من الحکام و الولاة، و اهتم علماؤه بإصلاحه و صدر أول قانون لذلک فی سنة ۱۲۸۸ ه (۱۸۷۲ م) و قد نظم هذا القانون طریقة نیل الشهادة العالمیة و بین مواد امتحانها و قسم الناجحین فیها إلی ثلاث درجات: (أولی، ثانیة، ثالثة) علی أن تصدر بذاک براءة ملکیة بتوقیع ولی الأمر: و عنی الغیورون بالأزهر، و حرصوا علی أن ینهض. و قد کان لهذا التنظیم الذی بدیء فی عهد إسماعیل أثره فی حفز الهمم علی الإصلاح، فتوالت القوانین المنظمة للأزهر، و کان أهمها القانون رقم ۱۰ لسنة ۱۹۱۱، إذ قسم الدراسة بالأزهر إلی مراحل، و جعل لکل مرحلة نظاما و موادا للدراسة، و حدد اختصاص شیخ الجامع الأزهر، و أنشأ هیئة تشرف علی الأزهر تسمی المجلس الأعلی للأزهر، و أوجد هیئة کبار العلماء و جعل لها نظاما خاصا، و جعل لکل مذهب من المذاهب الأربعة التی تدرس فی الأزهر شیخا، و نظم مجالس إدارات المعاهد، و وضع نظاما للمدرسین و الموظفین فی التعیین و الترقیة، و وضع للطلاب شروطا للقبول، و نظم الامتحانات و الشهادات.

و حدث فی هذا العهد عدة أحداث: منها أن بعض الشوام و الصعایدة تزاحموا فی الجلوس فی الدرس و تضاربوا فجاء جملة من الشوام بالعصی و ساقوا الصعایدة سوقا عنیفا إلی رواق الصعایدة، فحضرت طائفة من الصعایدة بعصیهم و وقعوا بالشوام ضربا و هموا وراءهم بقوة شدیدة حتی ادخلوهم رواق الشوام و حاصروهم به، و لم یسع الشوام إلا قفل باب الرواق، بل تسور لهم بعض الصعایدة من فوق السطح، و استمروا کذلک، حتی ذهب الشیخ محمد الرافعی إلی بعض الأعیان من تجار الشوام و أخبرهم، و ذهبوا جمیعا إلی خیر الدین باشا ضابط مصر، فأرسل جملة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۲

من عساکر الأرنؤود و خلافهم فدخلوا الأزهر بصورة شنیعة و تطاولوا علی کل صعیدی بلا تحقیق فأخذ الصعایدة فی الذب عن أنفسهم حتی أخرجوا العساکر من الأزهر و لم یلبثوا أن جاءت عساکر جهادیة و أتراک بکثرة من طرف الضابط لما بلغه من التهویل

فدخلوا الأزهر بأسلحتهم و نفيرهم و طبلهم لابسين أحذيتهم فقبضوا من الصعايدة على نحو ثلاثين و سجنوهم بالمحافظة، ثم أخذوا ثلاثة من مشايخهم و عوقوهم هناك قليلا و بعد مدة أطلقوهم، و بقى المجاورون فى السجن و كان إذ ذاك سعيد باشا فى الأرض الحجازية فسعى بعض المشايخ عند وكلائه فى الإفراج عنهم فأفرج عنهم بعد نحو عشرين يوما و حصل الكلام فى طريقة يسير عليها الأزهر حيث أن شيخه أقعده الكبر، و اجتمع الرأى على توكيل أربعة من العلماء، و صدر الأمر بذلك، و كان فى مشيخته الشيخ الباجورى

حادثة الشوام:

و قد حدثت هذه الحادثة المفجعة فى ۱۹ من ذى الحجة سنة ۱۳۱۳ بالأزهر الشريف فى مشيخة شيخ الأزهر حسونة النواوى بسبب وباء ذلك العام و تفصيلها أنه مرض برواق الشوام مجاور بالطاعون، و حضرت الحكومة لنقله بالعربة السوداء للمستشفى و كان من أخذ بها لا يرجى له أن يشم هواء الدنيا، فأبت رفقته من طلبة الأزهر تسليمه حيث كان قد أخذ آخر و لم يوقف له على أثر، فاشتد الجدال بين الفريقين و أبلغ الأطباء الحكومة أنهم أهينوا، فحضر إلى الجامع الأزهر المحافظ و معه وكيل الحكمدارية و شرذمة من العساكر فخيل للمجاورين الشوام أنهم مأخوذون لا محالة، فتطاولوا على المحافظ و رجموه و من معه ببعض الحجارة، فأصاب وكيل الحكمدارية رمية فجرح و كانت الشوام أغلقت باب الشوام، فطلب قوة عسكرية أخرى فحضرت و عملوا حصارا على الجامع الأزهر و امر الحكمدار العساكر بكسر الباب و إطلاق الرصاص على الطلبة داخل الجامع فانقضوا عليه حتى خلعوا عقب إحدى أبوابه، ثم بدأ الحكمدار يطلق بندقيته و اتبعته العساكر بإطلاق الرصاص، فتفرق الطلبة فى جميع

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۳

نواحى الجامع ثم دخل الضباط و العساكر و اشتغلوا بضبط من بالأزهر مع الإهانة من غير تمييز بين طالب و عالم، فقبضوا على ۸۲ من الشوام و ۲۳ من المصريين و فيهم بعض المدرسين و أصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم فى الحال و بعضهم بعد ذلك ثم أفرج عن المقبوضين و انحصرت التهمة فى ۱۴ تقريبا من الشوام و نفى البعض و سجن البعض، و أقفل رواق الشوام سنة كاملة، و استاء لذلك الخديوى و شيخ الأزهر و انصدعت لذلك قلوب الشعوب الإسلامية.

جهاد الأزهر فى الثورة العرابية:

قام الأزهر بنصيب كبير فى إذكاء الحماسة و نشر التعليم و إعداد النفوس لتلبية نداء الحرية، فقد قام رجاله و على رأسهم الشيخ عبد اللّه الشرقاوى منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب و إلزام الوالى باحترام هذه الحقوق، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا اللأزهر صفحات خالدة فى تاريخنا مثل رفاعة رافع و السيد عبد اللّه النديم و الشيخ محمد عبده.

فالأول كان زعيما لنهضة العلم و الأدب فى عصره، و من أهم أعماله تأسيس مدرسة الألسن التى خرجت نخبة من العلماء و الأدباء و الشعراء، كما قام بترجمة الدستور الفرنسى، و علق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه و مبادئه، و ميل فطرى إلى النظم الحرة، و ترجم القانون المدنى الفرنسى و نشر رحلته فى فرنسا و سماها «تخليص الإبريز»، و لم يقتصر نشاطه على التأليف و الترجمة و التدريس، بل خدم الأدب، و له قصائد شعرية تدل على وطنية صادقة و تفان فى محبة الوطن، و بلغ من حماسته أنه عرب نشيد المارسليز الفرنسى الذى يعتبر من أجمل الأناشيد الحماسية القومية، حتى لا يحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۴

و أما السيد عبد اللّه النديم، فقد حاول أن ينفث فى الأمة الحماسة كى يستيقظ الشعب من غفوته، و نادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليما نافعا، و فى سبيل تحقيق أغراضه أسس «الجمعية الخيرية الإسلامية» و نحانحوا جديدا لنشر أفكاره، فألف مسرحيتين إحداهما

(الوطن و طالع التوفيق) و الأخرى (العرب)، مثلهما هو و تلاميذه على مسرح زيزينيا بالإسكندرية. و قد بين فى مسرحيته الأولى جميع الأمراض و العلل التى تهدد الأمة فى وجودها.

و بينما كان صوت النديم يجلجل بالإصلاح و يمهد للثورة فى نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى فى دروسه، و يعالج الشئون العامة للبلاد فى صحيفتى الأهرام و الوقائع الرسمية.

و رأس الثورة المفكر أحمد عرابى (باشا) تلقى علومه فى الأزهر مدة أربع سنوات، و كان لهذه المدة على ضآلتها أثر كبير فى تكوين شخصية عرابى كزعيم ثورى، إذ جعلت منه خطيبا مفوها يستولى على عقول سامعيه و يهز مشاعرهم ... و وسط هذا النضوج الذهنى اندلع لهيب الثورة.

و فى ۲۵ مايو عام ۱۸۸۲ قدمت كل من انجلترا و فرنسا مذكرة يطلبان فيها إبعاد عرابى (باشا) و إرسال كل من: على (باشا) فهمى و عبد العال (باشا) حلمى إلى أية جهة داخل القطر المصرى، و استقالة وزارة البارودى، فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين، و اجتمع أحمد عرابى و محمود سامى البارودى و كبار الضباط فى قشلاق عابدين و اتفقوا فيما بينهم على ان يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد، و ارسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم، و تلاها عليهم، فرددوها فى صوت واحد.

و استقالت وزارة البارودى يوم ۲۶ مايو عام ۱۸۸۲، و أراد الخديوى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۵

توفيق أن يبث التفرقة فى صفوف الزعماء، فعقد اجتماعا يوم ۲۷ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع الأزهر و الشيخ محمد عليش و الشيخ حسن العدوى و الشيخ أبو العلا الخلفاوى و حضره شريف باشا و كبار النواب و الضباط و عرض الخديو على المجتمعين تشكيل وزارة برياسته، و قبول المذكرة الإنجليزية الفرنسية. فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلا «إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهانى و للجناب الخديوى. و لكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها، و لا حق للدولتين فى طلب تنفيذها، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها و يستحيل علينا قبول أحد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى»، و وافق على قوله الشيخ عليش و العلماء جميعا. ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان و تبعه الضباط و العلماء.

و بعد ضرب الإسكندرية فى ۱۱ يولية عام ۱۸۸۲ هب عرابى باشا للدفاع عن البلاد، فأصدر الخديو أمر بعزله فى ۱۰ يولية، و بناء على ذلك اجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ۲۲ يولية سنة ۱۸۸۲ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذى أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الإنجليز. و تلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامر الخديو التى تثبت إدانته و منشورات عرابى باشا التى تدعو إلى الدفاع عن الوطن. ثم ألقى على باشا الروبى خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى إزاء قضية البلاد، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده، فأصدر المؤتمر الوطنى قراره التاريخى بعزل الخديو و وقف أوامره و تكليف عرابى بالدفاع عن البلاد، و تكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان، و وقع الحاضرون على ما قرره المؤتمر الوطنى و كان من بين العلماء الموقعين على ذلك: الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع الأزهر، الشيخ حسن العدوى، الشيخ عبد اللّه الدرسناوى مفتى الحنفية، الشيخ محمد عليش مفتى المالكية، الشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة، مفتى الأوقاف؛ الشيخ عبد الهادى الإبيارى، الشيخ محمد

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۶

الأشمونى الشيخ خليل العزازى، الشيخ مسعود النابلسى، الشيخ محمد القلماوى، الشيخ زين المرصفى، الشيخ حسين المرصفى، الشيخ سليم عمر القلعاوى، الشيخ عثمان مدوخ، الشيخ عبد الرحمن السويسى، و من رجال القضاء الشرعى: الشيخ أبو العلا الخلفاوى الشيخ عبد القادر الرافعى، الشيخ عبد القادر الدليشانى، الشيخ أحمد الخشاب.

الأزهر يغذى ثورة عرابى:

و لقد كان البارودی و محمد عبده و سعد زغلول و محمد نديم قادة التفكير و القلم فی هذه الثورة، و استأنفت الحركة الفكرية سيرها الـذی قطعته الحوادث، و بدت طلائع نهضة جديدة فی الآداب العربية، و ظهر فی الإنتاج الأدبی يومئذ عنصر قوی من الأدب المبتكر، و أخـذت فی نفس الوقت عناصـر الثقافـة الجديـدة تحـدث أثرها فی إنتاج الجيل الجديد. و يعود الفضل فی ذلك كله إلی الأزهر، و ظهرت طائفة من المؤلفات و الكتابات القومية التی تحررت من اغلال القديم سواء فی اللفظ أو المعنی، و حملت هذه الروح الجديدة فی طريقها كل شیء، و غدت أقوی دعامة فی صرح النهضة.

قويت الحاجـة الی الصـحافة و ظهر عبد اللّه نديم بحريدته «التنكيت و التبكيت»، إلا ان النديم ابدل الاسم فی آخر لحظة باسم الطائف تيمنـا بـاسم مدينـة الطـائف فی الحجـاز، و بالنسـبة إلی انهـا تطوف بأرجاء الـدنيا، كما كانت «الجواكب» التی يصـدرها أحمـد فارس الشـدياق باسـتامبول تجوب أرجاء العالم. و اتخذ رجال الثورة «الطائف» لسان حالهم، فكانت تذيع المنشورات و الأوامر و تحض علی الجهاد، و كانت تطبع من داخل معسكر كفر الدوار.

و الی جانب الطائف صدرت عدة صحف للثورة منها: المفيد للسيد أمين الشمسی و الزمان، و الاعتدال و غيرها

و قام الشعراء فی القاهرة و فی الإسكندرية يلقون الأشعار الحماسية

الأزهر فی ألف عام، ج ۱، ص: ۱۸۷

و القصائد الوطنية، فمن ذلك ما نظمه أحد علماء الأزهر من قصيدة مطولة له يقول فيها:

لعمرك ليس ذا وقت التصابیو لا وقت السماع علی الشراب

و لا وقت الجلوس علی القهاویو لا وقت التغافل و التغابی

و لا وقت التشبب فی سليمیو لا وقت التشاغل بالرباب

و لكن ذا زمان الجد وافیو ذا وقت الفتوة و الشباب

و وقت فيه الاستعداد فرضإقامة بالقلاع و بالطوابی

و وقت فيه الاستعداد فرضلتنفيذ الأوامر من عرابی

و قولوا يا عرابی دم رئيسالحزب النصر محفوظ الجناب

و من قصيدة أخری لشاعر آخر جاء فيها:

نوال المعالی طعان الكتائبو نيل الأمانی من ثمار المتاعب

و ظهر الأعادی بالتدبر أولاو بعد بإشهار السيوف القواضب

و من كعرابی فی البرايا و حزبهأولی العزم أصحاب القنا و القواضب

و قام الخطباء يحضون الشـعب علی مقاومـة أعـداء الدسـتور، و الأخـذ بناصـر زعماء الثورة، و كان عبد اللّه نديم خطيب الثورة لا يفتأ يخطب فی كل ناد و مجتمع و مسجد، فمن ذلك خطبته التی خاطب بها جنود الجيش:

حماة البلاد و فرسانها. من قرأ التاريخ، و علم ما توالی علی مصـر من الحوادث و النوازل، عرف مقدار ما وصـلتم إليه من الشرف، و ما كتب لكم فی صـفحات التاريـخ من الحسـنات، فقـد ارتقيتم ذروة مـا سـبقكم اليهـا سـابق، و لاـ يلحقكم فی إدراكها لا حق ألا و هی حمايـة البلاد و حفظ العباد و كف يـد الاسـتبداد عنهما، فلكم الـذكر الجميل و المجـد المخلد يباهی بكم الحاضـر من أهلنا، و يفاخر بأثركم الآتی من أبنائنا فقـد حبا اللّه الوطن بحياة طيبـة بعد أن بلغت الروح التراقی، فإن الأمة جسد و الجند روح، و لا حياة للجسم بلا روح، و هذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم و يناجيكم.

و كانت خطبة الجمعة فی المساجد تحض علی الجهاد، فمن ذلك

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۸

خطبة الشیخ علی المليجی فی مسجد أسيوط حيث كان يحض المصلين على الغزو و الجهاد و التطوع فی سبيل نصرة الجيش، إذ قال: إن الانجليز قد طاشت عقولهم، و عميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات، فساموا بسوق أموالنا و ديارنا نفيسها، و ساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها. و قابلوا عيشنا بخداع، و فتشوا أكتافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، و نحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان. و فينا لهم بعقد الذمة و الأمان. فعاملناهم بالحسنى، و جبرنا ما كان منهم ضعفا و وهنا، فلما صحت أبدانهم، و عمرت أوطانهم، لم يقنعوا، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا و لا اضطراب.

و هكذا خاتمة أهل السوء و الفحشاء.

و قد بذل العلماء جهودا كبيرة، فی سبيل الدفاع القومی، فدعوا إلى التطوع فی صفوف الجيش المصری و إمداده بالمؤن و التبرعات. و كان من أبرزهم الشيخ محمد عبده، و الشيخ حسن العدوی، و السيد عبد اللّه النديم الذی كان لسان الثورة الناطق و الذی كان يستدعی للخطابة بالبرق، حتى لقب بخطيب الثورة، بل (خطيب الشرق).

و بعد انتهاء الثورة العرابية قبض على زعمائها و على المشتركين فيها و قدموا للمحاكمة و هذا بيان بالعلماء الذين قبض عليهم و الأحكام التی صدرت ضدهم، و أمام كل منهم اسم البلد التی اختارها لمنفاه :

الشيخ عبد الرحمن عليش، و قد نفی خمس سنوات خارج القطر المصری بالآستانة.

الشيخ عبد القادر قاضی مديرية القليوبية، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری ببيروت.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۸۹

الشيخ محمد الهجرسی، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری بمكة المكرمة.

الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتی، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری ببيروت.

الشيخ محمد عبد الجواد القاياتی، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری ببيروت.

الشيخ يوسف شرابة، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری بغزة.

الشيخ محمد عبده، و قد نفی أربع سنوات خارج القطر المصری ببيروت.

هذا مع تجريدهم من الرتب و الاميتازات و المناصب و علامات الشرف.

و حكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم و علامات شرفهم و امتيازاتهم:

الشيخ حسن العدوی و ابنه الشيخ أحمد العدوی- الشيخ أحمد المنصوری- الشيخ محمد السملوطی- الشيخ أحمد البصری- الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوی العضو الأول بالمحكمة الشرعية- الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضی إسنا سابقا- الشيخ محمد أبو عائشة قاضی بور سعيد سابقا- الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط- الشيخ أحمد عبد الغنی- الشيخ محمد عسكر- الشيخ أحمد مروان- الشيخ محمد جبر قاضی المنصورة سابقا- الشيخ عبد البر الرملی قاضی العريش سابقا- الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقا- الشيخ محمد غزالی قاضی مركز البحيرة.

و قد استدعی الشيخ حسن العدوی من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء (۱۴ محرم سنة ۱۳۰۰- ۵ ديسمبر سنة ۱۸۸۲)، فنطق بالحق غير هياب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۰

و لا- وجل، و لا- مكترث بالحكم الذی سيصدر عليه، و نقتبس هنا طرفا من محاكمته: سئل رحمه اللّه تعالى: هل ختم على عزل الخديوی و إسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى عرابی باشا برغبته و رضاه، أم لسبب آخر؟. فأجاب «ختمت تابعا للعلماء الذين ختموا قبلی مثل شيخ الإسلام و مفتی الجامع الأزهر و شيخ الجامع و غيرهم، و كان ختمی برغبتی و رضائی للمدافعة الواجبة شرعا و سياسة، و ما

کان ینبغی لأحـد أن یمتنع عن الختم. و لما سـئل: هل علم المجلس أنک أفتیت بعزل الجناب الخـدیو فهل هـذا حقیقة أم لا؟ أجاب: بأنه:

لم تصـدر منی فتوی فی ذلک، و لم أسأل فی هـذه المادة. و مع ذلک فإن جئتمونی الآن بمنشور فیه هذه الفتوی فإنی أوقعه، و ما فی وسعکم و أنتم مسلمون أن تنکروا أن الخدیو توفیق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدین و الوطن.

و قد وقفنا علی قصیدة لحضرة الفاضل الشیخ محمد النجار جمعت ما جمعت من وصف الحال فی الثورة العرابیة، و الدعاء لاستنهاض الهمم و استثارة الحمیة، و جاء فیها:

بالنصر قد جاء الکتاب مشیراو به أتی هادی الأنام بشیرا

یا أحمد المرجو لمصر و من غدافینا أمینا للجیوش أمیرا

بشراک بالنصر المبین فثق بهو کفی بربک هادیا و نصیرا

فازحف بجیشک یا مظفر ضاربافی الإنجلیز و قاتلن سیمورا

و اقطع بسیفک أمة قد أمرواأنثی علیهم إذ عدمن ذکورا

قوم تربوا فی الثلوج فطبعهمیهوی البرود و لا یطیق حرورا

یا یوم قد خرجوا و جر و بورهمرمما و جرحاهم تمج بحورا

رجعوا و یوم السبت مبغوض لهمإذ لم یروا فی یوم سبت نورا

قد أحرقوا قتلاهم من ظلمهمحتی لقد ظلموا بذاک سعیرا

ضربوا مدافع حزنهم أسفا علیمن مات منهم خاسئا و حسیرا

ندبوا رؤوسهم و قد هلکوا و مابالبحر إلا من رأیت صغیرا

کتبوا لسیدة لهم أن جهزیغنما لعید المسلمین کثیرا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۱ و تغیبوا عنا زمانا و انثنوامثل الفراش فدمروا تدمیرا

یا إنجلیز و من ینادی میتایخطی و کیف أخاطب المقبورا

بالثغر جئتم بغتة و ضربتمومن غیر وعد أولا و أخیرا

و اسکندریة قد ضربتم دورهاما الحرب ضربکم البنا و الدورا

ما عندنا إلا رجال ذکرهمیسمو علی مر الزمان دهورا

ما عندنا الا أسود عساکروقفت لتنحر بالسیوف نحورا

أنسیتمو أرضا حبتکم ثروهو سکنتموها جنة و قصورا؟

و رأیتم فیها رجالا أمرهمفی حفظهم لکم غدا مشهورا

أنسیتم أرضا دخلتم روضهاو جنیتم ثمرا به و زهورا؟

ذوقوا رصاصا من بنادق هیئةلکم لتشرح فی الصدور صدورا

و خذوا مدافع بالقنابل أرسلتلکم لتأخذ جسمکم و تطیرا

هذا جزاؤکم علی کفرانکمنعما، و لا یرضی الإله کفورا

نحن الألی کنا نیاما حیث لاعدل و کان أمیرنا مأمورا

نمنا کأهل الکهف دهرا لیتناقد کان حافظ أمرنا قطمیرا

نحن الألی کنا ضعافا حیث لاشرع و کان کتابنا مهجورا

حتی فقدنا قوة العرب الألی‌فتحوا البلاد و أحسنوا التدبیرا

و الیوم نبهنا الزمان و جاءناحامی حمی القطر السعید مجیرا

یا طالما کذبت جرائدکم علی‌أولاد مصر و اقترفتم زورا

و بعثتم أولادکم و نساءکم‌و سقیتم أهل الفساد خمورا

کنا ضعافا حیث لا حریةفینا و لم نعرف لذاک غیورا

و الیوم قام لأحمد الجیش الذی‌وافی و أصبح جیشه منصورا

و أتته من أهل البلاد إعانةو عساکر ضربوا لذاک نفیرا

عرب التقی أهل التقی من خیلهم‌سبقت لتنزل فی العدو صقورا

و عساکر هجموا أسود فی الوغی‌ولدی اصطفاف الصف صاروا سورا

و رجال دین حیث قد خافوا علی‌ذریة من بعدهم تکفیرا

خافوا علی أعراضهم من أمةخانت و کم فضحت و فضت حورا

خافوا علی أوطانهم و بلادهم‌خافوا علی جعل الغنی فقیرا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۲ خافوا علی جعل المساجد مربطاللخیل أو جعل الرجال حمیرا

خافوا علی الکتب التی قد دونتو لکم حوت علما یزیدک نورا

خافوا علی آل الرسول و بیتهو اللّه فضلهم علیک کثیرا

خافوا علی الدین القویم و أهلهمن أشبهوا فی الاهتداء بدورا

خافوا علی مفتاح بیت اللّهو البقع التی قد طهرت تطهیرا

خافوا علی ترک الفروض و قطعناجهر الأذان و هجرنا التکبیرا

یا مسلمون استبشروا فعدوکم‌ولی، و أصبح جیشه مکسورا

و لسوف یغلو قدرکم و مقامکم‌یعلو و امرکم یکون شهیرا

یا أیها الشجعان هذا و قتکم‌فأروا العدا عزما لکم مشهورا

ان الحیاة مع المذلة موتةو بها نری عذب المذاق مریرا

کونوا کما انتم علیه و جاهدواحق الجهاد و حاذروا التأخیرا

بیضتم صحف التواریخ التی‌فاحت بذکرکم الزکی عبیرا

لا کان أخذ الانکلیز بلادناأبدا و لا قد کان ذا مقدورا

و اللّه لو رحنا جمیعا ما نری‌تسلیمنا تلک البلاد یسیرا

أرض سقیناها دموع عیوننا‌و بها جری النیل السعید غزیرا

أرض علیها استشهدت أجدادنافعلام لا یرث الصغیر کبیرا؟

إن عاش منا واحد یا سعدهأو مات لاقی جنة و حریرا

وطن بأیدینا زرعنا أرضهفغدا نضیرا ینبت الاکسیرا

یا آل مصر ألا فقووا عزمکمو استغنموا بید الجهاد أجورا

یا آل مصر ألا أعینوا جیشکم‌إذ قام یحفظ بالدفاع ثغورا

إذ قام یحفظ أرضکم و بلادکمو نساءکم و صغیرکم و کبیرا

یا آل مصر ألا ترکوا من عضدواقوما لقد خانوا فکانوا بورا

هم خائنو الوطن الذی شبوا بهو فقیرهم منه لقی تنکیرا

هم خائنو الرتب التی قد نقصتبهم فکانوا للعباد شرورا

آل النفاق علام تبغون العداألکم بهم نسب غدا مستورا؟

أم أنهم لا کنتم أحبابکمو لدیهم صار اسمکم مسطورا

فی بورسعید و غیره قد خنتمو فعلتم للانجلیز أمورا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۳ بور لکم، و سعید طالع وقتناو لکم بذا یوم یکون عسیرا

من لم یکن فیه لمسقط رأسهخیر رأی فی غیره التحقیرا

سأری بسعد الفال شعری ناطقاو لرب أشعار تکون ثبورا

عما قریب سوف یظفر جیشناو یجی عرابینا لنا مسرورا

و نری الألی حملوا لواء النصر فیحفظ البلاد و أنجزوا المأمورا

و یسرنا تقبیل مسک وجوههمفلقد بنوا لحمی الشریعة سورا

و نری بهذا القطر أعظم زینةفرحا بما قد ناله و سرورا

و نری لمصر سعادة أبدیةو یکون من فیها بذاک فخورا

و تکون للسلطان أعظم قوةو لها یکون معضدا و ظهیرا

و هی صورة للشعر الوطنی فی الثورة القومیة الوطنیة التی قام بها عرابی و إخوانه.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۴

قوانین الأزهر

و منذ عام ۱۸۷۲ م (۱۲۸۸ ه) وضعت للأزهر عدة قوانین لتنظیمه و إصلاحه من أهمها.

۱- قانون بتنفیذ قانون التدریس- ۳ من فبرایر ۱۸۷۳.

۲- قانون امتحان من یرید التدریس بالجامع الأزهر- ۲۴ من مارس ۱۸۸۵.

۳- قرار بضبط عدد أهل الجامع الأزهر- ۱۵ اکتوبر ۱۸۸۵

۴- قانون بامتحان التدریس- ۱۹ ینایر ۱۸۸۸.

۵- قانون بتشکیل مجلس إدارة الأزهر- ۳ ینایر ۱۸۹۵.

۶- قانون بامتحان من یرید التدریس فی الأزهر- ۱۷ ینایر ۱۸۹۵.

۷- قانون صرف المرتبات بالأزهر- ۲۹ یونیو ۱۸۹۵.

۸- قانون کساوی التشریفة العلمیة- أول فبرایر ۱۸۹۶.

۹- قانون الجامع الأزهر- ۸ محرم ۱۳۱۴- أول یولیو ۱۸۹۶.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۵

الفصل الثانی بعد الثورة العرابیّة

و اصل الأزهر سیره العلمی بعد الثورة، و عنی الإمام محمد عبده و المصلحون من علماء الأزهر بالدعوة الی تجدید الدراسة فی أروقة

الأزهر و معاهده.

و قد صدر عام ۱۳۲۹ ه، ۱۹۱۱ م قانون بإصلاح الأزهر الشريف، كان له أثره الكبير فی حياته العلمية، و جاء فی المادة الأولی منه أن الجامع الأزهر هو المعهد الدينی العلمی الإسلامی الأكبر: و المعاهد الاخری هی:

معهد مدينة الإسكندرية: معهد مدينة طنطا: معهد مدينة دسوق: معهد مدينة دمياط .. و كل معهد يؤسس فی القطر المصری بإرادة سنية، و كذا كل معهد أهلی يتقرر إلحاقه بالجامع الأزهر أو بأحد المعاهد الأخری بالشروط و الأوضاع التی تبين فی لائحة يضعها المجلس الأعلی و يصدق عليها بإرادة سنية.

و جاء فی المادة الثانية أن الغرض من الجامع الازهر و المعاهد الأخری هو القيام علی حفظ الشريعة الغراء و فهم علومها و نشرها علی وجه يفيد الأمة و تخريج علماء يوكل إليهم أمر التعاليم الدينية و يلون الوظائف الشرعية فی مصالح الأمة و يرشدونها إلی طرق السعادة.

و فی المادة الثالثة تكون مدرسة القضاء الشرعی قسما ملحقا بالجامع الازهر و تبقی حافظة لنظامها المقرر لها فی قانون ۲۵ فبراير سنة ۱۹۰۷، و يحل مجلس الأزهر الأعلی محل ناظر المعارف العمومية فی جميع

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۶

الاختصاصات التی له الآن بمقتضی القانون المشار اليه و تفصل ميزانية المدرسة عن نظارة المعارف و يخصص لها باب مستقل فی ميزانية الحكومة العمومية، و تجری عليها الأحكام المتعلقة بها و يبقی موظفو المدرسة من مستخدمی الحكومة.

و فی المادة الرابعة: أن شيخ الجامع الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين و الرئيس العام للتعليم فيه و فی المعاهد الأخری و المشرف الأعلی علی السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم و الدين بالنسبة إلی من ينتمی لجميع المعاهد من أهل العلم و حملة القرآن الشريف و كذا من كان من أهل العلم و حملة القرآن الشريف من غير المصريين.

و فی المادة الخامسة: أن شيخ الجامع الازهر بصفته رئيس المجلس الأعلی هو المنفذ الفعلی العام لجميع القوانين و اللوائح و القرارات المختصة بالجامع الأزهر و المعاهد الاخری. و أرباب الوظائف فی جميع المعاهد تابعون بهذه الصفة و خاضعون لأوامره، طبقا لما هو مقرر فی هذا القانون.

و فی المادة السادسة: يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة بالجامع الأزهر شيخ، و كذا يكون لكل معهد من المعاهد الأخری. و يجوز عند الاقتضاء تعيين وكلاء للجامع الازهر و لباقی المعاهد، و يكون لهم جميع الاختصاصات التی للمشايخ فی حال غيابهم الرسمی.

و فی المادة الثامنة و التاسعة: يكون بالجامع الأزهر مجلس يسمی مجلس الأزهر الأعلی. و تنشأ مجالس إدارة للأزهر و لمعهد الإسكندرية و طنطا. و يؤلف مجلس الأزهر الأعلی من شيخ الجامع الأزهر بصفة رئيس و من ثمانية أعضاءهم: شيخ السادة الحنفية، شيخ السادة المالكية، شيخ السادة الشافعية، شيخ السادة الحنابلة- مدير عموم الأوقاف المصرية- ثلاثة ممن يكون فی وجودهم بالمجلس فائدة لترقية التعليم و حسن انتظام إدارته بشرط أن يكونوا من الحائزين للصفات الملائمة لحالة الجامع الأزهر و المعاهد الأخری،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۷

و يكون تعيينهم بإرادة سنية بناء علی قرار من مجلس النظار و فی غياب شيخ الجامع الأزهر ينوب عنه فی الرياسة شيخ السادة الحنفية.

و فی المادة العاشرة يختص مجلس الأزهر الأعلی بما يأتی:

أولا- وضع الميزانية العمومية للجامع الأزهر و المعاهد الأخری.

ثانيا- النظر فی إنشاء المعاهد الدينية العلمية الإسلامية و إلحاق بعض المعاهد الصغری بالتی هی أكبر منها أو تغيير تبعيتها.

ثالثا- النظر فی فصل المعاهد من تبعیة غیرها و جعلها تابعة للجامع الأزهر مباشرة.

رابعا- النظر فی إنشاء مجالس إدارة للمعاهد التی لیس لها مجلس إدارة.

خامسا- وضع النظم العامة للتدریس و الامتحانات.

سادسا- التصدیق علی تقریر الکتب التی تدرس بالجامع الأزهر و المعاهد الأخری.

سابعا- النظر فی ترشیح مشایخ المعاهد الأخری و الوکلاء و ترقیتهم و نقلهم و فصلهم.

ثامنا- النظر فی ترشیح مجالس الإدارة.

تاسعا- التصدیق علی ما تقرره مجالس الإدارة من تعیین المدرسین و الموظفین و ترقیتهم و نقلهم و فصلهم.

عاشرا- النظر فی منح کساوی التشریف العلمیة لمستحقیها بناء علی قرارات مجالس الإدارة.

و قد نصت مواد القانون علی أن مجلس الأزهر ینعقد بالجامع الأزهر مرة فی کل شهر علی الأقل بدعوة من الرئیس، و لشیخ الجامع عقده أکثر من ذلک إن دعا الحال.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۸

و إن قرارات مجلس الأزهر الأعلی تکون بأغلبیة الآراء، و إن استوی الفریقان فالأرجحیة للفریق الذی فیه الرئیس، و لا تصح مداولته إلا إذا حضر الجلسة ستة من الأعضاء سوی الرئیس.

و فی المادة الثانیة بعد المائة و ما بعدها: یکون بالجامع الأزهر ثلاثون عالما اختصاصیا، لکل واحد منهم بالازهر کرسی خاص فی المحل الذی یخصص للتدریس العام بمعرفة شیخ الجامع الأزهر و یجوز أن یوجد البعض منهم فی المعاهد الأخری بصفة شیخ المعهد أو وکیله.

و یطلق علی العلماء الثلاثین المذکورین فی المادة السابقة اسم هیئة کبار العلماء.

و یشترط فیمن ینتخب ضمن هیئة کبار العلماء:

أولا- أن لا یکون سنة أقل من خمس و أربعین سنة.

ثانیا- أن یکون قد مضی علیه و هو مدرس فی الجامع الأزهر و المعاهد الأخری عشر سنین علی الأقل منها أربع علی الأقل فی القسم العالی.

ثالثا- أن یکون قد ألف کتابا فی أحد العلوم الإسلامیة، و أن یکون قد منح الجائزة العلمیة المنصوص علیها فی المادة الثانیة و العشرین بعد المائة فی هذا القانون

رابعا- أن یکون معروفا بالورع و التقوی و لیس فی ماضیه ما یشین سمعته.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۱۹۹

الفصل الثالث الأزهر و الحرکة الوطنیة عام ۱۹۱۹

اشارة

فجأة و علی غیر تدبیر سابق نهضت مصر نهضتها الکبری عام ۱۹۱۹. کما تضیء فی الحفلة الرحبة الجوانب مئات الثریات الکهربائیة بحرکة لینة من أصبعک. و مرد هذه الیقظة الشاملة شعور مصر فی کل حین أن حقها سلیب و حریتها منتهبة، و استقلالها مفقود، و إنما تحتاج النهضات الأخر الی تدبیر سابق یسلخ من العمر سنوات فی غیر النهوض للحریة و الاستقلال. أما و المصریون أحیاء یحسون و یشعرون، و الإنجلیز أمامهم فی مظهر السیادة و التملک، فلم یحتج الأمر إلی تدبیر مبیت فی الخفاء، إلا أن یهتف هاتف: أیها

المصریون هذا یوم الخلاص، لیدوی الصوت فی أفق مصر و یستجیب له صائد الأسماک فی بحیرة رشید، کما یستجیب له القابض علی ید المحراث فی وادی حلفا.

خرجت مصر کلها ... کلها حقا، تطلب الحریة و تنشد الاستقلال، و تدفقت قوة الشباب فی جسوم الشیوخ، و جرت البطولة فی أبدان الشباب، و تفتحت البطولة فی روح الأطفال و الغلمان، و احتوت الشجاعة و الحماسة قلوب السیدات قرویات و حضریات، و أصبحت مصر أغرودة الجمیع و حریة مصر لحنا یردده کل فم، و استقلال مصر آیة مقدسة یرتلها العابدون الخاشعون

و لقد تجلت کبریاء هذا العهد علی الأزهر إذ کان مکانا صالحا للنهوض، و حمل أبناؤه علم الجهاد الشریف الوادع.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۰

تیقظ الأزهر دفعة واحدة و تحرکت بواعث النخوة و الوطنیة فیه، کما تحرک کل ما فی مصر، و انتظم الجیش المسلح بإیمانه، المعتد بحقه، و رفعت الرایة، و أصبح معهد الدین و العلم مستقر النهضة الکبری و مستودع آیاتها، و علی أبوابه سقط أول شهید مصری و هو من أبناء الأزهر، احتمل المدفع الرشاش بین یدیه. و کان لا یدری ماذا یصنع به، و بینا هو یهم أن یقصیه فی مکان ما. إذا بثلاثین رصاصة تخترق جسمه فیخر صریعا!

و لست أستطیع أن أقول شیئا عن الاجتماعات التی عقدت فی الأزهر، فلم یکن منبره یخلو لحظة من خطیب. و لا عن أولئک الرجال الأبطال الذین کانوا یتوسدون أیدیهم، و ینامون علی أرض ذلک المسجد الفسیح .. و من المجاهدین من علمائه الزنکلونی، و عبد الباقی سرور، و الشیخ أبو العیون و سواهم، ممن اشتدت الحرکة الوطنیة بفضل ما أفادوه فی بعث روح الإقدام و الجرأة فی نفوس المصریین.

و کان الفقید الکریم القایاتی یؤوب من المظاهرة فی منتصف اللیل، فیطوی رداءه تحت رأسه علی «حصیرة» فی الأزهر و ینام حتی الصباح لیخطب فی المجتمعین.

أما المظاهرات فحدث عن إقدام الأزهریین و لا حرج، فقد کانت طرقات مصر کلها تغص بهم، و تمتلیء رحابها بإقدامهم، و هم یتراکضون فی أنفة و عزة و شموخ إلی غایة المجد، إلی حیث الحریة و الاستقلال.

کان کل شیء فی هذه النهضة جمیلا ساحرا، کأننا فی جنة من جنان الخلد، و کان الشعور السائد القوی، شعورا سماویا، حتی نسینا البغض و الحقد و التمرد علی الواجب، و أصبح کل فرد یحتضن أخاه المصری کأنهما ولدا فی منزل واحد، و یناجیه کأنه ولیه الحمیم.

فی هذا العهد الذی کان یتهم فیه الأزهر بالتعصب و صرامة الرأی، کان هو الذی فتح أبوابه لأبناء الطائفة القبطیة محتفلا مرحبا، و کانت هذه الظاهرة العجیبة من أقوی أسباب التضامن الوثیق بین العنصرین.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۱

کذلک اغتبط الأزهریون و فرحوا أن تشترک المصریات فی هذه النهضة سافرات و محجبات، و رأینا القس یعانق الشیخ الأزهری فوق منبر الازهر، کذلک رأینا السیدة المصریة تخطب فی هذا المکان المقدس.

و نذکر أن السلطة قررت منع الجمهور من دخول الازهر، و أرصدت علی أبوابه طائفة من الجنود المصریین و طائفة من الإنجلیز.

و کان من یحضرون إلی الازهر، یلقون أمر المنع، غیر أن الوطنیة المصریة أبت علی الجنود المصریین أن یشترکوا فی صد جماهیر الأمة عن کعبتها المقدسة، فکانوا یقولون لکل من یفد:

زاویة العمیان! و کانوا یقصدون بهذا القول أن یرشدوا الناس إلی طریق غیر معروف لدخول الأزهر، فلقن الجنود الإنجلیز هذا التعبیر العربی، و جعلوا یقولون لکل من یفد:

زاویة العمیان! و بذلک اشترکوا مرغمین فی أن تعقد الاجتماعات فی الأزهر بدعوة منهم و هم لا یعلمون.

كـذلك أتقن الطلاب فن التنكر و التخفى، فقد حرم دخول «الأفندية» الى الأزهر، غير أن هذا جعل الشبان يتنكرون فى أزياء الشيوخ المعممين من شتى الأقطار، فهـذا مراكشـى و ذاك تركى و ثالث حجازى و رابع هندى و خامس جاوى. و هكذا و لكنهم أخيرا كانوا يخرجون فى زيهم الحقيقى زى «الأفندية»، فكان الجنود الإنجليز يتغيظون و يشتمون.

الأزهر بعد الثورة المصرية

فى سنة ۱۹۲۳ م أنشىء قسم للتخصص فى العلوم الأزهرية بعد الحصول على الشهادة العالمية ليستزيد العالم تمكنا من مادته، و اقتدارا على أداء مهمته، فأنشىء هذا القسم من بضعة شعب. و كانت شعبة الفقة

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۲

و الأصول إحدى هذه الشعب، و هى تعد خريجها لتولى وظائف القضاء الشرعى فى الدولة، و قد مهدت لإلغاء مدرسة القضاء الشرعى فيما بعـد، و اسـتعيدت حقوق الأزهريين فى شـغل هـذه الوظائف بعـد أن سـلبت منهم حقبـة طويلة .. و عنى بالتوسع فى دراسة العلوم الحديثة فى المرحلتين الابتدائية و الثانوية بالمعاهد الدينية على غرار ما يدرس منها فى المدارس الأخرى.

و أنشىء لهذه العلوم تفتيش مستقل بإدارة المعاهد، و زودت المعاهد بالمعامل اللازمة لدراستها، و عين كثير من العلماء ممن تميز فى هذه المواد لتدريسـها، و قد عدلت هذه البرامج فيما بعد بما يتفق و مكانها من العلوم الدينية، و تم إنشاء القسم الثانوى لمعهد أسـيوط و كان ابتدائيا، ثم إنشاء معهد الزقازيق.

و ظل الأزهر يخطو نحو غايته مسـرعا إذ وضع الشـيخ محمد مصـطفى المراغى شـيخ الجامع الازهر مذكرته فى إصـلاح الازهر، تلك المـذكرة التى تعتبر دسـتور الازهر الحـديث، و كل ما يلهـج به دعاة الإصـلاح بعدها فهو مقتبس منها أو مسـتمد من مبادئها و روحها، فقانونا سنتى ۱۹۳۰، ۱۹۳۶ هما فى الحقيقة قانون واحد صـيغا من مبادئها و فصلا إجمالها، و بهذين القانونين على الأصح انتقل الأزهر من حال الاضطراب الثقافى إلى حال الاستقرار النهائى، و من حال العزلة التى نكرها على نفسه و أنكرها الناس منه إلى حال المشاركة فى شؤون الأمة العامة، فقد جعلت العالم الأزهرى عضوا حيا فى أمته يفيد منها و تفيد منه، و رسمت له غايته و الوسائل التى تعينه على أدائها، و شمل القانون الذى استمد منها نواحى إصلاحية كثيرة، و الذى يعنينا منها هنا الناحيتان العلمية و المالية.

أما الناحيـة العلميـة فأهمها تقسـيم الدراسة العالية لأول مرة فى تاريخ الأزهر إلى ثلاثة اقسام، يعد كل قسم منها خريجيه لمهمة خاصـة بعد إعداده لهذه المهمة إعدادا فنيا فى أقسام أخرى تلى هذه الأقسام تسمى «أقسام التخصص فى المهنة».

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۳

و أنشىء لمجموع هذه الأقسام كليات ثلاث- و هى كلية الشريعة، و كلية اللغة العربية، و كلية أصول الدين- على أن يلى خريجو هذه الكليـات المهن التى تليق بمؤهلاـتهم بعـد تخصصـهم فيها، فيلى خريجو كليـة أصول الـدين وظائف الوعظ و الإرشاد، و خريجو كلية الشريعة وظائف القضاء الشرعى، و خريجو كلية اللغة العربية وظائف التدريس فى المدارس الأميرية و الحرة.

و قـد ألحق بهـذه الكليـات أقسام للتخصـص فى المادة، و هى أقسام علميـة ممتازة قصـد منها إعـداد بعض العلماء إعـدادا ممتازا، بعد دراسة عميقة ليمكنهم القيام بوظائف التدريس فى الكليات.

و الإعداد خريجى هذه الكليات إعدادا صحيحا أدخل فى مناهج الدراسة فيها لأول مرة فى تاريخ الازهر أيضا مجموعة من العلوم التى تتصـل بمهمتهم، فأدخـل فى مناهجهـا فقه اللغة و علم النفس و علوم التربيـة و الفلسـفة و تاريـخ الأديان و دراسـة الفرق الإسـلامية، و أصول القوانين و الاقتصاد السياسى، و النظام الدستورى، كما أدخل فيها دراسة بعض اللغات الغربية و الشرقية.

و مما تضـمنه القانون إنشاء معاهد للاسـتماع خاصة فى بعض المدن لا تتقيد بقيود المعاهد النظامية، و الغرض منها سد حاجة من يريد معرفـة أحكـام الـدين و اللغـة العربيـة من جمهرة الأمـة، على أن يتبع فيهـا طريقـة التـدريس التقليديـة فى الأـزهر، و يكون مقرهـا فى

المساجد.

و أما الناحيـة الماليـة و أعنى بها الحقوق التى ظفر بها خريجو الأزهر بمقتضـى هـذا القانون، فأهمها أنه ألغى مدرسة القضاء الشـرعى، فأصـبحت وظائفه خالصة لخريجى كلية الشريعة دون غيرهم، و جعل من حق خريجى كلية اللغة العربية التدريس فى مدارس الحكومة و المـدارس الحرة و كانت محجورة عليهم قبل ذلك، و جعل من حق خريجى كلية أصول الدين شـغل وظائف الوعظ و الإرشاد التى أنشئت قبيل صدور القانون، و التى لم تزل

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۴

تنمو حتى أصـبحت لها إدارة خاصة، و بلغ عدد الوعاظ الذين تشـرف عليهم هذه الإدارة نحو ۲۵۰ واعظا يؤدون للأمة أجل الخدمات فى إصـلاح الأمن و تهـذيب النفوس. و يقضـينا الإنصاف أن نشـير هنا إلى فضل المغفور له محمـد محمود فى إنشاء قسم الوعظ، فقد أشار عليه الشـيخ المراغى شـيخ الجامع الأزهر سنة ۱۹۲۸ م بتعيين عـدد من العلمـاء فى وظائف الوعظ بوزارة الداخليـة لإصـلاح حال الأمن من طريق نشر تعاليم الدين، فاستجاب لهذه الإشارة بعد استحسانها من لدن الرأى العام فى الأمة، و عين خمسين واعظا فى الوجه البحرى. و بعـد تعيينهم ببضـعة أشـهر نقلوا بميزانيتهم إلى الأـزهر، فكانوا نواة هـذا القسم الكبير. و قـد كفل القانون لخريجى الكليات حقوقـا أخرى فى وظائف الدولـة، ليس هـذا موضع تفصـيلها. و بهاتين الناحيتين من الإصـلاح العلمى و المادى اللتين شـملهما القانون المسـتمد من المـذكرة المشـار إليهـا فيمـا سـبق تقاربت مسافـة الخلف بين خريجى الأزهر و خريجى المعاهـد الأخرى و طوائف الأمة عامـة، و تجـدد نشاط الأزهر فى أداء رسالته، و أحست الأمـة بأن له مكانا فى خـدمتها، و أنه يأخذ منها و يعطيها. و لما كانت الكليات الأزهريـة و التى تضـمنها القانون فى حاجـة إلى اماكن للدراسـة، لـذلك بـدىء بإنشاء هـذه الأماكن فى مدينـة أزهرية خاصة واسـعة الأرجـاء حول الجـامع الأـزهر، لاـ تقصـر عليهـا بـل تتسع لهـا و لأمـاكن لمعهـد القـاهرة و لمساكن الطلاب و للإدارة العامـة للأزهر و لمستشـفى أزهرى خاص، و تسع عـدا هـذه الأبنيـة بناء للمكتبة الأزهرية و ما يلحق بها من المطابع وقاعة للاحتفالات العامة تسع ألفين من النظارة، و وضع تصميم هذه المبانى و فتح لها فى الميزانية العامة سنة ۱۹۲۹ م اعتماد مالى بمبلغ يقرب من ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات، و بـدىء فى تنفيـذها إذ ذاك بالفعل، و فكر المراغى سـنة ۱۹۲۸ م فى إرسال بعثات أزهريـة دراسـية إلى بعض الجامعات الأوربية ليكون أعضاؤها دعاة إلى الإسلام كما كان أسلافهم، و ليفيدوا من ثقافة هذه الجامعات المتجددة ما يتصل بمهمتهم و يسدوا حاجـة الأزهر إلى تـدريس المواد التى اقترح إدخالها ضـمن برامج الدراسة فى المذكرة المشار اليها. و فى سـنة ۱۹۳۶ م سافرت هذه البعثات

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۵

إلى انجلترا و فرنسا و ألمانيا فى جو من الغبطـة و الحـذر، و كان فى ذلك أحياء لمجـد الأزهر، و قام شـيخ الجامع الأزهر بتوديع هـذه البعثات بنفسه فى حفل من العلماء و الطلاب، و ألقى فيهم خطابا رسم فيه الغايـة من إرسالهم، و صور الجو الـذى أحاط بهـذه الفكرة فقـال: «أرسـلكم الأـزهر و قلبه يخفق، و أنـا واثق من أنكم سـتكونون بهـديكم و بقولكم و عملكم و محبتكم أحسن الأمثلـة لخريجى الأزهر الشـريف». و قال: أنتم فى البلاد التى سـتقيمون فيها مرشـدون أولا و تلاميذ ثانيا و لا يعفيكم واجبكم الثانى من واجبكم الأول هو فى الحق المقصـد الأسـمى من هجرتكم» .. و لتمكين الأـزهر من أداء رسالته بكل ما يمكن من الوسائل فكر الشـيخ الظواهرى فى إنشاء مجلة خاصة بالأزهر تكون صوته الرسـمى يدوى فى مصر و الأقطار الاسلامية، و تكون مجالا للنشاط العلمى لعلمائه و طلابه، «و تعمل على نشـر آداب الإسـلام، و إظهار حقائقـة خالصـة من كل لبس و تكشف عما ألصق بالـدين من بـدع و محدثات و تنبه إلى ما دسّ فى السـنة من أحاديث موضوعـة، و تـدفع الشـبهة التى يحوم بها مرضـى القلوب»، و ابتـدأ صدورها سـنة ۱۹۳۰ م و أنشـىء لها و لمطبوعات الأزهر و المعاهد مطبعة خاصة كاملة الأدوات تسد الآن حاجة المجلة و الكليات و المعاهد من جميع المطبوعات.

و فى يوم الثلاثـاء ۲ من ذى الحجة سـنة ۱۳۵۱ ه- ۲۸ مارس سـنة ۱۹۳۳ احتفل رسـميا بافتتاح كليـة أصول الـدين. و فى يوم الأربعاء

التالی له احتفل کذلک رسمیا بافتتاح کلیتی الشریعة و اللغة، و جاء فی کلمة شیخ الأزهر إبان ذاک، الشیخ محمد الاحمدی الظواهری التی ألقاها فی هذه المناسبة بحضور رجالات الدولة:

«صدر القانون رقم ۴۹ لسنة ۱۹۳۰ وافیا بهذه الأغراض السامیة، مع المحافظة علی صبغة الأزهر الدینیة و العربیة. و کان من أکبر مزایاه إنشاء کلیات: أصول الدین، و الشریعة، و اللغة العربیة، و جعل أبوابها مفتحة لجمیع الطلاب المسلمین علی اختلاف جنسیاتهم. و استدراک ما کان

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۶

فی القوانین السابقة من نقص فی مواد التعلیم علی اختلاف مراحله، فقد جعل من مواد الدراسة فی الکلیات: تاریخ التشریع الإسلامی، و مقارنة المذاهب، و فن الحدیث درایة، و آداب اللغة العربیة و تاریخها، و فقه اللغة، و تاریخ الأمم الإسلامیة، و علم النفس، و الفلسفة، مع الرد علی ما یکون منافیا للدین منها، و غیر ذلک من المواد التی لم تکن تدرس فی القسم العالی من الأزهر الشریف.

و لما کان التخصص فی العلوم هو الطریقة المنتجة التی جری علیها علماء الاسلام فی أوائل العصور، و إلیها یرجع الفضل فی تقدم العلوم و ارتقائها قدیما و حدیثا، نص هذا القانون علی إنشاء أقسام للتخصص فی المواد التی تعنی بها الکلیات، للتبحر فیها، و علی منح المتخرجین منها شهادة العالمیة مع لقب أستاذ، و علی جعلهم أهلا لشغل کراسی الأستاذیة فی الکلیات، کما نص علی إنشاء أقسام للتخصص فی التدریس و القضاء الشرعی و الوعظ و الإرشاد، یکون متخرجوها أهلا للتدریس فی مدارس الحکومة و المعاهد و تولی الوظائف الشرعیة و الدینیة فی الدولة.

و إذا کانت کلیات الأزهر ستکون فی دور خاصة فی حیّه و بحواره، فإن نفس الجامع الأزهر سیکون معمورا بالدروس علی اختلاف أنواعها، مفتح الأبواب لقاصدیه، من المسلمین علی اختلاف طبقاتهم، غیر مقصور علی إقامة الصلاة.

و لقد کان لصدور هذا القانون و انتشار أنبائه وقع حسن عظیم فی نفوس المسلمین فی عامة الأقطار، و قد ابتدأت البعثات تتوارد و تتتابع: من الصین و بولونیا و ألبانیا، و الهند، و غیرها، للاغتراف من هذا المنهل العذب. و أخذت الجامعات الکبری تتصل بالأزهر الشریف، و کان منها جامعة غرناطة، التی لبی الأزهر الشریف دعوتها إلی الاحتفال بمرور القرن الرابع علی تأسیسها».

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۷

الفصل الرابع الثورة المصریّة الثالثة و الازهر

اشارة

و قد قامت الثورة المصریة الوطنیة القومیة العسکریة الأخیرة فی ۲۳ یولیو ۱۹۵۲، و کان للأزهر فضل کبیر فی قیامها، و توالت أحداث الثورة، فألف محمد نجیب وزارته الأولی فی ۷ سبتمبر ۱۹۵۲، ثم وقعت اتفاقیة السودان بین مصر و انجلترا فی ۱۲ فبرایر ۱۹۵۳، و أعلنت الجمهوریة فی ۱۸ یونیو ۱۹۵۳، و ألفت وزارة الرئیس جمال عبد الناصر بعد ذلک. و کان الأزهر یقوی من دعائم الثورة، و یدعهم العهد الجدید، الذی ثار علی الفساد فحطمه، و علی الطغیان فهدمه، و لا یزال الأزهر یبارک مبادیء الثورة، و یدعو للإیمان بها.

و منذ بدء الثورة تولی منصب مشیخة الأزهر الشیخ محمد الخضر حسین، ثم الشیخ عبد الرحمن تاج.

و یرجی للأزهر أن یصطبغ بالصبغة العلمیة، و أن یسیر قدما فی سبیل أداء رسالته الجلیلة.

قانون الازهر الجدید

اشارة

و صدر قانون تطویره الأزهر فی عام ۱۳۸۱ ه (۱۹۶۱ م) .. و هـذا القانون هو الذی جعل من الأزهر جامعة دینیة علمیة شاملة .. و الذی انتقل بالأزهر إلی مسایرة التطور العلمی فی العالم الحدیث. محافظا فی نفس الوقت علی رسالته الدینیة السامیة و تقالیده القدیمة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۸

و ینص القانون علی أن الأزهر یشمل الهیئات الآتیة:

۱- المجلس الأعلی للأزهر

و هو الهیئة التی تختص بالتوجیه و رسم السیاسة العامة لکل ما یحقق أغراض الأزهر فی سبیل خدمة الفکرة الإسلامیة الشاملة. و یرأس هذا المجلس شیخ الأزهر و یضم أعضاء من کبار العلماء المتخصصین.

۲- مجمع البحوث الاسلامیة

و هو الهیئة العلیا للبحوث الإسلامیة. و یقوم بدراسة کل ما یتصل بهذه البحوث. و یعمل علی تحدید الثقافة الإسلامیة و تنقیتها من الشوائب، و الکشف عن جوهرها الأصیل. و العمل علی نشر الدعوة الاسلامیة.

و تنظیم بعوث الأزهر إلی العالم الإسلامی، و من العالم الاسلامی. و یتکون المجمع من خمسین عضوا من کبار علماء الإسلام، یمثلون جمیع المذاهب الإسلامیة، و یکون من بینهم عدد لا یزید عن العشرین من غیر مواطنی جمهوریة مصر العربیة و یرأس المجمع شیخ الأزهر. و یکون نصف أعضائه علی الاقل متفرغین لعضویته.

۳- ادارة الثقافة و البعوث الاسلامیة

و هی الجهاز الذی یهییء لمجمع البحوث الإسلامیة کل أسباب البحث و الدراسة. و یختص بکل ما یتصل بالنشر و الترجمة و العلاقات الإسلامیة من البعوث و الدعاة و استقبال طلاب المنح.

۴- جامعة الأزهر

و تختص بکل ما یتعلق بالتعلیم العالی فی الأزهر. کما تهتم ببعث التراث العلمی و الفکری و الروحی للشعوب الاسلامیة و العربیة. و إعداد بعض العاملین الذین یجمعون إلی جانب التفقه فی العقیدة و الشریعة و لغة القرآن، کفایة علمیة و مهنیة تؤهلهم للاشتراک فی کل أنواع النشاط و الدعوة إلی سبیل الله بالحکمة و الموعظة الحسنة. و تضم الجامعة کلیات

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۰۹

الدراسات الإسلامیة (اصول الدین و الشریعة و القانون)، و کلیة الدراسات العربیة، و کلیة المعاملات و الإدارة، و کلیة الهندسة و الصناعات، و کلیة الزراعة، و کلیة الطب، و کلیة التربیة، و ذلک علاوة علی کلیة البنات الإسلامیة و التی فتحت مجالا جدیدا لدخول الفتیات إلی هذه الجامعة العتیدة.

و ما أن صدر قانون تطویر الأزهر، حتی بدیء فی وضعه موضع التنفیذ.

و فی شهر مارس ۱۹۶۴ وضع حجر الأساس لمبانی الجامعة الجدیدة فی مدینة نصر. و قد تم افتتاح مبانی بعض الکلیات مثل کلیات

الهندسة، و العلوم، و الإدارة و المعاملات، و الزراعة، و كلية البنات، و يجرى الآن العمل فى إنهاء بقية مبانى و معامل هذه الكليات و تقدر تكاليف هذه المبانى بحوالى ۰۰۰، ۵۰۰، ۲ جنيه مصرى. و هى مصممة على أحدث الطرز و تضم مدرجات و معامل حديثة.

و تقع كلية الطب فى مستشفى الحسين الجامعى بجوار الجامع الازهر. و هى تضم حاليا ۵۰۰ طالب.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۰

و ثورة فى الأزهر أيضا

و جاءت الثورة ..

الثورة بكل مبادئها و روحها و قوتها الثورة التى حررت الشعب، و رفعت سمعة الوطن، و نهضت ببلادنا، فى شتى مرافقها، و أولت الدين نصيبا من إعزازها و عنايتها.

فكان لا بد أن ينال الأزهر على يديها النصيب الموفور من الإصلاح و التجديد و التطور.

و هنا نلجأ إلى الأرقام ..

كانت معاهد الأزهر قبل الثورة عشرين فصارت ۴۵ و كانت ميزانيته مليونين فصارت ۴ ملايين، و فى العام القادم ستصبح ۷ ملايين .

و يقول نائب الرئيس الأسبق السيد حسين الشافعى: إنه لا بد أن ينشأ فى كل مدينة معهد دينى .

و قد قامت الثورة عام ۱۹۵۲ و فى مشيخة الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم، ثم خلفه الشيخ محمد الخضر حسين، فالشيخ عبد الرحمن تاج، فالشيخ محمود شلتوت، فالشيخ حسن مأمون، و غير لقب شيخ الأزهر فصار هذا اللقب هو «الإمام الأكبر»

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۱

و دخل التطور فى الأزهر بأوسع نطاق، فأعيدت عام ۱۹۵۷ أقسام الدراسات العليا من الأزهر، و أسهم الأزهر فى مختلف وجوه النشاط من العالم الإسلامى، و زيدت بعثاته العلمية إلى الدول العربية و الإسلامية، و استقبل ألوف الشباب من أبناء العالم العربى و الاسلامى ليتثقفوا فى معاهده و كلياته على خيرة الأستاذة و ليعودوا إلى بلادهم أئمة و مرشدين فى شتى علوم الدين و العربية و ذهب الشيخ تاج شيخ الأزهر فى رحلة إلى باكستان و الهند و أندونيسيا، ثم ذهب من بعده الشيخ شلتوت فى رحلة إلى الفلبيين و الملايو. و فى عهده أنشئت إدارة للبحوث و الثقافة الاسلامية.

و جاء دور التنظيم الجديد، تطوير الأزهر فسنّ جمال عبد الناصر قانون الأزهر، الذى صدر فى ۱۸ يوليو ۱۹۶۱، و نص فيه على ما يلى:

۱- إنشاء كليات للدراسات الإسلامية، و كلية للدراسات العربية.

۲- إنشاء كليات جديدة للطب و الهندسة و الزراعة و الإدارة و المعاملات فى الأزهر.

۳- إطلاق اسم جامعة الأزهر على كلياته الحالية و ما يجد من كليات.

۴- انشاء مجلس أعلى لجامعة الأزهر، و مجلس أعلى للأزهر.

۵- انشاء مجلس إسلامى أعلى.

و وضعت مناهج جديدة للمعاهد الأزهرية و لكليات جامعة الأزهر، و صارت اللغات مواد أساسية فى جميع سنى الدراسة، و كانت هذه المواد من قبل لا تنال عنايتها من المنهج و لا من الدراسة.

هذه هى الثورة الضخمة .. التى دبت فى أروقة الأزهر و معاهده و كلياته، ثورة بانية، تريد إيجاد رجل الدين المثقف الواعى المستنير، و تريد أن يسلح رجل الدين بسلاح العصر القوى المتين.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۲

النوابغ الذين تخرجوا فى الأزهر

و قد تخرج فی الأزهر فی العصر الحدیث فریق کبیر من عظماء الرجال.

فمن الزعماء زعیم مصر المغفور له سعد زغلول، و من الأدباء المرحوم علی باشا مبارک و عبد الله فکری باشا، و السید رفاعة الطهطاوی، و حفنی ناصف بک، و الشیخ حمزة فتح الله، و من المصلحین الأستاذ الأکبر الشیخ محمد عبده.

و تخرج فیه کثیرون من أمراء الشرق و مجاهدیه، فمنهم السید الادریسی الذی درس فی الأزهر ثم عاد إلی الیمن یعلم البدو أمور دینهم و یحارب الأتراک فی سبیل استقلال بلاده حتی تقلص الحکم الترکی عن بلاد العرب فی ختام الحرب العظمی، و ما زال سلطانا مستقلا واسع النفوذ حتی لقی حتفه فی سنة ۱۳۴۰ ه.

و منهم السید صدیق حسن خان أمیر یهوبال السابق و قد تخرج فی الأزهر، و کان منتسبا لرواق البخاریة ثم عاد إلی إمارته فاصلح شؤونها و أقام فیها مجالس العلم حتی توفی فی سنة ۱۳۲۹ بعد أن رفع شأن بلاده.

و منهم الشیخ محمد بن عبد الله منلا الصومالی الذی درس فی الأزهر ثم رحل إلی الصومال فأخذ یعلم أمور دینهم و یدعوهم إلی طرح نیر الاستعباد حتی استطاع أن یؤلف بین قلوب القبائل الصومالیة و یحارب الانجلیز و الإیطالیین و البلجیک و البرتغالیین و یستعمل الحیلة و الدهاء فی حروبه، فحطم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۳

جهود الاستعماریین و طرد جیوشهم و ما زال فی کفاح معهم حتی لقی ربه فی سنة ۱۳۲۳ هجریة، فمهد موته الطریق أمام جیوش الاستعمار، و سقطت الصومال بعده فی أیدی الانجلیز و الإیطالیین.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۴

اختلافا شدیدا فستراه علی ذلک مؤتلفا أشد الائتلاف یؤلف بین مختلفات ما تفیض علیه نفس الکاتب الهادئة السمحة الرزینة من هدوء سمح رزین

أشهر رجال الأزهر فی أوائل القرن الرابع عشر الهجری

و قد اشتهر فی العصر الأخیر جلة من العلماء الراحلین کانوا فی طلیعة الشیوخ البارزین، علی طریقة الأزهر القدیمة، و قد أدرک البعض زمانهم، و تلقی بعض العلماء عنهم، نذکر منهم:

الشیخ أحمد رفاعی الفیومی. الشیخ أحمد الجیزاوی. الشیخ محمد النجدی. السید أحمد حنبلی البسیونی. الشیخ عبد القادر الرفاعی، الشیخ محمد عبده، الشیخ عبد الکریم سلمان. الشیخ سلیمان العبد. الشیخ أحمد أبو خطوة. الأخوین: الشیخ محمد، و الشیخ أحمد عبد الجواد القایاتی . الشیخ حسن الطویل. الشیخ محمد حسنین البولاقی .

الشیخ حسین زین المرصفی. الشیخ هرون عبد الرازق الشیخ محمد البیجرمی. الشیخ إبراهیم الظواهری. الشیخ محمد بخیت المطیعی.

الشیخ عبد الرحمن البحراوی. الشیخ محمد راضی الکبیر. الشیخ محمد رصی البحراوی. الشیخ محمد حسنین العدوی. الشیخ علی البولاقی.

الشیخ عبد الغنی محمود. الشیخ محمد السمالوطی. الشیخ محمد الحلبی. الشیخ أحمد نصر. الشیخ محمد شاکر. الشیخ دسوقی العربی.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۵

الشیخ عبد الرحمن قراعة. الشیخ یوسف الدجوی. الشیخ عبد الحکم عطا. الشیخ سید علی المرصفی.

و ثمة شخصیات بارزة لها فی تاریخ البلاد مکان ملحوظ.

و هؤلاء لم یتموا دراستهم فی الجامع الأزهر، و أقبلوا علی أعمال أخری فی المحاماة، و القضاء، و فی العلم و الأدب و الصحافة، نذکر

من بینهم: سعد زغلول زعیم مصر السیاسی، و إبراهیم الهلباوی المحامی، و محمد أبو شادی، و محمد الحسینی المحامی، و حسن جلال، و محمد صالح المستشارین بالمحاکم الوطنیة، و عبد اللّه ندیم خطیب الثورة العرابیة و السید علی یوسف صاحب جریدة المؤید، و محمد النجار صاحب جریدة الأرغول و السید مصطفی لطفی المنفلوطی، و عبد اللطیف الصوفانی، و غیرهم و غیرهم.

و من علماء الأزهر المشهورین العالم العلامة الشیخ نافع الجوهری ابن سلیمان بن حسن بن مصطفی بن أحمد الخفاجی من بنی خفاجة (۱۲۵۰ ه- ۱۸۳۴ م- ۱۳۳۰ ه- ۱۹۱۲ م)، و هو جد المؤلف لأمه، ولد فی قریة تلبانة من أعمال الدقهلیة، و حفظ القرآن الکریم، و نال العالمیة من الأزهر عام ۱۲۸۳ ه، حیث تتلمذ فیه علی جلة العلماء و الزاهدین، و أقام ببلدته واعظا زاهدا، و مفتیا مرشدا، و مؤلفا واسع الشهرة بین أقرانه. حتی مؤلفاته إلی قبل وفاته نحوا من مائة مؤلف، أغلبها فی الشریعة و الدین و الفقه و المواعظ و التصوف و علوم العربیة، و کان شاعرا مجیدا بلیغا مفوها، و أدیبا لا یشق له غبار .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۶

نظرة إلی المستقبل

إن ما کسبه الأزهر من هذا الانقلاب فی مصایره لا یزال رهن الزمن و المستقبل. و من سبق القول- کما یقول عنان- أن نتحدث عن مزایا نظام جامعی لم یتمخض بعد عن آثاره، و لکنا نستطیع بالعکس أن نقول أن الأزهر الحدیث علی الرغم من جمیع الجهود التی بذلت لإصلاحه منذ نصف قرن، و بالرغم من تحویله الظاهر إلی جامعة أزهریة، فقد کثیرا من المزایا العلمیة و الجامعیة الحقیقیة التی اقترنت بتاریخه القدیم.

فقد اختفی جیل العلماء الأعلام المبرزین فی علوم الدین و اللغة ممن حفلت بهم حلقاته فی أواخر القرن الماضی، و کانوا بقیة أخیرة لذلک الجیل القدیم، من علماء الأزهر الذین وهبوا حیاتهم للدرس، و قد کان الأزهر حتی أواخر القرن الماضی یأخذ بنصیب بارز فی تکوین الزعامة الفکریة و القومیة؛ و کان ظهور رجال مثل محمد عبده و سعد زغلول من بین صفوف طلبته، أسطع دلیل علی أن هذا المعهد التالد لم یفقد خلال عصور الانحلال و التأخر کل حیویته الفکریة، و لکن هذه الظاهرة تکاد تختفی الیوم.

و قد فقد الأزهر کثیرا من خاصته الروحیة التی کانت تحمل شیوخه و طلابه علی التفانی فی التحصیل و الدرس، و التعلق بشرف العلم و الإعراض عن مغریات الدنیا، و إیثار التقشف و الزهد، علی الحیاة الناعمة .. و تحول شیوخ الأزهر فی ظل النظم الجدید شیئا فشیئا إلی نوع

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۷

من أرستقراطیة رجال الدین، التی تمتاز ببسطة فی الرزق و الجاه، و تحول طلابه إلی میدان الصراع المادی فی سبیل العیش، و السعی وراء الوظائف و منازعة أضرابهم من المعاهد الأخری فی الفوز بها. و قد أحدثت هذه الأرستقراطیة الاجتماعیة، و هذه النزعة فی الإقبال علی الدنیا، أثرا لا یحمد فی جو الأزهر العلمی، و ذهبت بکثیر من خواصه الروحیة القدیمة.

و من جهة أخری فإن الأزهر الحدیث علی الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصریة، لا یزال بعیدا عن أن یجاری روح العصر فعلا فی تنظیم مناهجه و أسالیبه العلمیة. فهو لا یزال یعیش علی تراث الأزهر القدیم، و لا یزال مرجع الدراسة بالکلیات الأزهریة الحدیثة فی علوم الدین و اللغة طائفة من الکتب القدیمة التی یعرفها الأزهر منذ العصور الوسطی، فالشاطبیة، و الهدایة، و السنوسیة، و الصبان، و ألفیة بن مالک، و شرحها لابن عقیل، و مختصر السعد و حواشیه، و کتب ابن حجر، و البلقینی، و السیوطی، و البرماوی، و الزماوی، و الزیلعی، و غیرها، تدرس فی الکلیات للطلبة النظامیین، و بعض هذه الکتب یرجع إلی القرن السادس الهجری کالشاطبیة، أو السابع مثل مختصر ابن الحاجب، و ألفیة ابن مالک، أو الثامن کشرح ابن عقیل و مختصر السعد، و مع أن هذه المصنفات القدیمة لا تزال تحتفظ بقیمتها العلمیة، فهی لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتیقة لعقلیة الطالب الحدیث. و لم یزود طلبة الجامعة الأزهریة حتی

اليوم من الكتب و المذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جدا فى بعض المواد المستحدثة: مثل التاريخ الإسلامى، و السيرة النبوية، و تاريخ التشريع، و تفسير بعض آيات الأحكام، و كذا بعض كتب البلاغة و الأدب و النحو و الصرف، و سيمضى وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة الأزهرية أن يضعوا من الشروح و التآليف المنظمة الحديثة ما يسد حاجة الطلاب.

و قد فقد الأزهر كثيرا من مزايا الدراسة الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة، التى لبثت قرونا تزين أروقته و ساحاته، فقضى عليها

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۸

النظام الجديد، و لم تبق منها إلا آثار ضئيلة، تتمثل فى إلقاء بعض الدروس العادية فى علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر و بعض المساجد الأخرى التى توجد بها المعاهد الدينية، و تقرأ فيها الكتب القديمة، و يشهدها الطلاب غير النظاميين، و لا سيما الغرباء و بعض أفراد الجمهور، و تعرف فى ظل النظام الجديد بالأقسام العامة.

و الواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعى الحديث، و قد كانت تتفوق بلا ريب فى عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية، و كان خيرا لو أصلحت و نظمت على غرر الدراسات الجامعية العليا، التى يتولاها أعلام الأساتذة قد كان فى استبقائها على هذا النحو تخليدا لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التى كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر و آلاء الأزهر، و كانت فى كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذة و المستمعين.

و لقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة و المحدثة، و قد أحرز الجديد نصره النهائى على تراث القديم و أساليبه، و تبوأت الثقافة المحدثة فى مصر المكان الأول، و هى تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية، بكل ما أوتى من المزايا المعنوية و المادية. على أن ذلك لا يعنى أن مهمة الأزهر قد انتهت، أو انها يجب أن تنتهى، بل بالعكس من ذلك أن للأزهر مهمة جليلة، يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق إلى الوسائل و الأساليب الصالحة لتأديتها.

تلك المهمة هى العمل على دعم رسالة الإسلام، و رسالة اللغة العربية و الحضارة الإسلامية، بأساليب مستنيرة .. و قد كان الأزهر معقلا من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى، و العصر التركى، و فى وسعه أن يكون معقلها اليوم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۱۹

ثورة التطوير فى الأزهر

انها ثورة جديدة استحدثها قانون تطوير الأزهر

على أن روح الثورة أكبر من أن تخطط بقوانين، روح الثورة التى اشتعلت بين الملايين من العرب و المسلمين قوية بحمد اللّه و إذا كان الأزهر فى حاجة إلى ثورة كبيرة، فإن هذه الثورة المنشودة التى يتطلبها المسلمون من الأزهر لا يمكن أن يصنعها قانون، بل لا بد أن تشتعل روحها أولا و قبل كل شىء فى نفوس العلماء و الطلاب ...

فالقانون لم يكن ثمة كبير حاجة إلى تخطيطاته فى بعث روح الثورة المنشودة داخل الأزهر، لكى يؤدى الأزهر رسالته.

و لننظر بعد ذلك الى روح القانون:

۱- فأولا: سوف تنشأ كليات علمية جديدة لا صلة لها بالدراسات الإسلامية، و تضاف إلى جامعة الأزهر و هذه الكليات لا تتوقف عليها رسالة الأزهر، و ستكلف إنشاؤها الملايين من الجنيهات دون ما داع إلى ذلك، و كان فى الامكان إباحة دخول طلاب المعاهد الثانوية الجامعات المصرية ليتخرجوا أطباء و مهندسين و محاميين .. فضلا عن أن جامعات المنصورة، و طنطا، و الزقازيق لم تنشأ بعد، و جامعة أسيوط لا تزال فى دور التكوين و الإنشاء.

۲- و ثانيا: وجود كلية الدراسات العربية لا يزيد عن إنشاء كلية آداب فى الأزهر تحل محل كلية اللغة العربية، و لنا فى كليات الآداب

فى

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۰

الجامعات المصریة غنی، بالإضافة الی کلیة دار العلوم و معاهد المعلمین، و سواها

۳- و ثالثا: کلیات الدراسات الإسلامیة لا بد من أن تحتوی علی کلیتین:

الأولی للشریعة، و الثانیة للأصول و فی هذه الحالة .. لا نکون قد صنعنا شیئا أکثر من تکرار إنشاء کلیتین جدیدتین بدل کلیتین قدیمتین، و کان فی الإمکان أن تطور مناهج الکلیتین الحالیتین، لنصنع بذلک الإصلاح المنشود.

۴- و جملة الأمر من القانون أنه ینص علی إدماج مناهج المعاهد الثانویة و الابتدائیة من مناهج المدارس الحکومیة مع الإبقاء علی مناهج علوم الدین و فی هذه الحالة سیرهق الطالب إرهاقا شدیدا من جانب، و سیضعف مستواه فی الدراسات التی تؤهله لدراسات علوم الدین من جانب آخر، و کان فی الإمکان الاکتفاء بضم المعاهد الابتدائیة إلی وزارة التربیة و الإبقاء علی المعاهد الثانویة کمرحلة إعدادیة للتأهل لدراسات کلیات الأزهر.

۵- علی أن قانون الأزهر فی الإمکان أن یعرض علی الهیئات الإسلامیة لدراسته و إبداء رأیها فیه، و تأجیل تنفیذه إلی ما بعد وصول هذه الآراء کلها إلی الجهات التنفیذیة للاستفادة من تقریراتها فی علاج کل نقص یمکن أن یکون من القانون، أو ما عسی یمکن أن یکون له من نتائج فی الدراسات العربیة و الإسلامیة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۱

هذا هو الأزهر الجدید

* الهیئات التی یتکون منها الأزهر هی:

۱- المجلس الأعلی للأزهر و یرأسه شیخ الأزهر و یشترک فیه کبار العلماء و خبراء فی التعلیم و الإدارة.

۲- مجمع البحوث الإسلامیة و یعمل علی تجدید الثقافة الإسلامیة و رسم نظام البعوث الأزهریة إلی العالم الإسلامی و منه.

۳- ادارة الثقافة و البعوث الإسلامیة و تجهز الدراسات و البحوث للمجمع و تتابع التنفیذ و تتحمل مسئولیة البعوث الإسلامیة.

۴- جامعة الأزهر و تضم کلیات للدراسات الإسلامیة و کلیات للدراسات العربیة و کلیة المعاملات و الإدارة و کلیة الهندسة و الصناعات و کلیة الطب و کلیة الزراعة و لن تکون صورة مکررة للکلیات القائمة الآن أو بالجامعات الأخری ..

* المعاهد الأزهریة و تعد طلبة الجامعة الأزهریة و تزودهم بالمعرفة و الخبرة إلی جانب الثقافة العربیة و الإسلامیة و لکن لهم مطلق الاختیار لمتابعة الدراسة الجامعیة بعد تخرجهم سواء فی کلیات الأزهر أو فی غیرها من الکلیات و المعاهد العالیة.

* میزانیة الازهر تطورت علی ثلاث مراحل:

۱- فی سنة ۱۹۴۰ کانت حوالی ۳۴۲ الف جنیه.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۲

۲- فی سنة ۱۹۵۳ وصلت إلی ملیون و ۵۳۷ ألف جنیه.

۳- فی سنة ۱۹۵۸ قفزت إلی ملیونین و ۱۲۵ ألف جنیه.

و هناک مبلغ ضخم من هذه المیزانیة یصل إلی ۲۵۰ الف جنیه ینفق علی المبعوثین فی آسیا و إفریقیا إلی کلیات الأزهر و معاهدة فی مدینة البعوث الإسلامیة و رصد فی المیزانیة الأخیرة ۲۱ ألف جنیه لإعادة ترمیم الجامع الأزهر و تجدیده.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۳

الباب الثالث شیوخ الأزهر

اشارة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۵

الفصل الأول مشیخة الأزهر و شیوخه

وظیفة خطیب الأزهر:

نقل المقریزی فی مواضع مختلفة إشارات لبعض مؤرخی الدولة الفاطمیة عن «خطیب الجامع الأزهر». من ذلک ما نقله عن ابن الطویر فی تقدیم خطیب الجامع الأزهر فی إلقاء الخطبة بین یدی الخلیفة فی أیام الموالد الستة التی کانت تحتفل بها الخلافة الفاطمیة، و هی المولد النبوی و مولد أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، و مولد ولدیه الحسن و الحسین، و مولد زوجته السیدة فاطمة الزهراء، و مولد الخلیفة القائم .

و کذلک کان «خطیب الجامع الأزهر» یذکر فی وصف الاحتفال بلیالی الوقود، حیث یخطب أیضا بین یدی الخلیفة فی هذه اللیالی الأربع متقدما زملاءه من خطباء المساجد الأخری . فالإشراف علی الجامع الأزهر- کما یقول عنان- کان یجری فی ظل الدولة الفاطمیة علی هذا النحو:

ما تعلق بإصلاحه و عمارته و الإنفاق علیه یرجع أمره إلی الخلفاء أو من یختارونه لذلک من الأمراء و الوزراء.

و ما یتعلق بشئون الصلاة یرجع إلی الخطیب و إلی عدد من الأئمة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۶

و القومة و المؤذنین، و الخطیب فی الواقع هو رئیس الجامع الدینی و هو الذی یتولی الخطابة فی الصلوات الجامعة، و الحفلات الدینیة الرسمیة بین یدی الخلیفة أو نائبه، و یدیر شئون المسجد الدینیة بوجه عام.

و یبدو أن وظیفة «خطیب» الجامع الأزهر لبثت تنمو فی الأهمیة علی ممر الزمن تبعا لنمو أهمیة الازهر نفسه، فهی فی أواخر الدولة الفاطمیة تسند إلی رجال من أصحاب المناصب الدینیة الرفیعة مثل داعی الدعاة، فقد ذکر ابن میسر فی أخبار سنة ۵۱۷ ه أنه قد أسند إلی داعی الدعاة أبی الفخر صالح «منصب الخطابة بالجامع الأزهر» مع خزانة الکتب .

أما إدارة المسجد الداخلیة من قرش و تنظیم و تجمیل فترجع إلی المشرف و معاونیه من العمال و الخدم.

و أما ما یتعلق بشئون الدراسة و الأساتذة و الطلاب و النفقة علیهم، فقد رأینا أنه یرجع إلی الخلفاء و إلی ذوی البر من أکابر رجال الدولة، و قد کان العزیز باللّه و وزیره ابن کلس أول من رتب النفقة الدائمة للقراء و الأساتذة بالأزهر، و حذا حذوهما فی ذلک الخلفاء و الأمراء و الکبراء؛ فی مختلف الدول و العصور.

و هذا النظام فی الإشراف علی الجامع الأزهر ربما لبث متبعا فی جوهره بعد الدولة الفاطمیة، فمثلا نری فی أواخر القرن الثامن، فی عهد الملک الظاهر برقوق، ولایة النظر علی الجامع الازهر، تسند فی سنة ۷۸۴ ه إلی الطواشی بهادر مقدم المماليک السلطانیة، و فی أثناء ولایته صدر مرسوم ملکی یقضی بأن من توفی من مجاوری الجامع دون وارث شرعی، و خلف ترکة، فإنها تؤول إلی زملائه المجاورین «و فی سنة ۸۱۸ ه فی عهد السلطان المؤید ولی نظر الجامع الأمیر سودوب القاضی حاجب الحجاب.

فکان مما قرره منع المبیت بالجامع الازهر، و أخرج المجاورین الذین

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۷

اعتادوا السکنی فیه . و بعد ذلک بقلیل فی زمن السلطان المؤید أیضا ولی نظر الجامع شمس الدین محمد الماحوری، أحد تجار الکارم و الجوهر، و کان من أصدقاء المؤید. و ذلک بطریق النیابة عمن له النظر علی الجامع (و لعله الأمیر سودوب أیضا)، فاستعمل

القسوة فى تنظيم شئونه الداخلية، و كان يطوف و معه عصى لردع المخالفين، و قاسى الطلاب منه شدة .. على أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الإدارية مما يتعلق بإصلاحه و تعميره و الإنفاق عليه، و تعيين الموظفين اللازمين لإدارته.

أما شئون العبادات فقد كانت دائما من اختصاص خطيب الجامع و إمامه. و قد كان يلى خطابة الجامع الأزهر فى العصور المتأخرة و العصور المتقدمة أكابر القضاة و العلماء، فنرى بين خطباء الجامع الأزهر فى أواخر القرن السابع الهجرى قاضى القضاة تقى الدين أبا القاسم ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، و فى أوائل القرن التاسع قاضى القضاة الحافظ ابن حجر العسقلانى .. و كان يوجد دائما إلى جانب منصب الخطيب منصب الإمام يشغله أيضا بعض العلماء الأعلام، و صاحبه يلى الخطيب فى الأهمية، و يعاونه فى القيام بشئون العبادات. و ثمة منصب هام آخر هو منصب «الواعظ» يليه أيضا جماعة من أكابر العلماء، و قد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركى. و كان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر فى العصور المتأخرة الفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات، تولاها فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، و الشيخ رضوان المتوفى سنة ۱۱۱۵ .. و من الذين تولوا

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۸

منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ۹۵۰ ه، و الشيخ شمس الدين الصفدى المقدسى المتوفى فى حدود التسعين و تسعمائة .

و أما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى السلطان و وزرائه. و قد كانت مناصب التدريس فى الأزهر و ما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة، فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة و العلماء، بيد أنه كان للواقفين و الواهبين بلا ريب رأى فى تعيين أنواع العلوم التى يخصونها بهباتهم، و فى اختيار الأساتذة الذين يتولون تدريسها.

منصب مشيخة الأزهر:

و إذا كان من المستطاع أن يتتبع الباحث بعض النصوص و الإشارات التى تلقى ضوءا على نظم الإشراف على الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى و فى عصور السلاطين، فإنا لا نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت النظم إلى نظام المشيخة الحالى. و من المعروف الذائع أن نظام المشيخة الحالى إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين و نصف و أنه طبق لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد عبد الخرشى المالكى المتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ۱۱۰۱ ه (۱۶۹۰ م)، و خلفه فى المشيخة الشيخ محمد النشرتى المالكى. و لما توفى هذا الشيخ سنة ۱۱۲۰ ه (۱۷۰۸ م)، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة و التدريس فتنة شديدة، و انقسم المجاورون- الطلاب- فرقتين: ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى و ترشح الأخرى الشيخ عبد الباقى القلينى و كلاهما من المالكية. و وقعت بين الفريقين معارك قتل و جرح فيها كثيرون. و انتهى الأمر باستقرار الشيخ القلينى فى المشيخة و التدريس.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۲۹

و الظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا المنهج فى نظام الوظائف الدينية الرئيسية. و قد يرجع التفكير فيه و فى قيامة إلى منتصف القرن العاشر الهجرى. ذلك أن ولاة الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة، و كان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد و المعاهد الإسلامية مركز الصدارة، و يزخر دائما بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين و إخوانهم من سائر أنحاء العالم الإسلامى، هم صفوة الأئمة و الأساتذة فى ذلك العصر، و من المعقول أن تكون رياسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة فى نظر ولاة الأمور. و إذا كان الجبرتى لم يذكر شيخا للأزهر قبل الشيخ الخرشى المتوفى سنة ۱۱۰۱ ه، فإنه من جهة أخرى لم يقل بصفة قاطعة انه كان أول من ولى المشيخة. و مع أنه لم يعثر كذلك فيما أتيح من المراجع على نصوص قاطعة تلقى ضوءا واضحا على أصل مشيخة الأزهر و الوقت الذى بدأ فيه تطبيق هذا النظام. فإنه توجد مع ذلك قرائن عديدة، تدل على أنه يرجع إلى ما قبل

أواخر القرن الحادی عشر بکثیر.

من ذلک ما رواه صاحب کتاب «ذخیرة الأعلام» فی حدیثه عن واقعة الشیخ شهاب الدین أحمد بن عبد الحق السنباطی مع داود باشا الذی تولی ولایة مصر سنة ۹۴۵ ه (۱۵۳۸ م)، فقد ذکر أنه حدث فی شهر شعبان سنة ۹۵۰ ه أن الشیخ ابن عبد الحق قال یوما لداود باشا و هو فی موکبه: أنه رقیق لا یجوز له أن یتولی الأحکام، و أن أحکامه باطلة ما لم یحصل علی عتقه .. ثم یقول فی قصیدته التی یروی فیها تفاصیل هذه الواقعة:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۰

لما صغی الباشا للکلام هم بضرب الشیخ بالحسام قال له الجند فدع جذب الحسام فإن هذا شیخ الإسلام الإمام

و انحاز الجند للشیخ، فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة إلی السلطان فأنعم علیه بعتقه مع تبلیغ الشکر إلی الشیخ. و سعی الباشا بعد ذلک إلی الشیخ و استرضاه و قبل رجله، و لم یقبل الشیخ منه مالا و لا هدیة، و لکنه أصبح من ذلک الحین لا یرد للشیخ رأیا و لا شفاعة .

و المهم فی هذه الروایة هو نعت الشیخ ابن عبد الحق «بشیخ الإسلام الإمام»، فإنا نعرف أن لقب شیخ الاسلام کان یطلق قبل الفتح العثمانی علی «قاضی القضاة» الشافعی، و قد کان آخر من لقب بهذا اللقب من المصریین قاضی القضاة شهاب الدین أحمد بن عبد العزیز بن علی المتوفی سنة ۹۴۹ ، فلما ألغی الترک نظام القضاء المصری، و أقاموا فی ریاسة القضاء قاضیا ترکیا، کان هذا اللقب یطلق فیما بعد علی أکابر العلماء الذین یصلون إلی مرتبة الزعامة العلمیة أو علی شیوخ الجامع الأزهر و الأغلب أن یطلق علی هؤلاء الشیوخ.

فهل کان ابن عبد الحق شیخا للجامع الأزهر؟ لقد جاء فی ترجمته أنه کان واعظا بالجامع الأزهر. و قال معاصره الإمام الشعرانی عنه ما یأتی:

«لم نر أحدا من الوعاظ أقبل علیه الخلائق مثله. کان إذا نزل من فوق الکرسی، یقتتل الناس علیه، و کان متفننا فی العلوم الشرعیة، و له الباع الطویل فی معرفة مذاهب المجتهدین. و کان من رؤوس أهل السنة و الجماعة، و کان قد اشتهر فی أقطار الأرض کالشام و الحجاز و الیمن و الروم، و صاروا یضربون به المثل، و أذعن له علماء مصر الخاص منهم و العام»، ثم قال: «و لما مات أظلمت مصر لموته و انهدم رکن عظیم من

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۱

الدین»، و کانت وفاة ابن عبد الحق، حسبما ذکر صاحب الکواکب السائرة فی أواخر صفر سنة ۹۵۰ ه .

لا- یمیل المؤرخون إلی القطع بأن ابن عبد الحق کان شیخا للجامع الأزهر. و نستطیع القول بإنه یوجد ثمة فی ترجمته و فیما نعته به صاحب الذخیرة ما یحمل علی الظن بأنه کانت له صفة الریاسة بالأزهر من مشیخة أو غیرها .

و من ذلک ما رواه فون همار مؤرخ الدولة العثمانیة فی تاریخه عما حدث بمصر من الاضطرابات فی سنة ۱۰۶۷ ه (۱۶۵۸ م) فی عهد الوالی محمد باشا المعروف بشاه سور زاده (و نقله سامی باشا فی کتابه) إذ یقول:

«جرد هذا الوالی حملة ضد کاشف البهنسی محمد بک فقتل هذا الأمیر وجیء برأسه إلی القاهرة. و قد قتل غیره من الأمراء، و أدت زیادة الاضطرابات إلی أن عقد مجلس کان فیه القاضی و شیخ الجامع الأزهر و غیرهما، فتقرر فیه الفتوی بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم الأوامر السلطانیة، فجرد علیهم و حاربهم» .

و هنا- نجد أنفسنا کما یقول عنان- أمام ذکر صریح «لشیخ الجامع الأزهر» و إن کنا لا نعرف من هو هذا الشیخ، و ذکره یجیء فی مناسبة تتقدم التاریخ الذی اصطلح علی رد المشیخة إلیه بنحو أربعین عاما. و من ذلک ما أورده الجبرتی فی ترجمة العلامة إبراهیم بن محمد بن شهاب الدین بن

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۲

خالد البروماى المتوفى سنة ۱۱۰۶ ه، فقد ذكر صراحة انه كان شيخا للجامع الأزهر ، فمتى كان ذلك، لا ريب انه تولى المشيخة قبل أن يتولاها الشيخ الخرشى فى أواخر القرن الحادى عشر، و قد توفى الشيخ الخرشى كما تقدم فى سنة ۱۱۰۱ ه و تولى المشيخة من بعده الشيخ النشرتى المتوفى سنة ۱۱۲۰ ه فربما كان البرماوى المتوفى سنة ۱۱۰۶ قد تولى المشيخة قبلهما، اى فى أواخر القرن الحادى عشر حوالى سنة ۱۰۸۰ الى سنة ۱۰۹۰ ه.

فمشيخة الأزهر إذا ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر فقط، و الشيخ الخرشى كان أول من تولاها غالبا.

و المرجح أن هذا النظام يرجع إلى أواسط القرن العاشر، و أنه يمت كما قدمنا بصلة إلى التغييرات التى أحدثها الترك العثمانيون فى الوظائف الدينية الكبرى، و قد كان لشيخ الجامع الأزهر و علمائه نفوذ خاص يعتمد عليه ولاة الأمر كلما اقتضت الظروف و الحوادث. و قد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة و الزعامة فى أواخر القرن الثالث عشر، و لا سيما وقت مقدم الحملة الفرنسية، حيث كان لأكابر الشيوخ رأى بارز فى معظم الحوادث و الشؤون الداخلية، و كانوا يعتبرون دائما ممثلى الأمة، و كان منهم أعضاء الديوان الذى ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة. و كان لهم نفوذ يذكر فى سير الحوادث فى ذلك الحين.

و من المعروف أن العصر التركى هو أكثر العصور فى تاريخ مصر الإسلامية غموضا و اضطرابا، و أقلها وثائق و مراجع، لما حدث فيه من اضمحلال الحركة الأدبية. و فتور الهمم عن التأليف، و انصراف المؤرخين عن تناول الشؤون العامة و الأمور النافعة، إلى ملق الحكام و تدوين سيرهم الشخصية.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۳

فلم يكن للأزهر إذن شيخ من قبل عهدهم يتولى رياسة الدينية.

و يدير شؤونه الإدارية. بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر و أمراؤها، كباقى المساجد الجامعة بالديار المصرية. و يباشر شؤونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة و شيوخ الأروقة يعاونهم خطيب المسجد.

و المشرف و معاونوه من العمال و الخدم .. و بقى هذا النظام متبعا فى الجامع الأزهر غالبا مدة حكم الفاطميين و الأيوبيين و المماليك الأولى (البحرية)، و فى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر: «ناظر» سنة ۷۸۴ ه (۱۳۸۲)، و كان «ناظر الأزهر» يختار من بين كبار موظفى الدولة، و كان هذا «الناظر» هو الأمير «بهادر» الطواشى كبير المماليك السلطانية، و كان «ناظر الجامع الأزهر» ينوب عن سلطان مصر، أو حاكمها، فى الإشراف على شؤون الأزهر، و القيام على تنفيذ الأوامر و الأحكام السلطانية، و السهر على رعاية مصالح الجامع الأزهر، و مصالح أهله من علماء و طلاب. و قد عرف من «نظار» هذا العهد المملوكى أيضا الأمير «سودوب» القاضى و حاجب الحجاب، ولى «نظارة الجامع الأزهر» سنة ۸۱۸ ه (۱۴۱۵ م) .. و لما استولى الأتراك العثمانيون على مصر سنة ۹۲۳ ه (۱۵۱۷ م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر و أمرائها، فحافظوا على الأوضاع المرعية فى الأزهر، و اهتموا برعاية شؤونه، و السهر على مصالح أهله، و اقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الإسلامى حقه من الرعاية و التقدير، و جددوا به كل دارس، و زادوا فى عمارته، و وسعوا من رقعته، و أوقف الأمراء، و الولاة و كبار رجال الدولة و الأعيان الكثير من الأموال و الأملاك، و العقارات على علمائه و طلبته، فاتسعت إدارته، و تشعبت مصالح أهله، و أصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شؤون هذا المعهد الدينية و الإدارية معا، و يكون رئيسا لشيوخ المذاهب و الأروقة، و سائر علماء الأزهر و طلابه، و مسؤولا مباشرة أمام الولاة و السلاطين، و حلقة اتصال بين الحكومة و أقسام الأزهر

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۴

المختلفة، فاستحسنت «الدولة العلية» قبيل نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أن يعين للأزهر: «شيخ عموم» يدير شؤونه، و يراقب أموره من تعاليم و غيرها، و يلقب: «بشيخ الجامع الأزهر».

و منذ العهد التركى العثمانى و الجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة، التى تطورت مظاهرها، و اتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن، و مقتضيات الظروف و الأحوال، حتى آلت إلى ما هى عليه الآن.

و اليوم يختار «شيخ الجامع الأزهر» من بين جماعة كبار العلماء، ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية: أن تكون سنة خمسا و أربعين سنة على الأقل، و أن يكون معروفا بالورع و التقوى فى ماضيه و حاضره، و حائزا لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل، و أن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى إحدى كليات الجامع الأزهر، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ۱۰ لسنة ۱۹۱۱ م، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية، أو كان عضوا بالمحكمة العليا الشرعية.

و يعين «شيخ الجامع الازهر» بأمر جمهورى، و يصير من يعين شيخا للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضوا فى هذه الجماعة بحكم القانون.

شيوخ الأزهر:

و قد تولى مشيخة الأزهر كثير من الأئمة الأعلام، و هم: الأزهر فى ألف عام ؛ ج ۱ ؛ ص۲۳۴

الشيخ الخرشى المالكى- و ترجمة فى تاريخ الجبرتى الجوء الأول ص ۶۵- و قد توفى الخرشى ۱۱۰۱ ه .

و يعد أول من تولى مشيخة الأزهر، و هو الشريف الإمام أبو عبد اللّه

الأزهر فى ألف عام، ج ۱، ص: ۲۳۵

محمد بن عبد اللّه الخرشى المالكى، و الخرشى نسبة لبلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة بالديار المصرية، انتهت إليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته، و كان متواضعا عفيفا واسع الخلق كثير الأدب و الحياء كريم النفس حلو الكلام كثير الشفاعات عند الأمراء مهيب المنظر دائم الطهارة كثير الصمت كثير الصيام و القيام زاهدا ورعا متقشفا فى مأكله و ملبسه و مفرشه، و كان لا يصلى الصبح صيفا و شتاء إلا بالجامع الأزهر، و كان يقضى مصالحه من السوق بيده و مصالح بيته فى منزله، يتعمم بشملة صوف بيضاء، و كانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية و اشتهر فى بلاد الأرض من بلاد الغرب و التكرور و الشام و الحجاز و الروم و اليمن، و كان يعير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة ايثارا لوجه اللّه تعالى، و لا يمل فى درسه من سؤال سائل، و كان أكثر قراءته بالأقبغاوية، و كان له فى منزله خلوة للعبادة، و من مشايخه: على الاجهورى و إبراهيم اللقانى، و والده الشيخ عبد اللّه الخرشى، و مات فى ۲۷ ذى الحجة ۱۱۰۱ ه و دفن مع والده بقرب مدفن سيدى محمد البنوقرى بواسطة قرافة المجاورين. و له شرحين على متن خليل، و كتاب فى الكلام و هو أول شيخ تولى مشيخة الأزهر الشريف، و كان فى العلم غاية لا تنال .. و يقول الشيخ منصور رجب من مقال نشره عنه فى مجلة الأزهر:

أول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد اللّه على الخرشى المالكى المتوفى سنة ۱۱۰۱ ه نسبة إلى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها «أبو خراش». و هذه القرية يقول عنها المرحوم على مبارك باشا فى خططه : «إنها بقسم شبراخيت واقعة فى بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر، و فى قبلى «محلة نابت» بنحو ثمانمائة متر، و ابنيتها باللبن، و بها جامع ضريح لولى عليه قبة، و فى مشرقيها ضريح سيدى عطية، و بها إبعادية لمنصور باشا يكن، و فيها- لعمدتها محمد عمر- دوار و مضيفة

الأزهر فى ألف عام، ج ۱، ص: ۲۳۶

و زراعة متسعة نحو ألف فدان، و بها بستان نضر، و أكثر أهلها مسلمون».

و الشيخ الخرشى هذا ترجمه الشيخ على الصعيدى العدوى فى حاشيته على شرحه الصغير لمتن خليل، فقال: «هو العلامة الإمام، و القدوة الهمام، شيخ المالكية شرقا و غربا، قدوة السالكين عجما و عربا، مربى المريدين، كهف السالكين، سيدى أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن على الخرشى، و نسب عصبته بأولاد صباح الخير، انتهت إليه الرياسة فى مصر حتى لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته و

طلبة طلبته، و كان متواضعا عفيفا، واسع الخلق، كثير الأدب و الحياء، كريم النفس، جميل المعاشرة حلو الكلام، كثير الشفاعات عند الأمراء و غيرهم، مهيب المنظر، دائم الطهارة، كثير الصمت، كثير الصيام و القيام، زاهدا ورعا، متقشفا فی مأكله و ملبسه و مفرشه و لا يصلی الصبح صيفا و لا شتاء إلا بالجامع الأزهر، و يقضی بعض مصالحه من السوق بيده و مصالح بيته فی منزله. و يقول من عاشره: ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه، و كان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء، و كانت ثيابه قصيرة علی السنة المحمدية، و اشتهر فی أقطار الأرض، كبلاد الغرب و الشام و الحجاز و الروم و اليمن، و كان يعير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب، مع السهولة إيثارا لوجه اللّه تعالی، و لا يمل فی درسه من سؤال سائل، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقانی و أبی الضياء علی الأجهوری. و كان أكثر قراءته بمدرسة الأقبغاوية. و كان يقسم متن خليل نصفين: نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن، و يقرأ النصف الثانی فی اليوم الثانی، و كان له فی منزله خلوة يتعبد فيها، و كانت الهدايا و النذور تأتيه من أقصی بلاد الغرب و غيرها فلا يمسك منها شيئا، بل أقاربه و معارفه يتصرفون فيها.

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ علی الأجهوری، و خاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقانی، و الشيخ يوسف القيشی و الشيخ عبد المعطی البصير، و الشيخ يسن الشامی، و والده الشيخ عبد اللّه الخرشی، و تخرج عليه جماعة حتی وصل ملازموه نحو مائة، منهم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۷

العارف باللّه الشيخ أحمد اللقانی، و الشيخ محمد الزرقانی، و الشيخ علی اللقانی، و الشيخ شمس الدين اللقانی، و الشيخ داود اللقانی، و الشيخ محمد النفراوی، و أخوه الشيخ أحمد، و الشيخ الشبراخيتی، و الشيخ أحمد الفيومی، و الشيخ إبراهيم الفيومی، و الشيخ أحمد الشرفی، و الشيخ عبد الباقی القلينی و الشيخ علی المجدولی. و لما توفی فی صبيحة يوم الأحد السابع و العشرين من شهر ذی الحجة سنة ۱۱۰۱ دفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف باللّه سيد محمد البنوقری بوسط تربة المجاورين.

يقول: و قبره مشهور، و ما رأيت فی عمری أكثر خلقا من جنازته إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحی، و الشيخ محمد البابلی.

و له مؤلفات، منها شرحه الكبير علی متن خليل ثمانية أجزاء، و شرحه الصغير علی خليل أيضا أربعة أجزاء، و له جزء فی الكلام علی البسملة نحو أربعين كراسة، و غير ذلك.

هذا هو الشيخ محمد الخرشی أول شيخ من أبناء الأزهر تولی هذه الرياسة الدينية العامة. و لقد كانت مصر أول ما عرفت من مذاهب الفقهاء عرفت مذهب مالك، فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيی مولی جمح و توفی بالإسكندرية سنة ۱۶۳ ه، فی أيام الليث بن سعد، و اشتهر بمصر هذا المذهب، و لم يزل مشتهرا حتی قدم محمد بن إدريس الشافعی فی سنة ۱۹۸. أما مذهب أبی حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك و الشافعی. و الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا فی القرن السابع.

و كان التفاف الناس فی ذلك العصر حول مذهب مالك و الشافعی أكثر من التفافهم حول مذهب أبی حنيفة، حتی أن مدرسة محمد بك أبی الذهب قبيل عصر الشيخ الخرشی بقليل لما وظف بها المدرسون و كانوا ستة عشر مدرسا، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية و ستة من شيوخ المالكية، و ثلاثة من شيوخ الحنفية. و كان الإفتاء فی ذلك الوقت لا يقتصر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۸

علی مذهب بعينه، بل كان لكل مذهب مفت. و كان المفتون يجلسون بعد دروسهم لإفادة الناس، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن برسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين، و كان منهم الشيخ أحمد الدردير مفتی المالكية، و الشيخ عبد الرحمن العريشی مفتی الحنفية، و الشيخ الكفراوی مفتی الشافعية. و كان الأزهر يتولی شئونه فی أول عهده رجل يسمی مشرف. و فی عهد المماليك كان يتولی أمره رجل من كبار الموظفين يسمی ناظرا، منهم الأمير الطواشی بهادر المقدم علی المماليك السلطانية، ولی نظره فی سنة ۸۷۴ ه و هو الذی أنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضا إذا مات أحدهم و

لم یکن له وارث شرعی. و منهم الأمیر سودوب القاضی حاجب الحجاب، ولی نظره سنة ۸۱۸ ه. أما تلک الریاسة الدینیة العلمیة فعرفها الأزهر فی العهد الترکی بلقب «شیخ الأزهر» .. و لقد توالی علی هذه الریاسة منذ إنشائها حتی الآن أربعون شیخا، و أولهم الشیخ الخرشی هذا.

۲- و تقلدها علی الأرجح بعده الشیخ إبراهیم بن محمد البرماوی الشافعی و بقی فیها إلی أن توفی سنة ۱۱۰۶ ه.

۳- الشیخ محمد النشرتی المالکی و قد توفی عام ۱۱۲۰ ه و هو ثالث شیخ للأزهر.

۴- و خلفه الشیخ عبد الباقی القلینی المالکی فی المشیخة و التدریس ، و لما مات تقلدها بعده الشیخ محمد شنن.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۳۹

۵- الشیخ العلامة شیخ الجامع الأزهر الشیخ محمد شنن المالکی .. توفی سنة ۱۱۳۳ ه عن سبع و سبعین سنة .

۶- الشیخ ابراهیم بن موسی الفیومی المالکی شیخ الجامع الأزهر .. تفقه علی الشیخ محمد بن عبد اللّه الخرشی، قرأ علیه الرسالة و شرحها، و کان معیدا له فیهما. و تلبس بالمشیخة بعد موت الشیخ محمد شنن، و مولده سنة ۱۰۶۲ .. و أخذ عن الشبراملسی و الزرقانی و الشهاب أحمد البشبیشی و غیرهم کالشیخ الغرقاوی و علی الجزایرلی الحنفی. و أخذ الحدیث عن یحیی الشاوی و عبد الرحمن الأجهوری و الشیخ ابراهیم البرماوی، و له شرح علی العزیة فی مجلدین ...

توفی سنة سبع و ثلاثین و مائة و ألف عن خمس و سبعین سنة .

۷- و لما مات الشیخ الفیومی المالکی شیخ الجامع الأزهر عام ۱۱۳۷ ه، انتقلت المشیخة الی الشافعیة، فتولاها الشیخ عبد اللّه الشبراوی. و یتحدث الجبرتی عن جاهه و مکانته و یذکر أسماء بعض شیوخه، و منهم: الشیخ خلیل اللقانی، و الشهاب الخلبقی، و محمد بن عبد الباقی الزرقانی، و أحمد النفراوی، و الشیخ منصور المنوفی، و صالح الحنبلی، و سواهم .

و کان طلبة العلم فی أیام مشیخته فی غایة الأدب و الاحترام.

و من آثاره: مفاتح الالطاف فی مدائح الأشراف، و شرح الصدر فی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۰

غزوة بدر و توفی سنة ۱۱۷۱ ه، عن ثمانین سنة، و صلی علیه بالأزهر .

و صار لأهل العلم فی مدته رفعة و مقام و مهابة عند الخاص و العام، و لم یزل یملی و یدرس و یفید، و عد إماما عظیما. و کان مقبول الشفاعة، و هاداه الأمراء، و عمر دارا عظیمة علی برکة الازبکیة بالقرب من الرویعی.

و من آثاره «شرح الصدر فی غزوة بدر» و «مفاتح الألطاف فی مدائح الإشراف.

و هو دیوان یحتوی علی غزلیات و أشعار و مقاطیع، و قد ذهب الجبرتی و غیره الی أن مفاتح الألطاف هذا کتاب غیر الدیوان، و لیس کذلک فإنه یقول نفسه فی فی مقدمة الدیوان «و سمیته مفاتح الألطاف ...» و هو القائل لهذه القصیدة العذبة التی تسیل عذوبة ورقة المشهورة علی ألسنة بعض المغنین:

بحقک أنت المنی و الطلبو أنت المراد و أنت الأرب

ولی فیک یا هاجری صبوةتحیر فی وصفها کل صب

أبیت أسامر نجم السماإذا لاح لی فی الدجی أو غرب

و أعرض عن عاذلی فی هواکإذا نم یا منیتی أو عتب

أمولای باللّه رفقا بمنالیک بذل الغرام انتسب

فانی حسیبک من ذی الجفاو یا سیدی انت أهل الحسب

و یا هاجری بعد ذاک الرضابحقک قل لی: لهذا سبب؟

فانی محب کما قد عهدتو لکن حبک شیء عجب

متی یا جمیل المحیا أریرضاک و یذهب هذا الغضب؟

أشاع العذول بأنی سلوتو حقک یا سیدی قد کذب

و مثلک ما ینبغی أن یصدو یهجر صبا له قد أحب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۱ أشاهد فیک الجمال البدیعفیأخذنی عند ذاک الطرب

و یعجبنی منک حسن القوامو لین الکلام و فرط الأدب

و حسبک أنک أنت المالیحالکریم الجدود العریق النسب

أما و الذی زان منک الجبینو أودع فی اللحظ بنت العنب

و أنبت فی الخد روض الجمالو لکن سقاه بماء اللهب

لئن جدت أو جرت أنت المرادو ما لی سواک ملیح یحب

۸- الشیخ محمد بن سالم الحفنی الشافعی الخلوتی الحسینی (۱۱۰۰- ۱۱۸۱ ه) ولد فی حفنا قرب بلبیس، و قرأ بها القرآن إلی الشعراء .. ثم أکمله فی القاهرة ثم اشتغل بحفظ المتون، و أخذ العلم عن علماء عصره، و أجازوه بالإفتاء و التدریس، فدرس الکتب الدقیقة کالأشمونی و جمع الجوامع و المنهج و مختصر السعد، و شهد له معاصروه بالتقدم فی العلوم .. و کان یتردد علی زاویة سیدی شاهین الخلوتی بسفح الجبل متحنثا .. و اشتغل بعلم العروض حتی برع فیه، و عانی النظم و النثر، و تخرج علیه غالب أهل عصره.

و من تآلیفه: حاشیة علی شرح رسالة العضد علی السعد، و علی الشنشوری فی الفرائض، و علی شرح الهمزیة لابن حجر، و علی مختصر السعد، و علی شرح السمرقندی للیاسمینیة فی الجبر و المقابلة.

و هو صاحب .. أحدتک حدوتة، بالزیت ملتوتة، حلفت ما آکلها، حتی یجی تاجرها الخ.

و توفی عام ۱۱۸۱ ه .

و کان قطبا و علما شهیرا، و أوحد أهل زمانه علما و عملا، و هو الإمام محمد بن سالم الحفناوی الشافعی الخلوتی ولد بحفنة قریة من قسم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۲

بلبیس من مدیریة الشرقیة بالقطر المصری علی رأس المائة الحادیة عشرة و هو شریف حسینی من جهة أم أبیه نشأ بالقریة المذکورة و حفظ بها من القرآن إلی سورة الشعراء و ألزمه أبوه بالمجاورة بالأزهر فکمل حفظ القرآن، ثم قدم مصر و حفظ المتون و اجتهد فی تحصیل العلوم و أخذ من علماء عصره حتی مهر، و أفاد حیاة أشیاخه و أجازوه بالإفتاء و التدریس فدرس الکتب الدقیقة من غالب الفنون و کان فی ضیق من العیش فاشتغل بنسخ الکتب، ثم من اللّه علیه بکرامات فترک النسخ فأقبلت علیه الدنیا و کان یتردد إلی زاویة الشیخ جاهین الخلوتی فی سفح الجبل، و کان یمکث فیها اللیالی متحنثا أی متعبدا و تخرج من درسه غالب علماء عصره، و له مؤلفات کثیرة منها حاشیة علی شرح العضد للسعد و حاشیة علی الشنشوری فی الفرائض و حاشیة علی مختصر السعد و حاشیة علی شرح السمرقندی للیاسمینیة فی الجبر و المقابلة و حاشیة علی شرح العزیزی للجامع الصغیر .. و کان کریم الطبع جدا و لیس للدنیا عنده قدر.

۹- الإمام العلامة الفقیه شیخ الإسلام الشیخ عبد الرؤوف بن محمد السجینی الشافعی الأزهری شیخ الأزهر .. تولی مشیخة الأزهر بعد الحفنی إلا أنه لم تطل مدته .. و توفی سنة ۱۱۸۲ ه .

و قد أخذ العلوم عن عمه الشمس السجینی و لازمه، و بعد وفاته درس فی موضعه و بعد أن تولی مشیخة الأزهر سار فیها بشهامة و صرامة و توفی سنة ۱۱۸۲، و صلی علیه بالأزهر و دفن بجوار عمه بأعلی البستان، و اتفق أنه وقعت له حادثة قبل مشیخته علی الجامع

الأزهر بمدة و هی التی کانت سببا لاشتهاره بمصر، و ذلک أن تاجرا من تجار خان الخلیلی تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلک الخادم و فر من أمامه فتبعه هو و اثنان من أبناء جنسه فدخل الفارّ بیت الشیخ السجینی فدخل التاجر خلفه و ضربه برصاصة فأصابت رجلا من أقارب الشیخ فمات و هرب الضارب و طلبوه فامتنع علیهم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۳

و تعصب معه أهل خطته فاهتم الشیخ و جمع المشایخ و القاضی و حضر إلیهم جماعة من أمراء الوجاقیة و انضم إلیهم الکثیر من العامة و ثارت الفتنة و أغلقت الناس الأسواق و اعتصم أهل خان الخلیلی بدائرتهم و أحاط الناس بهم من کل جهة و قتل بین الفریقین عدة أشخاص و استمر الحال علی ذلک أسبوعا، ثم اجتمعوا بالمحکمة بعد حضور علی بک و اجتمع الأمر علی الصلح و نودی فی صبیحتها بالأمان، و فتحت الحوانیت و الأسواق.

۱۰- الشیخ الإمام أحمد بن عبد المنعم بن یوسف بن صیام الدمنهوری الأزهری (۱۱۰۱- ۱۱۹۲ ه).

ولد بدمنهور و قدم الأزهر و هو صغیر فجد فی الطلب، و أجازه علماء المذاهب الأربعة، و ولی مشیخة الجامع الأزهر بعد الشیخ الحفنی عام ۱۱۸۲ ه: ۱۷۶۷ م.

و له مؤلفات کثیرة، منها حلیة اللب المصون بشرح الجوهر الکنون، و القول الصریح فی علم التشریح، و الزهر الباسم فی علم الطلاسم، و منهج السلوک إلی نصیحة الملوک. و کان مسکنه ببولاق و صلی علیه بالأزهر .

و کان یدرس بالمشهد الحسینی فی شهر رمضان و هابته الأمراء لکونه قوالا للحق أمارا بالمعروف، و قصدته الملوک من الأطراف و هادته بالهدایا، و من مؤلفاته شرح الجوهر الکنون و منتهی الإرادات فی تحقیق الاستعارات و نهایة التعریف بأقسام الحدیث الضعیف، و الفتح الربانی بمفردات ابن جنبل الشیبانی، و طریق الاهتداء بأحکام الأمة و الابتداء علی مذهب الإمام الأعظم و إحیاء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد، و الرقائق الألمعیة علی الرسالة الوضعیة و عین الحیاة فی استنباط المیاه، و الوفق المئینی، و القول الصریح فی علم التشریح، و إقامة الحجة الباهرة علی هدم کنائس مصر و القاهرة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۴

و الزهر الباسم فی علم الطلاسم .. و له غیر ذلک من غالب الفنون، و توفی سنة ۱۱۹۲ ه: ۱۷۷۸ م و کان منزله ببولاق، فخرج بمشهد حافل، و صلی علیه بالازهر و دفن بالبستان رحمه اللّه.

۱۱- الشیخ عبد الرحمن بن عمر الحنفی الأزهری ولد بقلعة العریش من أعمال غزة و بها نشأ و حفظ بعض المتون ثم حضر فی الأزهر و تولی مشیخة رواق الشوام، و عین مفتی الحنفیة.

و أقیم وکیلا للشیخ الدمنهوری، فلما توفی الشیخ الدمنهوری تولی المشیخة، و لکن علماء الأزهر لم یرضوا عنه و کتبوا للأمراء بأن مشیخة الأزهر من مناصب الشافعیة، و لیس للحنفیة فیها قدیم عهد أبدا، و خصوصا إذا کان آفاقیا لیس من أهل البلدة، و رشحوا للمشیخة الشیخ أحمد العروسی، و استمر الاضطرب سبعة أشهر، ثم ثبت العروسی للمشیخة .. و توفی سنة ۱۱۹۳ ه.

۱۲- الشیخ أبو الصلاح أحمد بن موسی العروسی الشافعی، ولی المشیخة و بقی فیها إلی أن توفی فی أواخر شعبان سنة ۱۲۰۸ ه، و مولده ۱۱۳۲ ه، و من تآلیفه شرح علی نظم التنویر فی إسقاط التدبیر، و حاشیة علی الملوی علی السمرقندی.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۵

۱۳- الشیخ عبد اللّه الشرقاوی الشافعی شیخ الجامع الأزهر، ولد بالطویلة بشرقیة بلبیس عام ۱۱۵۰ و تعلم فی الأزهر، و صار من شیوخه و مدرسیه

و لما مات الشیخ أحمد العروسی تولی مشیخة الأزهر بعده، و کانت تعارضت فیه وفی الشیخ مصطفی الصاوی، ثم انتهی الأمر بإسنادها إلیه.

و توفی عام ۱۲۲۷ ه .

کان لما ترعرع و حفظ القرآن قدم إلی الجامع الأزهر و سمع الکثیر من العلوم عن الشهابین الملوی و الجوهری و الشمس الحفنی و الشیخ الدمنهوری و السید البلیدی و الشیخ عطیة الأجهوری و الشیخ محمد الفارسی و الشیخ عمر الطحلاوی، و أخذ الطریق عن الشمس الحفنی ثم عن الشیخ محمود الکردی و لازمه و حضر معه فی أذکاره، و درس بالجامع الأزهر و بمدرسة السنانیة بالصنادقیة و برواق الجبرت و الطیبرسیة و تمیز فی الالقاء و التحریر و أفتی فی مذهبه، و له مؤلفات دالة علی سعة فضله منها حاشیة علی التحریر، و شرح نظم الشیخ یحیی العمریطی، و متن العقائد المشرقیة مع شرحها، و شرح رسالة عبد الفتاح العادلی فی العقائد، و مختصر الشمائل مع شرحه، و شرح الحکم لابن عطاء اللّه، و شرح الوصایا الکردیة فی التصوف، و شرح ورد السحر للبکری، و مختصر مغنی اللبیب فی النحو، و حاشیة علی شرح الهدهدی فی التوحید، و طبقات فقهاء الشافعیة المتقدمین و المتأخرین و تاریخ مصر، و له غیر ذلک .. و کان فی قلة من العیش ثم بعد مدة اشتهر ذکره و وصله بعض التجار بالهدایا، فراج حاله و تجمل بالملابس و اشتری دارا بحارة کتامة و هی المعروفة الآن بالدواداری قرب جامع العینی، و استمر حاله فی تحسن إلی أن مات الشیخ أحمد العروسی فتولی بعده مشیخة الأزهر، و کانت تعارضت فیه و فی الشیخ مصطفی الصاوی، ثم حصل الاتفاق علیه .. و قد أنشأ رواق الشراقوة بالأزهر لأسباب عدیدة، و حصلت

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۶

أیامه حوادث الحملة الفرنسیة و توفی فی یوم الخمیس ثانی شوال سنة ۱۲۲۷، و دفن بمدفنه الذی بناه لنفسه بقرافة المجاورین، ثم عملت أتباعه و أولاده له مولدا فی أیام مولد الشیخ العفیفی و کتبوا بذلک فرمانا من الباشا.

۱۴- و تولی الشیخ محمد الشنوانی مشیخة الأزهر بعد الشیخ الشرقاوی عام ۱۲۲۷ ه.

و قد توفی عام ۱۳۳۳ ه .. و لتولیه المشیخة قصة، هی أنه لما توفی الشیخ الشرقاوی فی السنة المذکورة طلع المشایخ إلی القلعة للباشا بعد وفاته بثلاثة أیام و استأذنوه فیمن یجعلونه شیخا علی الأزهر، فقال لهم اعملوا رأیکم و اختاروا شیخا یکون خالیا عن الأغراض و أنا أقلده ذلک فنزلوا إلی بیوتهم و اختلفت آراؤهم، فالبعض اختار الشیخ المهدی الکبیر و البعض اختار الشیخ الشنوانی و امتنع الشیخ الأمیر عن المشیخة و کذلک ابن الشیخ العروسی، و کان الشیخ الشنوانی منعزلا عنهم یقرأ درسه بجامع الفاکهانی و بیده وظائف خدمته و عند فراغه من الدرس یغیر ثیابه و یکنسه و یغسل القنادیل و یعمرها و یکنس المراحیض فلما بلغه أنهم ذکروه تغیب ..

ثم إن الباشا أمر القاضی بهجت أفندی أن یجمع المشایخ و یتفقوا علی شخص یکون شیخا بالشرط المذکور، فجمع القاضی أکابر العلماء کالقویسی و الفضالی، إلا ابن العروسی و الهیثمی و الشنوانی فأرسلوا إلیهم فحضروا، و لم یحضر الشنوانی فأرسلوا إلیه رسولا فرجع بورقة و یقول: أن له ثلاثة أیام غائبا عن داره و قال لأهله إن طلبونی فاعطوهم هذه الورقة، فأخذ القاضی الورقة ففضها و قرأها فإذا فیها بعد البسملة و الصلاة علی النبی صلی اللّه علیه و سلّم: لحضرات مشایخ الإسلام إننا نزلنا عن المشیخة للشیخ بدوی الهیثمی، فعند ذلک قام الحاضرون قومه واحدة و أکثرهم من الشوام و قالوا هو لم یثبت له مشیخة حتی ینزل عنها، و قال کبارهم لا یکون شیخا إلا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۷

من یفید الطلبة، فقال القاضی و من الذی ترضونه؟ فقالوا نرضی الشیخ المهدی، و قام الکل و صافحوه و قرءوا الفاتحة و کتب القاضی إعلاما بذلک، و رکب المهدی إلی بیته فی کبکبة و حوله المشایخ و المجاورون و شربوا «الشربات» و هنئوه و انتظروا جواب الإعلام من الباشا فلم یأت، و المدبرون بدبرون شغلهم، و أحضروا الشیخ الشنوانی من مصر القدیمة و تمموا تدبیرهم، و أحضروا الشیخ منصور الیافی لیعیدوه إلی مشیخة الشوام و جمعوا بقیة المشایخ آخر اللیل و رکبوا فی الصباح إلی القلعة فخلع الباشا علی الشیخ محمد الشنوانی فروة سمور و قرره شیخا، و کذلک علی السید منصور الیافی و قرره علی رواق الشوام کما کان، و أتی إلیه الناس أفواجا

یهنئونه بالمشیخة.

۱۵- الشیخ محمد العروسی .. و قد تولی المشیخة بعد الشیخ الشنوانی و توفی فی عام ۱۲۴۵ ه .

۱۶- الشیخ أحمد بن علی الدمهوجی .. و توفی فی ۹ من ذی الحجة عام ۱۲۴۶، و هو نسبة إلی قریة دمهوج قرب بنها.

۱۷- الشیخ حسن بن محمد العطار، توفی عام ۱۲۵۰ ه.

و کان أبوه فقیرا عطارا له إلمام بالعلم و کان یستخدم ابنه هذا فی صغار شؤون الدکان و یعلمه البیع و الشراء فاختلف إلی الجامع الأزهر خفیة عن أبیه حتی قرأ القرآن وجد فی التحصیل علی کبار المشایخ کالشیخ الصبان و الشیخ الأمیر. و لما دخل الفرنسیون مصر فر إلی الصعید کجماعة من العلماء. و لما رجع اتصل بهم فکان یستفید منهم و یفیدهم اللغة العربیة و کان یقول: إن بلادنا لا بد أن تتغیر أحوالها و یتجدد بها من المعارف ما لیس فیها و یتعجب مما وصلت إلیه تلک الأمة من المعارف و العلوم و کثرة کتبهم و تحریرها و تقریبها لطرق الاستفادة .. ثم ارتحل إلی الشام و کان

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۸

یقول الشعر دون اهتمام به کما هو عادة کثیر من العلماء، و من شعره:

إنی لأکره فی الزمان ثلاثةما إن لها فی عدها من زائد

قرب البخیل و جاهلا متفاصحالا یستحی و تودد من حاسد

و من البلیة و الرزیة أن تریهذی الثلاثة جمعت فی واحد

و ارتحل إلی بلاد الروم و أقام بها مدة و تأهل بها ثم عاد إلی مصر و عقد مجلسا لقراءة تفسیر البیضاوی، کان یحضره أکابر المشایخ.

و له تآلیف کثیرة منها:

۱- حاشیة علی جمع الجوامع نحو مجلدین.

۲- حاشیة علی الأزهریة فی النحو.

۳- حاشیة علی مقولات السجاعی.

۴- حاشیة علی السمرقندیة.

و له رسائل فی الطب، و التشریح «و الرمل»، و الزیارجة و کان یرسم بیده المزاول النهاریة و اللیلیة.

۱۸- الشیخ حسن القویسنی نسبة إلی قویسنا توفی سنة ۱۲۵۴ ه، و کان مع انکفاف بصره مهیبا جدا عند الأمراء و غیرهم.

۱۹- الشیخ أحمد الصائم السفطی نسبة إلی سفط العرفاء قریة جهة الفشن بمدیریة المنیا توفی سنة ۱۲۶۳ ه.

۲۰- الشیخ إبراهیم الباجوری من الباجور بمدیریة المنوفیة توفی سنة ۱۲۷۷ ه، و کان قویا فی علمه ضعیفا فی إداراته، و کان عباس الأول یزوره فی درسه و بعد موته بقی الأزهر مدة بلا شیخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وکلاء تحت ریاسة الشیخ مصطفی العروسی.

و هم: الشیخ العدوی المالکی، و الشیخ الحلبی الحنفی، و الشیخ خلیفة الفاشنی، و الشیخ مصطفی الصاوی الشافعیان، و کان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشیخ الباجوری و کثرت حوادث الأزهر، و لما کانت سنة ۱۲۸۱ ه تقلد المشیخة الشیخ العروسی.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۴۹

۲۱- تقلد الشیخ مصطفی العروسی کأبیه وجده المشیخة إلی عام ۱۲۸۷ ه. و لقد أبطل الشیخ العروسی کثیرا من البدع کالشحاذة بالقرآن و عزم علی إدخال الامتحانات بالأزهر ففاجأه العزل من المنصب فنفذ ذلک خلفه.

۲۲- الشیخ محمد العباسی المهدی الحنفی (۱۲۴۳- ۱۳۱۵ ه).

حضر فی الأزهر و درس فیه و تولی الافتاء عام ۱۲۶۴ ه جلس للتدریس فی الأزهر أیضا، و تولی مشیخة الأزهر جامعا بین هذا

المنصب و منصب الإفتاء، و وضع أول قانون لإصلاح الأزهر و عزل من المشيخة عام ۱۲۹۹ و تولى بدله الشيخ الإنبابى و انفرد هو بالإفتاء، ثم استقال الإنبابى فأعيد الشيخ المهدى للمشيخة، و لكنه استقال بعد مدة فأعيد الشيخ الإنبابى شيخا و عين الشيخ محمد البنا مفتيا، ثم أعيد المترجم له إلى الافتاء- و له الفتاوى المهدية (۶۷- ۸۰ تراجم أعيان القرن الثالث عشر- أحمد تيمور).

و قد عاش الشيخ محمد المهدى الحنفى- و هو من شيوخ الأزهر الأجلاء- إلى أن توفى عام ۱۳۱۵ ه.

و كان المهدى العباسى الحنفى مفتى الديار المصرية و رئيس السادة الحنيفية، و قد تقلد المشيخة أواخر سنة ۱۲۸۷ ه، فسار فيها سيرا حسنا و دان له الخاص و العام و زاد الامراء فى تعظيمه، و هو أول من تقلدها من العلماء الحنفية، و لما تقلدها قلت على يديه الشرور و المفاسد فى الأزهر و كثرت به المرتبات من النقود و الكساوى و الجرايات المتجددة، و صار لأكثر أهل الأزهر مرتبات من المالية و غيرها، و أثرى كثير منهم بسببه، و خلعت عليهم الخلع و دعوا فى المجامع الشريفة، و كان له سير بليغ فى صرف الاستحقاقات و المشى على شروط الواقفين و قوانين الحكام و هو الذى سن امتحان التدريس للعلماء .. و ذلك أنه استأذن ولى الأمر فى عمل قانون الامتحان، و اجتمع الرأى بينهم على تعيين ستة لذلك من أكابر العلماء من

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۰

كل اهل مذهب من المذاهب الثلاثة اثنان، سوى مذهب ابن حنبل لقلته، و جعل الامتحان فى أحد عشر علما من العلوم المتداولة بالأزهر و هى، الحديث، و التفسير، و الأصول، و التوحيد، و الفقه، و النحو، و الصرف، و المعانى، و البيان، و البديع، و المنطق، و من يريد الامتحان لا بد أن يكون قد حضر هذه الفنون بالجامع الأزهر و حضر كبار الكتب مثل: السعد و جمع الجوامع، ثم يقدم طلبا لشيخ الجامع يذكر فيها أنه يريد الدخول فى حومة العلماء المدرسين و ينتظم فى سلك المعلمين و يبين أنه حضر كذا و كذا من الفنون و حضر مختصر السعد و ابتدأ فى جمع الجوامع مثلا، فيؤخر الشيخ تلك الرغبة عنده حتى يستخبر عن أحواله ممن يعرف حقيقة أمره، ثم يكتب للمشايخ بإعطاء الشهادة فى حقه بالكتابة فيشهد له جمع من المشايخ أقلهم ثمانية، ثم يعين له من كل فن درسا و يعطيه ميعادا يطالع فيه كل فن فى يوم و على رأس الأحد عشر يوما ينعقد مجلس الامتحان فى بيت شيخ الجامع (و صار ينعقد فى الأزهر بالرواق العباسى)، و يجعل مريد الامتحان بمنزلة الشيخ و الممتحنين بمنزلة الطلبة فيدرس و هم يسألونه و هو يجيبهم و لا يحضر فى ذلك المجلس غيرهم فإذا أجاب فى كل فن كتب من الدرجة الأولى، و إذا أجاب فى أكثر الفنون كتب من الدرجة الثانية، و إذا أجاب فى الأقل كتب من الدرجة الثالثة، و إذا لم يجب لم يؤذن له فى شىء، ثم تكتب الشهادة لصاحب الدرجة الأولى و ترسل إلى الخديوى، فتكتب له عريضة تشريف متوجة بختم الخديوى تكون معه، و يخلع عليه فرجية و شريط مقصب بجعله فى عمامته فى موضع التشريفات و يكتب للجهات باحترامه و يخفف عنه فى السفر نصف الأجرة، و كان قد استحسن أن لا يمتحن فى العام أكثر من ستة، فإذا تراكمت الطلبات من طالبى الامتحان نظر الشيخ فى موجبات الترجيح كالشهرة بالعالمية أو الوجاهة أو سبق التاريخ أو كبر السن ... فكان هو أول من سن قانونا لامتحان طلبة الجامع الأزهر ... و ولد الشيخ المذكور بالإسكندرية سنة ۱۲۴۳ و قدم مصر سنة ۱۲۵۵ و اشتغل بالعلم فى سنة ۱۲۵۶ و تولى الإفتاء سنة ۱۲۶۴ و كان يحضر فى مقدمة السعد على الشيخ

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۱

إبراهيم السقا و فيها جلس للتدريس، ثم تولى المشيخة سنة ۱۲۸۷ و انصرف عن المشيخة و الافتاء و رجع إليهما مرتين، و من مؤلفاته الفتاوى المهدية الشهيرة المستعملة كثيرا فى أيدى القضاة و المفتين، و كان له من الأولاد اثنان من المدرسين بالأزهر و أرباب المكانة بمصر، و هما الأستاذ الشيخ محمد أمين و الشيخ عبد الخالق .. و توفى الشيخ ليلة الأربعاء ۱۳ رجب سنة ۱۳۱۵ و دفن بزاوية الاستاذ الحفنى بقرافة المجاورين، ورثته العلماء و الفضلاء بقصائد شتى قيل فى تاريخ بعضها «جزاؤك يا مهدى فى جنة الخلد»، و قال بعضهم فى مرثية له:

عليه دمع الفتاوى بات منحدراو للمحارب حزن ضاق عن حد

فیها المسائل قد باتت تؤرخه‌مات المجیب الإمام المقتدی المهدی

۲۳- الشیخ محمد الإمبابی الشافعی، و قد تولی المشیخة عام ۱۲۹۹، ثم ترکها و عاد إلیها الشیخ محمد المهدی الحنفی ثانیة، و بقی فیها إلی أن استقال منها فی ۱۳۰۴ ه و تقلدها بعده الشیخ محمد الإمبابی ثانیة، و بقی فیها إلی أن استقال منها عام ۱۳۱۳ ه.

ولد الشیخ المذکور بالقاهرة سنة ۱۲۴۰ و حفظ القرآن الشریف و المتون بالجامع الأزهر، و فی سنة ۱۲۵۳ شرع فی تلقی العلوم فاجتهد فی الطلب و أخذ عن شیخ الإسلام الشیخ البجوری و الشیخ إبراهیم السقا و الشیخ مصطفی البولاقی و أضرابهم و شغل لیله و نهاره بالمطالعة حتی فاق أقرانه و تمکن تمکنا زائدا، و درس فی سنة ۱۲۶۷ و قرأ جمیع الکتب التی تدرس فی الأزهر، و کتب علیها تقاریر و حواشی .. و منها تقریر علی حاشیة العطار علی الأزهریة، و تقریر علی حاشیة السجاعی علی القطر، و تقریر علی حاشیة الأمیر علی شرح الشذور، و تقریر علی حاشیة السجاعی علی شرح ابن عقیل، و تقریر علی شرح الأشمونی، و تقریر علی التجرید حاشیة مختصر السعد، و تقریر علی جمع الجوامع و تقریر علی حاشیة البجوری علی السلم و تقریر علی آداب البحث و تقریر علی حواشی السمرقندیة و تقریر علی مختصر السنوسی و حاشیة علی رسالة الصبان، و حاشیة علی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۲

مقدمة القسطلانی شرح صحیح البخاری، و حاشیة علی رسالة الدردیر فی البیان، و تقریر علی حاشیة البرماوی علی شرح ابن قاسم فی فقه الشافعی .. و منها فتاوی فقهیة، و رسالتان فی البسملة صغری و کبری، و رسالتان فی «زید أسد» صغری و کبری، و رسالة فی علم الوضع، و رسالة فی «من حفظ حجة علی من لم یحفظ» .. و له غیر ذلک من التآلیف النفسیة، و بالجملة فقد جمع بین العلم و العمل و الدنیا و الدین، و قد تخرج علی یدیه کثیر ممن تصدروا للتدریس .. و الإنبابی نسبة إلی إنبابة و هی تجاه بولاق مصر من الشاطیء الغربی للنیل و لم یکن الشیخ منها و إنما نسب إلیها لکون والده کان منها و اشتهر بالنسبة الیها و کان والده من أکبر التجار بالقاهرة، و لما توفی الشیخ حزنت علیه العلماء و أظهرت الأمة الحزن علیه، ورثته الشعراء بقصائد کثیرة.

۲۴- الشیخ حسونة النواوی الحنفی (۱۲۵۵- ۱۳۴۳)

تعلم فی الأزهر و صار مدرسا فی دار العلوم و مدرسة الإدارة (الحقوق)

ثم عین رئیسا لمجلس الأزهر الأعلی فی عهد الشیخ الإنبابی- و لما أقیل الشیخ الأنبابی عام ۱۳۱۳ عین المترجم له شیخا للأزهر.

و أضیف إلیه منصب الافتاء بوفاة الشیخ محمد المهدی العباسی المفتی عام ۱۲۱۵ و أقیل أول عام ۱۳۱۷ و أقیم ابن عمه الشیخ عبد الرحمن القطب النواوی شیخا للأزهر و الشیخ محمد عبده مفتیا. و توفی ابن عمه بعد شهر من ولایته علی الأزهر سنة ۱۳۱۷، فعین الشیخ سلیم البشری شیخا له عام ۱۳۱۷ و لما أقیل آخر عام ۱۳۲۰ ولی الشیخ علی البیلاوی علی الأزهر، و استقال فی ۹ المحرم عام ۱۳۲۳، و عین بعده الشیخ عبد الرحمن الشربینی شیخا ثم استقال فی ۱۶ ذی الحجة عام ۱۳۲۴، فعین النواوی شیخا للأزهر للمرة الثانیة، و استقال من المنصب عام ۱۳۲۷، فأعید الشیخ سلیم للمشیخة، (۵۶- ۶۳ أعیان القرن الثالث عشر- أحمد تیمور).

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۳

و سن الشیخ قانونا لأهل الأزهر، و فی أواخر مشیخته أسس مجلسا الإدارة الأزهر بأمر الخدیو، و سن قانونا لاصلاح الأزهر .. و کان بعد استعفاء الشیخ الإنبابی عن المشیخة تولاها فی سنة ۱۳۱۲ بأمر الخدیوی و کانت جملة أکابر العلماء قدموا التماسا بطلب المشیخة فلم یلتفت الخدیو إلیهم، ثم سن قانونا آخر مشتملا علی ستة أبواب تشتمل علی اثنین و ستین مادة .. و لنذکر بعض أبوابه.

الباب الاول فی الإدارة العمومیة، و فیه تشکیل مجلس إدارة الأزهر من خمسة أعضاء غیر الرئیس منهم ثلاثة من أفاضل علماء الازهر و اثنان من العلماء و الموظفین بالحکومة و انعقاده علی الأقل کل خمسة عشر یوما مرة و اختصاصه بتصدیر القرارات و القواعد التی یکون بموجبها سیر التدریس و ضبط الطلبة و الأعمال و کل ما له علاقة بالازهر و غیر ذلک.

الباب الثانی فی شروط الانتظام فی سلک طلبة الازهر، و منه أن لا یعتبر من طلبة العلم فی الأزهر إلا من بلغ من السن خمس عشرة

سنة على الأقل و أن يكون له دراية بالكتابة و القراءة و أن يكون حافظا لنصف القرآن، و يتعين حفظ كله على كفيف البصر، و غير ذلك.

الباب الثالث فى التعليم، و منه منع قراءة الحواشى و التقارير منعا باتا فى جميع العلوم فى الأربع سنوات الأول و بعدها تخير الطلبة و الأساتذة فى النظر فى الحواشى، أما التقارير فلا يجوز استعمالها إلا بقرار من مجلس الإدارة، و غير ذلك.

الباب الرابع فى الامتحان، و فيه انقسام الامتحان إلى قسمين: الأول امتحان شهادة الأهلية لمن أمضى ثمان سنوات فأكثر فى الأزهر و حصل ثمانية علوم على الأقل، و يؤلف لجنة الامتحان من ثلاثة من العلماء تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر، أما امتحان شهادة العالمية فلمن أمضى اثنتى عشرة سنة، و تؤلف لجنة الامتحان من ستة من أكابر المدرسين من كل مذهب اثنان و الدرجات التى يمنحها الطالب: أولى، و ثانية، و ثالثة .. ثم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۴

تكوين مجلس إدارة الأزهر و فى مقدمته صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، و كان برئاسة الشيخ حسونة النواوى لإجراء مقتضيات هذا القانون، فقرر قواعد الانتساب و الانتظار و الاستحقاق فى الجرايات و التدريس و المسامحات و العلوم، و أوجدوا فى الأزهر نهضة علمية عظيمة، و أحضروا للعلوم الرياضية أمهر المدرسين، و وضعوا امتحانا سنويا، و صرفوا ستمائة جنيه مكافأة للناجحين فى أى فن كان، و تقدم طلاب الأزهر تقدما كبيرا .. و انضمت للشيخ وظيفة الإفتاء سنة ۱۳۱۵ بعد وفاة الشيخ المهدى بعد ما قام وكيلا عنه مدة، و هو ثانى من جمع بين الإفتاء و المشيخة الأزهرية من الحنفية .. و فى مشيخته أنشئت المكتبة الأزهرية، و بنى الرواق العباسى، و أكثر من امتحان طالبى التدريس، و زيد فى مرتبات العلماء و مشايخ الأروقة و الحارات من الأوقاف، و صرف عن الإفتاء و المشيخة فى ۲۵ محرم سنة ۱۳۱۷، و ولد الشيخ سنة ۱۲۵۵ بنواى قرية من أعمال أسيوط بمركز ملوى و قدم الأزهر و أخذ عن كبار المشايخ و تربى على يده كثير من المدرسين و درس بجامع القلعة و ألف كتابا فى الفقه الحنفى يدرس بها .. و من أولاده الشيخ محمد حسونة من علماء الأزهر.

۲۵- السيد على البيلاوى المالكى (۱۲۵۱- ۱۳۲۳ ه) حضر فى الأزهر و درس فيه، و تولى نظارة دار الكتب عام ۱۲۹۹ ه ثم عين شيخا لمسجد الحسين سنة ۱۳۱۱ ه، و أقيم نقيبا للإشراف عام ۱۳۱۲ ه.

و عين شيخا للأزهر عام ۱۳۲۰ ه بعد استقالة الشيخ سليم البشرى- و ظل فى المشيخة إلى أن استقال منها أول عام ۱۳۲۳ ه (۸۱- ۸۵ أعيان القرن ۱۳- أحمد تيمور).

۲۶- الشيخ سليم البشرى المالكى، و ظل فيها إلى أن أقيل منها فى ذى الحجة ۱۳۲۰ ه، بسبب حادث مسجد السيدة نفيسة مع حاكم مصر وقتئذ.

ولد الشيخ بمحلة بشر سنة ۱۲۴۸، و هى قرية من مديرية البحيرة بمركز بلاد الأرز شرقى ترعة الخطاطبة بالقطر المصرى، و قدم إلى مصر

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۵

بعد ما حفظ القرآن الكريم و اشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالك رضى اللّه عنه، وجد فى التحصيل على كبار العلماء كالشيخ البجورى و الشيخ عليش و أضرابهما حتى مهر، و درس فى سنة ۱۲۷۲، و درس جميع الكتب المعتادة بالأزهر مرات عديدة و تخرج من درسه كثير من أكابر و مشاهير العلماء المدرسين بالأزهر كالشيخ الفاضل الشيخ محمد راشد إمام المعية و المرحوم الشيخ البسيونى البيبانى و المرحوم الشيخ محمد عرفة، و غير هؤلاء من أفاضل المدرسين بالأزهر، و لما عين شيخا للجامع الزينبى و كان خاليا من المدرسين رتب نحو السبعة من العلماء للتدريس به منهم من يقرأ الحديث و منهم من يقرأ الفقه على الأربعة المذاهب و منهم من يقرأ الاخلاق و غير ذلك، و طلب لهم مرتبات من الأوقاف، و رتب لهم ذلك حتى صار ذلك الجامع كأنه قطعة من

الأزهر، و فی ۱۳۰۵ ه صار شیخا للمالکیة و کانت قد ألغیت نحو خمس سنوات بعد الشیخ علیش فأحیاها الشیخ و قد جمع بین المشیختین، و من تألیفه تحفة الطلاب فی شرح رسالة الآداب، و حاشیة علی رسالة علیش فی التوحید. و کان ابنه الشیخ عبد العزیز البشری من أفاضل العلماء و الکتاب، و توفی عام ۱۹۴۳.

۲۷- السید علی محمد البیلاوی المالکی و قد بقی فیها إلی أن استقال منها فی أوائل محرم سنة ۱۳۲۳ ه

۲۸- الشیخ عبد الرحمن الشربینی ولی المشیخة فی ۱۳ محرم ۱۳۲۳ ه و بقی فیها إلی أن استقال منها فی ذی الحجة ۱۳۲۳ ه.

۲۹- الشیخ حسونة النواوی للمرة الثانیة، و استقال فی السنة نفسها فتولاها مرة ثانیة.

۳۰- الشیخ سلیم البشری، و توفی سنة ۱۳۳۵ ه.

۳۱- محمد أبو الفضل الجیزاوی ولی المشیخة إلی سنة ۱۳۴۶ ه، ثم خلفه فی ذی الحجة ۱۳۴۶ ه ۲۲ مایو ۱۹۲۸ المراغی.

۳۲- الشیخ محمد مصطفی المراغی، ولی المشیخة إلی أن استقال

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۶

فی سنة ۱۳۴۸ ه اکتوبر سنة ۱۹۲۹.

۳۳- محمد الأحمدی الظواهری (المتوفی فی ۱۳ مایو سنة ۱۹۴۴)، و قد عزل من المشیخة فی ۲۳ محرم ۱۳۵۴ ه- ۲۶ ابریل ۱۹۳۵

۳۴- الشیخ محمد مصطفی المراغی للمرة الثانیة.

و ظل فی المشیخة الشیخ المراغی رحمه اللّه .. حتی توفی فی ۱۴ رمضان عام ۱۲۶۴ ه الموافق ۲۲ أغسطس عام ۱۹۴۵ .. و قام بأمر المشیخة بعده الشیخ محمد مأمون الشناوی وکیل الأزهر فی ذلک الحین .. و لما استقال من الوکالة خلفه الشیخ عبد الرحمن حسن فی وکالة الأزهر و الإشراف علیه.

۳۵- ثم عین الشیخ مصطفی عبد الرازق- شیخا للأزهر فی ۲۸ دیسمبر ۱۹۴۵- و ظل فیها حتی توفی فی منتصف فبراير عام ۱۹۴۷ (۱۳۶۴- ۱۳۶۵ ه).

۳۶- و عین الشیخ محمد مأمون الشناوی فی المشیخة عام ۱۳۶۷ ه، ۱۸ ینایر ۱۹۴۸ و ظل فیها حتی توفی فی ۲۱ من ذی القعدة عام ۱۳۶۹ ه، ۴ سبتمبر عام ۱۹۵۰، و امتاز عهده بضعف أثر العصبیات فی الأزهر، و بالقضاء علی الفتن و الاضطرابات و بزیادة البعوث الاسلامیة الوافدة علی الأزهر، و زیادة العلماء الذین أرسلوا إلی الأقطار الاسلامیة، و بمکانة الأزهر فی المجتمع، و بالغاء البغاء و تحدید الخمور و جعل الدین مادة رسمیة فی المدارس، و بارتفاع میزانیة الأزهر الی نحو ملیون و ثلث، و بکثرة خریجی الأزهر فی مدارس الحکومة .. و أنشیء فی عهده معهد محمد علی بالمنصورة، و معهد منوف، و ضم معهد سمنود إلی الأزهر.

و کذلک معهد الفیوم و المنیا .. و قد شیعت جنازته إلی مقرها الأخیر یوم الثلاثاء ۵ سبتمبر عام ۱۹۵۰ .

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۷

۳۷- و عین بعده الشیخ عبد المجید سلیم شیخا للأزهر فی یوم الأحد ۲۶ من ذی الحجة ۱۳۶۶ ه، ۸ أکتوبر عام ۱۹۵۰، و ظل فی المشیخة إلی أن أعفی منها فی الیوم الرابع من سبتمبر عام ۱۹۵۱، لمناهضته للحکومة القائمة و عدم الاستقرار و الهدوء فی الأزهر، و ذلک فی ۴ سبتمبر عام ۱۹۵۱.

۳۸- و أسندت المشیخة- إلی الأستاذ الأکبر الشیخ إبراهیم حمروش .. و فی عهده قامت الحرکة الوطنیة لمناهضة الإنجلیز و الاستعمار، و کان للشیخ مواقف مشهودة فی هذه الحرکة .. و قد ظل فی المشیخة إلی أن أعفی منها فی الیوم العاشر من شهر فبراير عام ۱۹۵۲.

۳۹- و أسندت المشیخة فی هذا الیوم نفسه إلی الأستاذ الأکبر الشیخ عبد المجید سلیم للمرة الثانیة .. و قد ظل فیها حتی استقال منها فی ۱۷ سبتمبر ۱۹۵۲ ، و قد توفی علیه رحمة اللّه فی صباح یوم الخمیس ۱۰ صفر ۱۳۷۴ ه- ۷ أکتوبر عام ۱۹۵۴ و کان رحمه اللّه مثلا

کریما فی الغیرة علی الأزهر و إصلاحه، و ترک فیه آثارا کثیرة، و کانت له شهرة عالمیة فی الإلمام بشتی العلوم و المعارف الإسلامیة .. و قد ترک فراغا کبیرا لا یسد، کما ترک تلامیذ و مریدین یذکرونه بالخیر الإجلال و الوفاء.

۴۰- الأستاذ الأکبر الشیخ محمد الخضر حسین، و قد تولی المشیخة بعد الشیخ عبد المجید سلیم، و بدأ عمله بإحالة وکیل الأزهر الشیخ عبد الرحمن حسن إلی المعاش و تعیین الشیخ محمد عبد اللطیف دراز و الشیخ

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۸

محمد نور الدین الحسن وکیلین، و بإلغاء منصبی السکرتیر العام و مدیر المعاهد- و استمر فی المشیخة إلی أن استقال منها فی أوائل ینایر ۱۹۵۴.

۴۱- الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج، و قد تولی المشیخة بعد الشیخ محمد الخضر حسین فی یوم الجمعة ۲ جمادی الأولی ۱۳۷۳ ه- ۸ ینایر ۱۹۵۴، و بدأ عمله بإحالة الوکیلین الشیخ دراز و الشیخ نور الدین الحسن إلی المعاش، و بتخفیض سن الإحالة علی المعاش لعلماء الأزهر إلی الخامسة و الستین، و بإحالة أعضاء جماعة کبار العلماء الذین بلغوا هذه السن إلی المعاش کذلک.

و الشیخ تاج مولود عام ۱۸۹۶ بأسیوط و نال العالمیة عام ۱۹۲۳ و شهادة التخصص عام ۱۹۲۶، و سافر عام ۱۹۳۶ إلی فرنسا، حیث عاد منها عام ۱۹۴۳ بلقب دکتور، و حصل علی عضویة جماعة کبار العلماء ۱۹۵۱ م.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۵۹

الفصل الثانی تراجم لبعض شیوخ الأزهر

الشیخ محمد الأحمدی الظواهری

توفی رحمه اللّه فی ۱۳ مایو عام ۱۹۴۴، و قد تولی المشیخة خمس سنوات کان الأزهریون و الشیخ فیها فی نضال مستمر؛ مع ما کسب الأزهر فیها من استتباب الدراسة و قوة الروح العلمیة.

ولی مشیخة معهد طنطا، فی سن مبکرة، و بقی شیخا له، إلی أن نقل شیخا لمعهد أسیوط، فی أکتوبر- ۱۹۲۳ فأحسن الناس استقباله وراقهم فیه فخامة مظهره، و فصاحة منطقه، و سخاء یده. و سرهم أن یروا لشیخ العلماء مهابة خاصة.

و لکن الشیخ فی أسیوط، لم یکن یفارقه الحزن إلا قلیلا لأنه نقل إلی أسیوط، و هو غیر راض بنقله، لذا کان کثیر المرض، کثیر السفر قلیل الاهتمام. بالحیاة.

و له علی معهد أسیوط فضل کثیر، إذ نقل الدراسة من المساجد و أنقذ الطلاب من افتراش الحصر، و استأجر للدراسة قصورا فخمة واسعة، فی مناطق عامرة. و تنازل للحکومة عن مستشفی الحمیات، و أخذ بدله تلک البقعة التی أقیم علیها المعهد الجدید، علی شاطیء النیل بالحمراء، سنة ۱۹۲۴. و حینما وضع الحجر الأساسی فی بناء المعهد، سنة ۱۹۳۰ کان الشیخ شیخا للأزهر.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۰

و لما عین الأستاذ المراغی، شیخا للأزهر سنة ۱۹۲۸ و شاع الخبر فی أسیوط، اتفق ان أصیب الشیخ الأحمدی بمرض شدید، أثار حوله الأقاویل، و لکنه شفی منه، و بعد قلیل نقل شیخا لمعهد طنطا، فی یولیو- ۱۹۲۷.

و فی أکتوبر ۱۹۲۹ استقال الشیخ المراغی، و عین الشیخ الأحمدی، شیخا للأزهر.

و فی ۲۸ أبریل ۱۹۳۵ استقال من وظیفة المشیخة و عین الشیخ المراغی مکانه ... و یقول الدکتور عثمان أمین عنه من کلمة له:

«یرجع اهتمامی بالشیخ الظواهری إلی ما قرأته عنده لأحد المستشرقین، فی النسخة الفرنسیة لدائرة المعارف الإسلامیة، تعریفا بکتاب له عنوانه «العلم و العلماء» نشر بطنطا سنة ۱۹۰۴، و قد أحببت أن أقتطف من مقال ذلک المستشرق ما ترجمته إلی العربیة: «إن روح

الإخلاص و الصفاء التى تظهر فى هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين، فما بالك بوجودها فى الإسلام الذى دب فيه الجمود» و من العجب جدا فى هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الإسلامية و الإحساس بفائدة ما يأتى من مصادر أخرى. فالمؤلف يرى أنه يجب أن يأخذ المسلمون ليس عن أوروبا فحسب، بل عن الصين و اليابان ايضا. و يرى أن من بين المواد التى ينبغى دراستها الدعوة للإسلام، و يرغب المؤلف فى عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الإسلامية ثم يعين وسائل الثقافة التى تتطلبها لجان من العلماء، و اخراج دائرة معارف، و نشر التعليم الجامعى بين أفراد الأمة، كما قال إنه يجب تطهير الإسلام من الخزعبلات و العوائق التى تبهظه. و الكتاب على كل حال برهان ساطع على عقيدة الكاتب الراسخة و إيمانه بالمثل العليا».

أغرانى هذا الوصف الذى قرأته فى باريس بالبحث عن الكتاب فى مصر. فلما قرأت الكتاب بنفسى انكشف لى منه أمران: أولهما ان مؤلفه

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۱

كان من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده: فهو يذكره فى الكتاب صراحة، و هو ينهج فى التعليم نهجه، و يدعو الأزهريين إلى ترسم خطاه، و ثانيهما أن هذا الشاب كان فيلسوفا ناشئا، و أن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه، فإنه حين تكلم فى كتابه عن الكمال الروحى و عن الصوفية عالج هذه الأمور بروح فلسفية، و لعل الفلسفة أخذت سبيلها إلى نفسه، دون وعى ظاهر منه عن طريق أستاذه محمد عبده. و يرجع توثق الصلة بين الأستاذ و التلميذ إلى سنة ۱۹۰۲ حين تقدم الظواهرى لنيل شهادة العالمية إلى لجنة الامتحان المنعقدة برياسة محمد عبده، فأجاد فى الإجابة أعجب بها الأستاذ الإمام، فأثنى عليه على مسمع من الحاضرين، و يقال إنه طلب له شيئا من شراب الخروب و قال له «لقد فتح اللّه عليك يا أحمدى، و و اللّه إنك أعلم من أبيك، و لو كان عندى أرقى من الدرجة الأولى لأعطيتك إياها». و لهذه الحادثة نفسها دلالتان: الأولى انها تشير إلى ذكاء الاحمدى الظواهرى و سعة علمه اللذين اشتهر بهما منذ نشأته، و الثانية انها تشير إلى ما اتصف به الاستاذ الإمام من الإنصاف و قوة الأخلاق: فقد كان بينه و بين الشيخ ابراهيم الظواهرى- والد الشيخ الأحمدى- خلاف فى الرأى و المنازعات، لأن إبراهيم الظواهرى كان من الشيوخ المحافظين الميالين إلى تصديق الكرامات و الاعتقاد بقصص المجاذيب و الأولياء، و كان الشيخ محمد عبده يستنكر ذلك، لكنه لم يتأثر فى حكمه على الابن بما كان بينه و بين أبيه.

و فى مكتبته ذخيرة من العلم المخطوط بيده، هى مجموعة من مؤلفات كتبها فى شبابه منها «خواص المعقولات فى أصول المنطق و سائر العقليات» و «التفاضل بالفضيلة» و «الوصايا و الآداب» و «صفوة الأساليب» و «حكم الحكماء» و «براءة الإسلام من أوهام العوام» و «مقادير الأخلاق» و لكن مخطوطا منها استوقفنى لطرافته، و عنوانه «الكلمة الأولى فى آداب الفهم». و قد أراد به أن يكون بمثابة ضابط عقلى أو قانون كلى، لرفع الخلاف القائم فى كيفية فهم المتأخرين لأقوال المتقدمين من المؤلفين فى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۲

العلوم الدينية. و قد جاء فى مقدمة المخطوط: «لقد دعانى داعى الاستكمال و التمسك بأذيال الامتثال إلى مطالعة أسرار الدين للوصول إلى عين اليقين، و النهوض من مراقد الوهم و ظلمات الجهالة إلى مراقى الفهم و نور الحق المبين» ... «بيد أنه قد تباينت الطرق، و تنازعت الفرق، و اختلفت أهواء الخلف فى كيفية الوصول الى مرامى أنظار الأول، و إصابة الغرض المقصود من عباراتهم، و تفرقوا شيعا فى تقرير المسائل، فكانت همة قوم فيما يرجع إلى المعانى الأصلية، و مال قوم إلى الخطابة و الجدل، و آخرون إلى التخريج على المعنى البعيد أو التنبيه على احتمال جديد، و تنافس البعض فى الاستشكال و التغليط، حتى إنه ليخيل الى الناظر فى طرائقهم أن الحقيقة صعبة المنال، و أن اليقين مطلب محال .. فدفعنى ذلك إلى أن اضع علما شاملا و قانونا جامعا به تستفاد حقائق المعانى من أصداف الكلام، و يجمع الناظرين على أقوم طريق به يمكن الوصول الى تمام المعنى بحيث يوقف القارىء البصير فى وقت قصير على كل ما فى الحواشى و التقارير. و يرفع الخلاف القائم فى كيفية الفهم، و يزيل التشويش و الإبهام، و يمكن أهل العلم

من الانتصار على جيوش الأوهام».

و قلما تحمس الظواهرى فى شبابه لإعلاء شأن الأزهر و إصلاح المسلمين، كما يتضح من كتاب «العلم و العلماء»، فأصابه من جراء ذلك ما أصاب غيره من المصلحين، كما يتضح ذلك من مذكراته التى نشرها ابنه بعنوان «السياسة و الأزهر». و تبين من الرسالة التى نشرتها مشيخة الأزهر هذا العام لمناسبة المعرض المصرى الأخير أن أكثر ما استحدث من منشآت و ما تم من إصلاحات فى الأزهر الحديث كان للظواهرى فيه أثر بارز .. و بمقتضى القانون رقم ۴۹ لسنة ۱۹۳۰ الذى صدر فى عهد مشيخته أنشئت الكليات الأزهرية الثلاث، و بمقتضى القانون رقم ۳۷ لسنة ۱۹۳۲ الذى صدر فى عهده أيضا نظم التخصص، و غيرت مناهج التعليم فى الجامعة الأزهرية لكى تتمشى مع التقدم العلمى الحديث. و بذلك دخلت الأزهر على يد الظواهرى دراسات لم يكن للأزهريين عهد بها من

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۳

قبل، كاللغات الأجنبية، من شرقية و غربية و الاقتصاد السياسى و القانون الدولى الخاص، و أصول القوانين و وسائل الدعوة الى سبيل اللّه، و الخطابة و الالقاء و المناظرة، و علم النفس و التربية البدنية و غيرها، و يتبين من رسالة مشيخة الأزهر أيضا أن الظواهرى قد سبق إلى التفكير فى إيفاد بعوث من الأزهر للدعوة للاسلام فى الخارج، فأوفد بعثتين للصين و الحبشة و أنشأ مجلة «نور الإسلام» و وضع مشروع الأبنية الفخمة للجامعة الأزهرية الحديثة، و قد تمت فى عهده ثلاث من عمائرها الكبرى.

و للشيخ الأحمدى أثر ظاهر فى ميدان آخر نحب أن لا- يفوتنا التنويه به هنا. و يتجلى ذلك فى الأثر فى تقرير محفوظ بوزارة الخارجية المصرية عن المؤتمر الإسلامى الذى دعا إليه الملك ابن سعود، و عقد فى مكة سنة ۱۹۲۶، و يتبين منه أن الشيخ الظواهرى استطاع و هو رئيس وفد مصر فى ذلك المؤتمر أن يكون واسطة العقد بين المؤتمرين، و أن يكون رسول سلام و توفيق بين المتنازعين فى موضوع الحرية المذهبية فى أرض الحجاز، كما استطاع بقوة حجته و إقناعه أن يستصدر من المؤتمرين قرارا يصرح على رؤوس الإشهاد بوحدة مصر و السودان. و مما يجدر ذكره فى هذا المقام أن عبد الخالق ثروت وزير الخارجية المصرية و قتئذ قال حين علم بنجاح الشيخ الظواهرى فى ذلك المؤتمر: «لم أكن أعلم أن الأزهر يخرج سفراء فى السياسة».

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۴

الشيخ محمّد مصطفى المراغى

علم من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر، و شخصية نادرة من أشهر الشخصيات الإسلامية فى القرن العشرين. و رجل غريب بين زملائه و أقرانه فى العصر الذى عاش فيه، و زعيم روحى ألقيت إليه مقاليد الأزهر فترة طويلة.

ذلكم هو الشيخ محمد مصطفى المراغى، تلميذ محمد عبده، و العالم الأزهرى الواسع الأفق، العميق الثقافة، و قاضى القضاة المصرى فى السودان، و رئيس المحكمة العليا الشرعية، و شيخ الأزهر من عام ۱۹۲۸ إلى عام ۱۹۲۹ م ثم من عام ۱۹۳۵ حتى عام ۱۹۴۵ م (۱۳۶۴ ه) حيث وافاه أجله المحتوم.

كان المراغى مثالا نادرا فى الاعتزاز بالنفس، و الشعور بالكرامة، و الإيمان بالإصلاح، و فى عهد توليه مشيخة الأزهر وضع أساسا قويا لصرح الأزهر العلمى برعايته لأقسام الدراسات العليا فيه، و تشجيعه لطلابها و خريجيها، و إشرافه على مواسمها العلمية، و مناقشته لرسائلها. و كان الشيخ المراغى ذا قوة فكرية قوية عن الثقافة الحديثة، و رغبة حافزة فى صبغ الأزهر بصبغتها. و قد عمل على إخراج جيل جديد من العلماء المثقفين بشتى الثقافات، و نجح فى ذلك إلى حد بعيد، و كانت صلات المراغى بأقطاب المجتمع و السياسة و الفكر و الأدب فى عهده عونا له على بلوغ آماله فى إصلاح الأزهر، و قد جاهد جهادا حثيثا للنهوض بهذه الجامعة

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۵

الإسلامية الكبرى، و لبث روح الحياة و الإصلاح فيها. و كانت مكانته فى نفوس الجماهير من العلماء و الطلاب تساعده على الإصلاح.

و کان أکثر الأزهریین تقدیرا للکفایات من العلماء و الطلاب و تشجیعا لها، کانوا یأخذون علیه تدخله فی السیاسة، و قیام إدارته فی الأزهر علی العصبیة، و لکن ذلک شیء تافه لا یقاس بجانب ما أحدثه فی الأزهر من ثورة و حیاة و تجدید.

لقد انتهت بعد المراغی الاجتماعات فی المناسبات الدینیة التی کانت تضم الألوف من القادة و العلماء و الطلاب و الجماهیر. و حوربت و عطلت أقسام الدراسات العلیا فی الأزهر. و ساءت أمور الأزهر، و ضعف نشاطه العلمی.

استقال رحمه اللّه من مشیخته الأولی فی آخر سبتمبر سنة ۱۹۲۹ علی أثر تأخر صدور المرسوم الملکی بقانون الأزهر الجدید، و قد حاول رئیس الوزراء آنئذ و هو المرحوم محمد محمود باشا إقناعه بالعدول عنها، و لکنه لم یقبل، و صدر المرسوم الملکی بتعیین الشیخ الظواهری شیخا للأزهر فی أوائل أکتوبر سنة ۱۹۲۹.

و أذکر أنه لما تولی المراغی مشیخة الأزهر للمرة الثانیة، استقبله الأزهر استقبالا کریما، و أقام له حفلة تکریم فی یولیو عام ۱۹۳۵ بسرای معرض الجیزة بالقاهرة حضرها حشد کبیر من الشخصیات الکبیرة و رجال الدین، و دعی ممثلو طلبة المعاهد الدینیة لإلقاء کلمات فی هذه الحفلة، و کنت ممثلا لطلاب معهد الزقازیق الدینی، و کان ممثل الأساتذة الأستاذ الکبیر الشیخ محمود النواوی و کنت قد أعددت حینئذ کلمة لألقائها فی الحفلة، و لکن عدل عن إلقاء ممثلی المعاهد لکلماتهم، لضیق الوقت و کثرة الخطباء، و کان من هذه الکلمة التی أعددتها حینئذ، و أنا طالب فی السنة الرابعة الثانویة بمعهد الزقازیق الدینی:

فی هذا الیوم الخالد و الحفل الحاشد تتحدث الأجیال عن الأزهر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۶

الشامخ و شیخه الجدید حدیثا ملؤه الإعجاب و الإجلال، لأنه حدیث الأرواح و نجوی القلوب. أما الأزهر فهو الأزهر کما یعرفه الخاصة و العامة و کما یعرفه المسلمون فی مشارق الأرض و مغاربها و کما تعرفه الأجیال الغابرة و الأجیال الحاضرة .. هو محط الرحال، و کعبة الآمال، و مجمع الدین و العلم و الأدب و مفخرة مصر و الشرق و العرب، هو قلب الإسلام الخافق و لسانه الناطق، و علمه المرفوع، هو تلک الجامعة العظیمة التی أضفی علیها الزمان ثیاب الجلال و أسبل علیها الخلود ستور الجمال، فحفظت للإسلام مکانته و رفعت للدین رایته و مدت علی العربیة ظلها الممدود، و حملت لواءها المعقود، و خرجت أئمة الهدی و مصابیح الحکمة و شعت منها أشعة النور فی کل بقعة و مکان- فالأزهر هو دعامة الأخلاق و حصن الفضیلة و مفخرة القاهرة و صرح مصر الخالدة، بل هو معجزة الدهور و آیة القرون .. و ما دام للأزهر وجود فله رسالة فی الحیاة تضارع فی جلالها رسالة الأنبیاء و وحی المرسلین، و إن استمدت آیتها من آیتهم، و هدیها من هدیهم.

رسالة الأزهر هی العنایة بنشر الدین، و السهر علی مصالح المسلمین، و إحیاء الأخلاق الفاضلة، و إقامة المبادیء العادلة التی جاء بها القرآن الکریم، و إیقاظ الشرق الراقد من غفلته، لیکون مهبط الوحی و مبعث النور و مصدر الهدایة و رسول الحضارة، و قائد العالم کما کان الأزهر فی أیامه الماضیة.

و إذا کان للأزهر مکانة و جلالة و مهمة و رسالة، فله رئاسة جلیلة نصبها الإسلام عنه وکیلا و أقامها الأزهر له کفیلا، فالتفت حولها القلوب، و شایعتها الأرواح و آوی الیها الخائف و المظلوم و المکروب.

و لقد أدت مشیخة الأزهر للشرق و الإسلام خدمات جلیلة، فحفظت تراث السالفین و سهرت علی تهذیب الناشئین، و أطفأت نار الشک ببرد الیقین.

و لما طفر التعلیم المدنی فی مصر أقبل علیه الناس و جحدوا

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۷

ما للأزهر من فضل و جمیل، و طفقوا ینعون علیه جهوده، و یعیبون علیه جموده، حتی هزمتهم صیحة الإصلاح من رجل الإصلاح الأول حکیم الإسلام و فقید الشرق المغفور له الإمام محمد عبده، فعارضها المعارضون و سخر منها الجامدون، و لم یقدرها إلا أفراد

قلائل كان من بينهم شاب ذكى وفتى نابه اقتفى أثر أستاذه الحكيم، هو الشيخ المراغى.

و جاء من خطبة فضيلة الأستاذ الشيخ على سرور الزنكلونى فى حفلة تكريم الأستاذ المراغى عام ۱۳۵۴- ۳ يوليو ۱۹۳۵ ما يلى: «الأزهر كما تحدث عنه التاريخ و كما تصورناه نحن حين رحلنا اليه فى نعومة الأظفار، و كما يعرفه المصريون و غير المصريين حين يخطر ببالهم، و يحجون إليه لطلب العلم، هو هذه الشخصية الكبرى البارزة فى العالم، و التى ينعكس منها على طلابه و رواده نور العلم و جلال الدين و التى عاشت ألف سنة إلا قليلا، و هى تصارع الأحداث و الأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء فى التاريخ، و لو لا سر اللّه الخفى لتلاشى، فهو الذى حفظه و لا يزال يحفظه و يجدد مجده إلى اليوم .. إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذى تحيا عليه علوم الإسلام و القرآن، و هى أسمى ما تستكمل به النفس الإنسانية قواها. و الأزهر بمقتضى وضعه و طبيعته يجب أن يكون خالصا للّه وحده، فإذا ألمت به الأحداث و سلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فللّه فيه نصيب كبير: دينه، و علومه .. و هذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون إليه بنية صادقة ليتفقهوا فى دين اللّه و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، للّه فيهم النصيب الأوفر، و اللّه غيور على دينه، و على وحيه. و على هذا الشباب الغض الذى يحب الخير و لا يريد إلا الخير .. و من هنا تدركون سر بقاء الأزهر و ثباته على كثرة ما نزل به من أحداث .. ما هى مشيخة الأزهر؟ لا أريد ان أتعرض إلى مشيخة الأزهر بالنظر إلى ما ورثته عن العواصم الإسلامية من خلافة العلم و الدين، و لا- إلى ما قامت به من جلائل الأعمال فى عصور مصر المختلفة و مواقفها المشرفة فى وجوه الظالمين، فذلك للتاريخ وحده، و لكنى أتحدث عنها

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۸

الآن بالنظر إلى طبيعتها و إلى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى و ينتشر الفساد. إن مشيخة الأزهر الكبرى هى التى تقوم بمعونة الأساتذة و الطلاب على حراسة الدين و أحياء تعاليمه، فإذا فكر العقل تفكيرا مستقيما و لم يلتفت إلى زخارف الحياة الكاذبة، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا فى كنف هذه الرعاية السامية، لأن شرف الاشياء بشرف غاياتها، و مشيخة الأزهر تقوم على حراسة ما به تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة و السلام و وظيفة الرسل إذا أديت على غير وجهها فكلها خير و كلها سعادة، فإذا تنكب الأزهر الطريق يوما، فليس ذلك من طبيعة الدين الذى يقوم على حفظه، و لا من طبيعة علومه التى هى نور العقل و قوة للإنسان، و إنما منشأ هذا التنكب هو القوى التى تتسلط عليه و توجهه إلى طريقها، و إذن لا تلوموا الأزهر ما دام غير قائم على قدميه بنفسه، و إنما اللوم على من يمتلكون أمره و يوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه ... إن أعدل ميزان تعرفون به الفرق فى كل عصر بين رجل الأزهر القائم على حراسة دين اللّه و بين عبد الشهوات الجامحة و أن تربع بين الأزهريين و نال أكبر مناصبهم أن ترى عزة النفس و خشية اللّه ماثلتين فى رجل الأزهر خصوصا إذا عظمت المحنة و اشتد البلاء، أما عبد الشهوات فتراه دائما مغمورا بخشية الناس و الطمع فيما بأيديهم. و قلب المؤمن الصادق فى إيمانه لا يتسع لخشيتين، فأظهر مظاهر الإيمان العميق خشية اللّه وحده إذا اشتد الخطب، و أظهر مظاهر الإيمان الرقيق الذى لا يزن مثقال ذرة أن يخشى صاحبه الناس أشد من خشية اللّه، و إن كثرت و تفرعت صور عبادته لأنها فى ميزان الدين و العلم ليست أكثر من صور كاذبة تولدها العادة أو الرياء .. إن الحقائق لا يغيرها و لا ينقص من جلالها الذاتى ما قد يطرأ عليها من أمراض و علل تدفعها يد الشهوة على غفلة من أهلها، و لهذا يعاقب اللّه حراس الحقائق أولا فأولا، بمقدار غفلتهم و إهمالهم، ثم يكتب النصر لهم فى النهاية إذا ما انتبهوا .. أما المبطلون المفتونون باستشراء الضعف ليتمتعوا بباطلهم فلا يعاقبهم اللّه أولا فأولا، و إنما يمهلهم لتتجلى حكمة اللّه فى قوله:

«سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ* وَ أُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ»*. إن من

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۶۹

الغرور و عدم الإنصاف أن يقال: ما فائدة الأزهر و أين جلال مشيخته؟

و أقوى رد على هذه الغفلة و هذا الغرور أن نقول لأصحابهما: إذن ما فائدة علوم الحياة كلها؟ و هى اليوم تولد الجشع فى قلوب الأمم

و تقلبها سباعا کاسرة و حیوانات مفترسة .. فالدین خیر کله و العلم خیر کله بمقتضی طبیعتهما فعلیهما أن یتنبها إلی من یعمل علی تغییر وضعهما، فاذا حرص الأشرار علی أداء وظیفتهم بمقتضی طبعهم، فحرص الأخیار یجب أن یکون أشد و ألزم .. هذا هو الأزهر علی ما یجب أن یکون و هذه هی مشیخته کما نفهم عظمتها و جلالها. فإذا ظهر یوما ما فی غیر مکانهما فالمصریون شرکاء فی المسؤولیة أمام اللّه و أمام التاریخ. لأن العلماء غیر معصومین. و الأمم الحیة هی التی تقوم علی حراسة قواها الطبیعیة و المعنویة، و لا ترتفع المسؤولیة عن الأمم إلا- إذا کانت فی طفولتها أو فی شیخوختها، و قد أدت الأمة المصریة و الحمد للّه واجبها نحو مشیخة الأزهر».

و قد ألقی فی حفلة التکریم الشیخ عبد الجواد رمضان الاستاذ بالأزهر قصیدة جاء فیها:

دعوا باسمک الآمال فهی بواسمو بلّوا به الأرواح و هی حوائم

دجالیلهم حتی إذا لحت أصبحواو أنف الدیاجی و الحوادث راغم

هو الدین، فادعم عرشه بعزیمةفقد و هنت أرکانه و الدعائم

و ما الأزهر المعمور إلا منارهو لا أهله الأدنون إلا العمائم

مطالع یمن للزمان و أهلهبها تسعد الدینا و تدنو العظائم

فیا رجل الإسلام أدرک رجالهفقد أنکرتهم فی الحیاة المکارم

و فیهم، بحمد اللّه، غر أزاهرو فیهم بحار فی العلوم خضارم

إذا عالجوا کانوا الشفاء و إن دعواإلی رد باغ فالذرا و المقادم

و کم لهمو- فی اللّه- غرّ مواقف‌تنشّق ریّاها القری و العواصم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۰ أولئک أجناد إذا جدّ جدّهم‌سمت بهمو للفرقدین العزائم

إذا ما المراغی قام تحت لوائهم‌فقد زأرت فی الغاب تلک الضیاغم

فتی فتیة الشرق الأولی تنجلی بهم‌غیاهبه، و الشرق بالخطب غائم

و صارم هذا الدین دین محمدو قد أسلمته فی الجلاد الصوارم

فمن مبلغ أفناء یثرب أنناسلمنا، علی أن لیس فی الناس سالم

و أنّ الذی شاد النبیّ محمدعلی حفظه شیخ المراغة قائم

تبوّأ عرش الدین فاهتزّ رکنهو طاولت الجوزاء منه القوائم

و أمست شعوب الشرق نشوی قریرةتساهم فی تکریمه و تزاحم

قصاراه أن یدعو بها عمریّةترد وجوه الشرک و هی سواهم

إذا ائتلقت فی مصر أضواء شمسهاسعت فی هداها للکمال العوالم

و قد ألقی المراغی کلمة فی حفلة تکریمه جاء فیها:

أحمد اللّه جل شأنه علی ما أولانیه من الکرامة بهذه المنزلة فی نفوسکم، و أشکر لحضرات الداعین المحتفلین برهم و کرمهم و عاطفة الحب الفیاض البادیة فی قولهم و فعلم فی شعرهم و نثرهم و لحضرات المدعوین تشریفهم و احتمالهم مشقة الحضور الذی أعربوا به عن جمیل عطفهم و حبهم.

و یسهل علی قبول هذه المنن کلها و احتمالها إذا أذنتم لی فی صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصی الضعیف و اعتبارها کلها موجهة إلی الأزهر الشریف الذی تجلونه جمیعا، و تعتبرونه بحق شیخ المعاهد الإسلامیة فی مصر و غیرها من البلاد.

و لئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول علی غرض التکریم فقد دل بالإشارة علی ما هو أسمی من غرض التکریم.

دل على أن الأزهر خرج عن حالته التى طال أمـدها و نهض يشارك الأمة فى الحياة العامة و ملابساتها و عزم على الاتصال بها ليفيد و يستفيد، و هذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۱

التعليم فيه و عن شعوره يجب أن تحتذى و يهتدى بها. و منذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب و الهندسة و التاريخ فى الأزهر و حول فائدة تعليمها لعلماء الدين و منذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس و يتهمونا بالزيغ و الزندقة .. و الآن تـدرس فى كلية أصول الـدين الفلسفة القديمة و الحديثة، و تدرس الملل و النحل، و تقارن الـديانات، و تعلم لغات أجنبية شرقية و غربية. و من الحق علينا ألا ننسى فى هذه المناسبة و الحديث حديث الأزهر و الأزهريين ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة، و يهتدى به علماء الأقطار الاسلامية فى فهم روح الإسلام و تعاليمه، ذلك الرجل الـذى نشر الحياة العلمية و النشاط الفكرى و وضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم و عبد الطريق لتذوق سر العربية و جمالها و صاح بالناس يذكرهم بأن العظمة و المجد لا ـ يبنيان إلا على العلم و التقوى و مكارم الأخلاق، ذلك الرجل الـذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته و لم تقدره قدره الا بعد أن أمعن فى التاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده قدس اللّه روحه و طيب ثراه، و قد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة، و من الوفاء بعد مضى هذه السنين و نحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الأول فى هذا الحفل، فهو مشرق النور و باعث الحياة، و عين الماء الصافية التى نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ، و الدوحة المباركة التى نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير.

و الأزهر كما تعلمون هو البيئة التى يدرس فيها الدين الإسلامى الذى أوجد أمما من العدم، و خلق تحت لوائه مدنية فاضلة، و كان له هذا الأثر الضخم فى الأرض فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه و أبنائه واجبات إنسانية، و يشعرهم بفروض صورية و معنوية، يعدون مقصرين آثمين أمام اللّه و أمام الناس إذا هم تهاونوا فى أدائها و أنهم لا يستطيعون أداء الوجب لربهم و دينهم و لمعهدهم و أنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه، و أجادوا معرفة لغته، و فهموا روح الاجتماع، و استعانوا بمعارف القدامى و معارف

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۲

المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين، أصوله و فروعه، و عرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء و الاستزادة من العلم و تمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية فى البلاد التى لا تعرف اللغة العربية، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه و إلى التساند التام بين العلماء و الطلبة و القوامين على التعليم، و يحتاج إلى العزم و التصميم على طى مراحل السير فى هدوء و نظام وحب و صدق نية و كمال توجه إلى اللّه و حب للعلم لا يزيد عليه إلا حب اللّه و حب رسوله.

و للمسلمين فى الأزهر آمال، و من الحق أن يتنبه أهله لها و هى:

أولا- تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف و هدايتها إلى أصول الـدين و إلى فهم الكتاب و السنة و معرفة الفقه الإسلامى و تاريخ الإسلام و رجاله، و قد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر فى هذه الأيام و زاد قاصدوه منها أفرادا و جماعات، و اشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين و هى بيانه و نشره.

ثانيا- إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى العلوم الدينية و العربية و العقلية و هى مجموعة مرتبط بعضها ببعض، و تاريخها متصل الحلقات، و قد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها و بذلوا جهودا مضنية و عرضوا نتائج بعضها صحيح و كثير منها غير صادق، و عذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر، كما هو الحال فى دراسة الأزهر .. فإذا وفق اللّه أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة قديمة حديثة و دراسة المعارف المرتبطة بها و أتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث و إذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر و الماضى و يطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار الأقدمين، و أعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت إليه هو الذى

یرجی لتحقیق الأمل، و أنه مدخر لأبنائه إن شاء اللّه.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۳

ثالثا- عرض الإسلام علی الأمم غیر المسلمة عرضا صحیحا فی ثوب نقی خال من الغواشی المشوهة لجماله، و خال مما أدخل علیه و زید فیه من الفروض المتکلفة التی یأباها الذوق و یمجها طبع اللغة العربیة.

رابعا- العمل علی إزالة الفروق المذهبیة أو تضییق شقة الخلاف بینها، فإن الأمة فی محنة من هذا التفرق و من العصبیة لهذه الفرقة، و معروف لدی العلماء أن الرجوع إلی أسباب الخلاف و دراستها دراسة بعیدة عن التعصب المذهبی یهدی إلی الحق فی أکثر الأوقات، و إن بعض هذه المذاهب و الآراء قد أحدثتها السیاسة فی القرون الماضیة لمناصرتها و نشطت أهلها و خلفت فیهم تعصبا یساير التعصب السیاسی، ثم انقرضت تلک المذاهب السیاسیة و بقیت الآراء الدینیة لا ترتکز إلا علی ما یصوغه الخیال و ما افتراه أهلها، و هذه المذاهب فرقت الأمة التی وحدها القرآن و جعلتها شیعا فی الأصول و الفروع و نتج عن ذلک التفرق حقد و بغضاء بین من یلبسون ثوب الدین، و نتج عنه سخف ما یقال فی فروع الفقه الصحیح أن ولد الشافعی کفء لبنت الحنفی؛ و مثل ما یری فی المساجد من تعدد صلاة الجماعة و ما یسمع الیوم من الخلاف العنیف فی التوسل و الوسیلة و عذبات العمائم و طول اللحی حتی إن بعض الطوائف لا تستحی الیوم من ترک مساجد جمهرة المسلمین.

إن من الخیر و الحق أن نتدارک هذا، و أن یعنی العلماء بدراسة القرآن الکریم و السنة المطهرة دراسة عبرة و تقدیر، لما فیها من هدایة و دعوة إلی الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوی الرابطة بین العبد و ربه، و تجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشا للحق مستعدا لقبوله عاطفا علی إخوانه فی الإنسانیة کارها للبغضاء و الشحناء بین المسلمین .. قد أتهم بأنی تخیلت فخلت، و لا أبالی بهذه التهمة فی سبیل رسم الحدود، و لفت النظر إلیها و فضل اللّه واسع و قدرته شاملة، و ما ذلک علی اللّه بعزیز.

و الآن و قد أوضحت بالتقریب آمال المسلمین فی الأزهر، ترون أن

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۴

العبء الملقی علی عاتق الأزهر لیس هین الحمل، فإنه فی حاجة إلی العون الصادق من کل من یقدر علی العون: إما بالمال أو العقل، أو بالمعارف و التجارب، و کل شیء یبذل فی طریق تحقیق هذه الآمال هین، إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطیبة المبارکة ..

و لقد ولد الشیخ مصطفی المراغی فی الیوم التاسع من شهر مارس سنة ۱۸۸۱ فی المراغة من أعمال مدیریة جرجا بمصر العلیا و حفظ القرآن الکریم بمکتب القریة و تلقی علی أبیه بعض العلوم ثم التحق بالأزهر، و اتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده فثقف نفسه علیه فی دروس التفسیر التی کان یلقیها بالرواق العباسی.

و نال شهادة العالمیة عام ۱۹۰۴، و کانت سنة إذ ذاک أربعا و عشرین سنة، و کان بذلک من أصغر الحاصلین علی هذه الشهادة یومذاک.

و کان تاریخ دخوله امتحان الشهادة العالمیة هو ۱۲ ربیع الثانی ۱۳۲۲ ه، و قد أعجب به الإمام محمد عبده إعجابا شدیدا.

و لم یکن رحمه اللّه، من العاکفین علی تناول علوم الأزهر وحدها و إنما کان یضیف إلیها ما یشعر به هو نحو العلم من احتیاجات، شأن الشبان الفائقین، فلقد أخذ دراساته الشخصیة، من بطون الکتب، و من منابعها الأصلیة فی المخطوطات و الهوامش و المتون .. کما کان عاکفا علی دراسة الأدب، و دراسة الفلسفة و علم الکلام، و ما ذلک إلا استجابة منه للوقوف علی روح الثقافة، و لذلک فقد نشأ صاحب عقلیة مرنة مبسوطة، تمضی إلی الدقائق و ما یخفی أمره علی الکثیرین.

و لا جرم بعد ذلک أن یشیع اسمه بین الطلبة الذین أقبلوا حول حلقته بالجامع الأزهر، و هو یلقی علیهم الدروس بعد تخرجه، بطریقة جدیدة، کان هدفها البحث عن الحقیقة، و وسیلتها التعریج بعقلیة السامع إلی فنون الأدب و أشتات الفلسفة و أمشاج الکلام.

و رشح بعد لمنصب کبیر، هو منصب القضاء لمدیریة دنقلة فی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۵

السودان، ذلک المنصب الذی ساعده علی تسلق الحواجز السیاسیة، و إعلاء شأن کلمة الدین و الحق بین الشمال و الجنوب، فتتلمذ علیه الکثیرون من أبناء الجنوب، بعد أن استساغوا لذة الوطنیة الإسلامیة من شروح الشیخ الجلیل لقضایا الوطن بین خلصائه و صفوة تلامیذه فی السودان، و کان یعنی بذلک المسلک أن رجل الدین إنما هو من رجال السیاسة یدلی بدلوه فیها دون انغماس، حتی یکون القائد إلی تحقیق الوطنیة الإسلامیة، وفقا لتعالیم الدین، لا انحیازا إلی المعتقدات السیاسیة.

لقد کان الشیخ المراغی- رحمه اللّه- یعرف رسالة رجل الدین تماما، و هی رسالة العالم الذی یعمل للحیاة کلها، و للوطن الإسلامی کله، فلا یصدر رأیا إلا إذا کان الرأی لبنة فی بناء هذا الوطن الکبیر ..

و من ذلک، أن سلاطین باشا یوم أن عرض علیه قبول منصب قاضی قضاة السودان- قبل أن یتولی منصب رئیس المحکمة الشرعیة العلیا- اشترط لقبول المنصب أن یکون تعیینه فیه بأمر یصدره خدیو مصر، لا رجال السلطة الإنجلیزیة فی السودان.

و فی عام ۱۹۲۳ عین رئیسا للمحکمة العلیا الشرعیة، فواجه بمنصبه ذلک تلک الحوائل التی تمنی أن یقضی علیها بالمحاکم.

و کانت المحاکم الشرعیة فی ذلک الوقت تحکم فی قضایا الزواج و الطلاق و سائر الأحوال الشخصیة، وفق القول الراجح من مذهب أبی حنیفة.

و لما کانت هناک أحکام أخری تحقق التیسیر علی المتقاضین، فقد رأی أن یؤخذ بهذه الأحکام، و أن یعدل قانون المحاکم الشرعیة.

و کان من رأیه الأخذ برأی ابن تیمیة و محمد بن قیم الجوزیة فی جعل الطلاق الثلاث فی لفظ کلمة واحدة طلقة واحدة، و ما کاد یجهر بهذ

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۶

الرأی فی مشروع أعده، حتی استهدف لحملة عنیفة من بعض العلماء و رجال القضاء الشرعی.

و لکن تاریخه فی العلم، و الدراسة، و تشربه من روح الإمام الأکبر الشیخ محمد عبده مکنته من الثبات للمعرکة، و العمل علی تیسیر القضاء و تم له ما أراد.

و لعل ما کتبه فی الرد علی العلماء الذین تناقشوا معه فی تیسیر تعالیم الإسلام فی المحاکم الشرعیة مما یشرح عقلیة الرجل المبسوطة فی ثقافة الإسلام الممدودة فی بطون أسفار العلوم الإسلامیة، قال رحمه اللّه:

أثار مشروع قانون الزواج و الطلاق حرکة فکریة اجتماعیة دینیة، فنشط العلماء للبحث و الاستنباط و الرجوع إلی کتب الشریعة المطهرة، و تطبیقها علی القانون، و نشط غیرهم إلی بحثه من الوجهة الاجتماعیة، و ما لنا لا نغتبط بهذا، و قد تستمر هذه الحرکة، و یتجدد نشاط الفقه الإسلامی بعد رکوده فی المتون و الشروح، و تتجه إلیه الأنظار و تتولد فکرة تهذیبیة باختیار ما صح دلیله و ما قام البرهان علی أن فیه مصلحة الناس من أقوال أئمة الهدی وفقهاء الإسلام.

و قد یقضی علی تلک الفکرة الخاطئة فکرة وجوب تقلید الأئمة الأربعة دون سواهم سواء أوافقت مذاهبهم أم خالفتها مصلحة المجتمع.

أما جهوده فی إصلاح الأزهر و العنایة بإعادة سالف مجده إلیه کأقدم جامعة فی التاریخ، و الجامعة الکبری التی قامت علی حفظ التراث الإسلامی و لغة القرآن فحدیث معاد .. و یقول فیه الأستاذ الأکبر الشیخ عبد المجید سلیم:

لقد کان المراغی ذا فطرة سلیمة صافیة، یمدها ذکاء شدید، و استعداد طیب، و کان مما أفاده و خرجه تخریجا قویا تلمذته علی الرجلین العظیمین المغفور لهما الشیخ أحمد أبی خطوة و الشیخ محمد عبده، فعنهما اکتسب الاستقلال فی التفکیر و المیل إلی الحریة، و القصد فی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۷

الاعتقاد بما يراه أهل التقليد، و كان له مع هذا كله قدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، فی لفظ رائق و أسلوب قوی و بيان فصيح، و هذا هو السر فی أنه ظهر بين شيوخ الأزهر مبرزا قويا، مجلجلا مدويا، و إن لم يكن أكثر علما من الشيخ أبی الفضل و لا من الشيخ الشربينی.

إن العلم كسائر ما وهبه اللّه للناس، منه مبارك فيه، يجل به النفع، و يسری من صاحبه إلی غيره سهلا مفيدا، و منه ما ليس كذلك، و ليست العبرة علی كل حال بالقلة أو الكثرة، و قد كان المغفور له الشيخ المراغی كالمغفور له الأستاذ الإمام الشيخ عبده من أصحاب العلم النافع المبارك فيه .. ثم قال.

لقد كنت أنا و الشيخ المراغی صديقين حميمين، كلانا يحب صاحبه، و يقدر فيه مواهبه، و لم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة، مرت بها عهود، و أعمال مختلفة اشتركنا فيها و لكننا مع ذلك اختلفنا بعد لأی من مشيخته الثانية للأزهر، و كان خلافنا معروفا للخاصة و العامة من الأزهريين و غيرهم، و سببه الجوهری ميله رحمه اللّه إلی ناحية السياسة الحزبية و شدة نفوری من ذلك، فإنی أری أن الخير كل الخير فی أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية، و ينأوا عن مكايد الحزبية و متاعبها التی تقضی إلی ما لا يحمد من العواقب، و لكن هذا الخلاف لم يخرج بی و لا به عن الجادة، و ما ينبغی أن يكون عليه أهل العلم من المودة و النصيحة، فكنت أبدی له ودی و نصحی، و أنقد مع ذلك بعض تصرفاته التی أری أن مبعثها غالبا هو ذاك، و كان يتقبل ودی، و يبادلنی إياه، و يعتذر عن عدم مشاطرتی الرأی فيما أنقده فيه، أو يبدی من المبررات ما يراه لفعله. و علی كل حال لم يكن هذا الخلاف بالذی يقطع ما بيننا من محبة و تعاون، بل كان خلاف الشرفاء و الحمد للّه.

لقد كان رحمه اللّه فی عهد مشيخته الأولی مؤيدا تمام التأييد، و كنت معجبا بآرائه و أفكاره الإصلاحية و طريقته فی الإدارة، و تركيز قواه و ما آتاه اللّه من مواهب فی الأزهر و إصلاح شأنه، و لقد كنت أعاونه معاونة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۸

قوية، و قد ظللت أقوم علی رياسة قسم التخصص و أنا فی منصب الإفتاء مدة طويلة، أشرفت فيها علی تخريج مئات العلماء الأقوياء الذين يحملون الآن علی عواتقهم أهم أعباء الأزهر، و كنت أشترك معه فی كثير من اللجان العلمية: كلجنة الأحوال الشخصية و لجنة مناقشة الرسائل العلمية التی كان يتقدم بها طلاب شهادة العالمية من درجة أستاذ، و قد كانت هذه اللجنة تعقد أحيانا فی الرواق العباسی، و يشهدها- و المناقشات العلمية علی أتم ما تكون قوة و دقة- علماء الأزهر و طلابه و الراغبون فی العلم و البحث من غير الأزهريين .. و كما كان يتجلی فی هذه المناقشات الحرة ذكاء الشيخ المراغی و علمه و قوة تفكيره و إخلاصه للفكرة العلمية و حرصه علی تبين الحق، و ضرب المثل لأبناء الأزهر فی تقبله و النزول علی حكمه.

و كتب الأستاذ محمد فريد وجدی بمناسبة وفاته يقول: رزئت أسرة العلم فی العالم الإسلامی كله بوفاة عميدها، غير مدافع، الشيخ مصطفی المراغی شيخ الجامع الأزهر، فلا نقول: كان لها أثر بالغ فی النفوس، و لكننا نقول: إنها كانت كارثة علی الجهود النبيلة التی يبذلها العارفون بأمور الأزهر، و يعملون علی إحلاله المكانة التی تناسب عظمة الاسلام، و تمثله علی حقيقته فی نظر العالم. نعم إن البذر الذی وضعه رحمه اللّه، لينتج هذا الأثر الفخم، بطیء النمو، و لكنه هو الدواء الوحيد لداء المسلمين فی مشارق الأرض و مغاربها. لسنا نعنی بإصلاح الأزهر ترتيب الدروس فی أوقاتها، و توزيع مقررات الدراسات عليها، و تعيين المدرسين الأكفاء لتدريسها، و مراعاة كفايتهم فی تحديد مرتباتهم، كل هذه الشؤون أعراض لا تمت إلی اللباب فی شیء، و إنما إصلاحه الصحيح ينحصر فی أن يصبح جهة دينية يسندها العلم و تؤيدها الفلسفة، بحيث يتفق ذلك و حقيقة الإسلام و معناه، و لا يدع فی صدر مستشكل اعتراضا بأن الأزهر يمثل عهدا لا يمت إليه اليوم أحد بسبب. هذا الاصلاح، إن لم يصل إليه الأزهر فی يوم من الأيام، فی غير تطرف و لا تعسف، تلمس المسلمون

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۷۹

ما یمثل مطالب روحهم فی مکان آخر، أو- و هو الأرجح- اندفعوا فی تیار الفلسفة المادیة لا یلوون علی شیء، علی مثال غیرهم من الأمم الأخری. إن الشیخ المراغی کان یجید فهم هذه الناحیة من نفسیة المعاصرین، و کان یعمل فی سبیل الوصول إلی ما أشرنا إلیه فی تؤدة و رفق، صابرا علی ما یحتوش هذه التؤدة، مما یخیل أنها الوقوف بل القهقری بل الانحلال الذریع، و الحقیقة کانت غیر ذلک لمن یتأملها تحت ضوء النظر البعید، و التفکیر العمیق فی مستقبل العقیدة الإسلامیة.

کان المراغی یعلم أن العالم المتمدن الیوم انتهی إلی حد من عقائده، أملته علیه فلسفة بوخنر و هایکل و مولخوت الخ، و ان العالم الإسلامی یترسم خطواته شبرا بشبر، مدفوعا بطبیعة الدراسات العلمیة التی لا بد له منها، و کان یعلم أن الأزهر فی حالته التی هو علیها لا یصلح أن یقف حائلا دون هذا التطور، و إنه لا بد له من انقلاب ذریع یطرأ علیه لیصبح جدیرا بالمهمة التی أرادها مؤسسوه منه فی کل عهد فماذا یفعل؟

و لیس بین یدیه ممن یحسون بهذا الخطر سوی عدد نزر، لا یکفون لإحداث انتقال خطیر، یتأدی به إلی غرضه بالسرعة المرجوة؟ اضطر لأن یسیر وئیدا، و السیر الوئید فی مثل هذا العهد جریمة.

فماذا یفعل و الأحوال حوله تجری فی تیار معاکس؟ و کثیرا ما رأی أن الأولی به التخلی عن وظیفته، لو لا أن الشعب کان یری أن لیس لهذه المهمة العالمیة غیره فیتمسک به.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۰

الشیخ مصطفی عبد الرازق

ولد رحمه اللّه عام ۱۸۸۵ بأبی جرج من أعمال مدیریة المنیا، و هو الابن الثانی من أولاد المرحوم حسن عبد الرازق باشا، و بعد أن أتم تعلیمه الأولی حفظ القرآن الکریم وجوده، ثم التحق لطلب العلم بالأزهر الشریف و تخرج فی سنة ۱۹۰۶ و حصل علی شهادة العالمیة من الدرجة الأولی بین زملائه الشافعیة. و عین للتدریس فی مدرسة القضاء الشرعی، و فی سنة ۱۹۰۹ سافر إلی فرنسا و التحق بجامعة السربون لیضم إلی ثقافة الشرق ثقافة الغرب و ندبه مسیولابییر لتدریس بعض المباحث الإسلامیة بجامعة لیون، ثم عاد من فرنسا فی أوائل الحرب الکبری و عین سکرتیرا لمجلس الأزهر و کان ذلک فی سنة ۱۹۱۶ و فی سنة ۱۹۲۱ عین مفتشا فی المحاکم الشرعیة، ثم عین سنة ۱۹۲۷ أستاذا للفلسفة بکلیة الآداب بجامعة فؤاد الأول و ظل فی کرسی الأستاذیة حتی اختیر فی سنة ۱۹۳۸ وزیرا للاوقاف فی وزارة المغفور له محمد محمود باشا الثانیة و اختیر عدة مرات فی وزارات مختلفة لتولی هذا المنصب حتی انتقل المغفور له الشیخ المراغی شیخ الأزهر إلی جوار ربه، فاختیر لهذا المنصب و هو وزیر الأوقاف و صدر الأمر الملکی بتعیینه شیخا للأزهر فی ۲۷ دیسمبر سنة ۱۹۴۵، و ظل فی هذا المنصب حتی لقی الرفیق الأعلی و قد اختیر أمیرا للحج فی العام الذی توفی فیه، فکان خیر مبعوث لمصر بین أبناء البلاد الإسلامیة عند البیت الحرام. و یقول عند الأستاذ محمد فرید وجدی حین وفاته: انتقل إلی عالم الأرواح الخالدة الأستاذ الأکبر الشیخ مصطفی عبد الرازق، شیخ الجامع

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۱

الأزهر، و هو أصح ما یکون جسما و عقلا، فکان لهذه الفجاءة أثر فی النفوس لم نشهد مثله لأحد قبله، لأن الناس کانوا أحوج ما یکونون إلی مثله فی هذا العهد من الانتقال، و فی هذا الدور من الاعتراک بین القدیم و الحدیث، و کان الأستاذ بشخصیته الممتازة، و سعة أفقه الثقافی خیر من یدرک آثار هذا العهد فی حیاة الأمم، و أصلح من یوکل إلیه أمر التوفیق بینهما لمصلحة الدین و الدنیا معا. فلا غرو إن ساور الهلع کل نفس تنتظر عهد الاستقرار و الهدوء و التقدم. لم أر فیمن قابلت من القادة و الأعلین أکرم خلقا فی غیر استکانة، و لا أهدأ نفسا فی غیر وهن، و لا أکثر بشاشة فی غیر رخوة، من الشیخ مصطفی عبد الرازق، و کل ذلک إلی حزم لا یعتوره لوث، و احتیاط لا یشوبه تنطع، و أناة لا یفسدها فتور، و إدمان علی العمل ینسی معه نفسه، و هی صفات کبار القادة. و علیة

المصلحین، ممن خلقوا لمعالجة الشؤون المعقدة، و حسم المنازعات الشائکة، و التوفیق بین المطالب المتنافرة، و هذه مواقف کما تقتضی مضاء العزیمة، تحتاج إلی هوادة الأناة، و کما تستدعی سرعة البت، لا بد لها من القدرة علی إزالة الحوائل، و قدیما قالوا: رب عجلة أورثت ریثا، و رب إقدام جر إلی نکوص، فکان بما حباه به بارئه من هذه المواهب النادرة، کفاء المهمة التی وفق المسؤولون فی إسنادها إلیه، و کنت لا أشک فی أنه بما جبل علیه من حب الإصلاح، و ما اتصف به من الصفات التی سردناها آنفا، سیصل إلی حل مشکلة الأزهر حلا حاسما، یعیش تحت نظامه آمنا شر العوادی، و فی منجاة من عوامل القلق و الاضطراب. ذلک أنه بما تضلع من إلمام بنظم الجامعات، و ما حصل من علم بمقوماتها و حاجاتها؛ لتمضیته فی صمیمها سنین طوالا من حیاته طالبا و مدرسا، یعرف من أسرار حیاتها و بقائها و بواعث عللها و أعراضها، ما لا یعلمه إلا الأقلون، و الأزهر لا یخرج عن جامعة قدیمة فی دور انتقال، تتفاعل لتتناسب و العهد الذی تعیش فیه، فهی فی حاجة إلی أن تحصل علی المقومات التی تؤاتیها بهذا التناسب، و هو لا ینحصر فی زیادة میزانیتها، و لا فی تهذیب برامج

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۲

دراستها، و لکنه یتعداهما إلی ما هو إیجاد المجال الحیوی لخریجیها.

ولد فقیدنا أجزل اللّه ثوابه فی قریة أبی جرج بمدیریة المنیا سنة (۱۳۰۴) ه الموافقة لسنة (۱۸۸۵) م و تلقی التعلیم الأولی فیها، ثم بعث به والده إلی الأزهر فلبث فیه اثنتی عشرة سنة. و لما نال درجة العالمیة فیه أسندت إلیه مهمة التدریس فی مدرسة القضاء الشرعی. ثم رأی أن الأولی به أن یتمم ثقافته بالمعارف الغربیة، فأم باریس، و التحق بجامعة (السوربون) المشهورة و نال إجازة فی الأدب الفرنسی و الفلسفة، و انتقل من السوربون إلی معهد الدراسات الاجتماعیة العلیا لینال حظا من معارفها. ثم دعاه الأستاذ لامبییر إلی لیون لیلقی محاضرات فی الشریعة الإسلامیة، و یقوم بتدریس اللغة العربیة هناک، فلم تمنعه هذه الأعمال من متابعة دراساته فی الفلسفة و الأدب الفرنسی. و فی هذه الأثناء تتلمذ للأستاذ جوبلو، الذی کان مرجع علم المنطق فی فرنسا إذ ذاک، و لما عاد إلی مصر سنة ۱۹۱۶، عین سکرتیر المجلس الأزهر الأعلی، ثم مفتشا للمحاکم الشرعیة سنة ۱۹۲۱. و فی سنة ۱۹۲۷ عین أستاذا للمنطق و الفلسفة الإسلامیة بجامعة فؤاد، و إلیه یرجع الفضل فی إحیاء المصطلحات العربیة القدیمة و استعمالها فی تعلیم فروع الفلسفة.

و مما هو جدیر بالذکر أن جمیع مدرسی الفلسفة فی عهدنا الحاضر بجامعتی فؤاد و الاسکندریة من تلامیذه، و لم تنقطع صلتهم به، و قد أسندت إلیه وزارة الأوقاف مرتین ، و لما توفی الأستاذ الشیخ محمد مصطفی المراغی، و عز وجود من یملأ مکانه، أسندت المشیخة إلیه فی ۲۷ من دیسمبر سنة ۱۹۴۵.

و من مؤلفاته العدیدة:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۳

۱- ترجمة فرنسیة لرسالة التوحید تألیف الشیخ محمد عبده، وضعها بالاشتراک مع الأستاذ میشیل، و حلاها هو بمقدمة طویلة.

۲- رسائل صغیرة بالفرنسیة عن المرحوم الأثری الکبیر بهجت بک، و عن معنی الإسلام و معنی الدین فی الإسلام.

۳- کتاب التمهید لتاریخ الفلسفة.

۴- فیلسوف العرب و المعلم الثانی. لاسلامیة.

۵- الدین و الوحی فی الإسلام.

۶- الإمام الشافعی.

۷- الامام محمد عبده، و هو مجموع محاضرات ألقیت فی الجامعة الشعبیة سنة ۱۹۱۹ .... و کلها مؤلفات تعتبر غایة فی الإفادة.

و له کتب لم تنشر، منها مؤلف کبیر فی المنطق، و کتاب فی التصوف، و فصول فی الأدب تقع فی مجلدین کبیرین. و کان رئیسا لمجلس إدارة الجمعیة الخیریة، التی کان والده من مؤسسیها، و کان عضوا فی مجمع اللغة العربیة، و المجمع العلمی المصری.

و فی ۲۷ مارس عام ۱۹۴۷ أقیمت حفلة لتأبینه فی جامعة فؤاد الأول، ألقی فیها لطفی السید و عبد العزیز فهمی و الدکتور حسین هیکل و منصور فهمی و إبراهیم دسوقی أباظة و طه حسین و أمین الخولی و العقاد و سواهم کلمات و قصائد فی الإشادة بمناقبه. و ألقی الشیخ محمد عبد اللطیف دراز فی الحفلة کلمة جاء فیها:

عرفت مصطفی عبد الرازق سکرتیرا عاما لمجلس الأزهر الأعلی، و عرفته موظفا فی وزارة العدل بعد إبعاده عن الأزهر بسبب موقف وطنی کریم، و عرفته أستاذا فی الجامعة، و وزیرا، و شیخا للجامع الأزهر، و خالطته أطول مخالطة، و خبرته أشد الخبرة فی کل ما ینبغی أن یعرف صدیق عن صدیق، و أخ عن أخ، فأشهد ما تقلب به دهر، و لا حاد عن

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۴

عهد، و لا زال عنه من خلق الرجال ما یزول عن المسترجلین و المتعاظمین، إذا دالت الدولة و نبا الزمان و تقطعت بهم الأسباب، فهو راض و إن سخط غیره، و هو سمح و إن تعسر الزمان.

کان مصطفی عبد الرازق مثقفا، و لکن أیة ثقافة هی؟ هی الثقافة الإسلامیة التی أفنی العمر فی تصویرها و الدعوة إلیها، و حمل الأمة علیها جمال الدین الأفغانی و محمد عبده و عبد الرحمن الکواکبی و محمد مصطفی المراغی و غیرهم من قادة النهضة و أئمة الإسلام فی عصرنا القریب. کان هو المثال الذی تمثلت فیه هذه الثقافة الحیة الناهضة الجامعة بین خیر ما فی الشرق و خیر ما فی الغرب من تراث الإسلام الطاهر، و ثمرة العقول الناضجة، و بهذا نعلم مقدار خسارتنا و خسارة الأزهر و الإسلام بفقد هذا الرجل. کان مصطفی عبد الرازق مؤمنا، و إیمانه هو الذی کون له هذه النفس القویة العظیمة، فإن الثقافة وحدها لا تصنع النفوس، فنحن نری بعض المثقفین یتخذون من ثقافتهم طریقا لمجرد کسب العیش، و هی فی البعض الآخر طریق إلی الشرور و المآثم و الفتن، تشقی و لا تسعد، و تدمر و لا- تعمر، و تهلک الحرث و النسل، و یبغی بها الناس بعضهم علی بعض، و یسعون بها فی الأرض فسادا، فما أبعد الفرق بین هذه الثقافة و بین کرائم الإیمان!. تلک مادیة صرف، و لیس من هذا فقط کان فسادها فقد تنفع المادة و تصلح، و لکن فسادها کان من أن الشیطان تولی زمامها فصرفها عن غایتها المثلی و أرکسها فی الشهوات و الأهواء. أما مواهب الایمان فهی نفحات قدسیة تملأ القلب هدایة و نورا، و سکینة و ثباتا، و أمنا و سلاما، و محبة و رضا، و أملا فی اللّه و مراقبة له، و عملا لوجه ربک ذی الجلال و الإکرام. و هذه هی السعادة التی جاء بها المرسلون و جاهد فی سبیلها المصلحون، و سعد بها المؤمنون، فإذا هیء لنفس طیبة نبیلة أن تجمع بین هبة الدین الحق و العلم الصحیح، فقد أشرقت بنور علی نور، و نور الإیمان باللّه یملأ القلب، و نور العلم یهتدی به العقل فی الوصول إلی الحق. و کذلک کان فضل اللّه و نعمته علی فقیدنا الکریم علیه رحمة اللّه:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۵

جمع اللّه له من خیر ما یحمد لعباده الصالحین، فمنحه سلامة الفطرة، فکان من أسلم الناس نفسا، و منحة سداد العقیدة فکان من أنفذ الناس بصیرة فی الدین، و من أشدهم استمساکا به و اعتصاما بهدیه، و منحه العلم الصحیح و المعرفة الواسعة فکان من أجمع الناس لعلوم الشرق و الغرب، تمثلهما عن خبرة و درایة و إمامة، و هو بهذا من الأمثلة الکاملة فی الشرق للثقافة الإسلامیة الکاملة. فإذا أراد الأزهر مثالا- أعلی لأبنائه و إذا أراد الأزهر مثالا أعلی لشیوخه و رؤسائه، فإن مصطفی عبد الرازق هو المثل الذی یعز نظیره و یندر وجوده. و هل هناک أدلة علی بنوته الأصیلة للأزهر من أن ثقافته الحدیثة لم تحل بینه و بین أزهریته فی جمیع مراحل حیاته، و بقی ابنا للأزهر فی روحه و عمله و فی وفائه لأصدقائه؟ و قد بالغ فی التمسک بأزهریته إلی حد أنه و قد تقلد منصب الوزارة لم یستطع أن یغیر زیه الأزهری و قد قبل منه ذلک علی روی. و هل هناک دلیل علی تأصل الروح الأزهری فی نفسه أظهر من هذا؟ إن الطلبة الأزهریین الآن یحاولون أن یخلعوا أزیاءهم لیبرزوا فی صورة أخری زعموا أنها هی الموافقة لروح العصر، فکیف تقول فی رجل سافر إلی أوروبا و تولی من المناصب و خالط من الأشخاص و الهیئات و البیئات ما کان یلح فی دعائه إلی تغییر زیه فلم یجد منه ذلک کله إلا إباء و امتناعا و اعتصاما بکل ما یدل علی أنه ابن الأزهر؟ و مسألة الزی عندنا مسألة شکلیة، و لکنی قصدت أن أشیر إلی مظهر

للأزهرية الأصيلة فى نفس مصطفى عبد الرازق، و هذه الأزهرية الصحيحة هى التى مكنت له أن يجمع بين ثقافة الشرق و الغرب فلم يختلفا عليه، و لم يستعص عليه أمرهما كما استعصى على غيره. و إذا تحدث متحدث عن مصطفى عبد الرازق فلن يستطيع أن يغفل الحديث عن سماحة نفسه و عطفه على المحتاجين، و إن كان حديثه معادا، لأن فى تكرار هذا الحديث متعة لنفس المتحدث و نفوس السامعين، يعرف هذه السماحة كل موطن من المواطن التى عاش فيها الفقيد موظفا و غير موظف، فى الجامعة و فى الأزهر، يعرف الطلبة الذين كاد الفقر أن يحول بينهم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۶

و بين عايتهم، فكان مصطفى عبد الرازق هو الذى يكفيهم، و هو الذى يفرج عنهم- بفضل اللّه عليهم و عليه- هذه الشدة، و تعرفه عائلات فقيرة أخنى عليها الدهر، فكان مصطفى عبد الرازق غوثها و مددها و عائلها، يخفى ذلك عن الناس، و لو استطاع لأخفاه عن نفسه، حتى لا تعرف شماله ما تنفق يمينه.

و فى مارس عام ۱۹۴۷ أيضا أقام معهد المنيا الدينى حفلة تأبين للمغفور له الأستاذ الأكبر الراحل، ألقى فيها صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون خطبة بليغة جاء فيها: فجع الأزهر فى شيخه فجاءة، فكانت صدمة الفجيعة فيه شديدة، صدمة روعت القلوب، و أذهلت النفوس، و أدهشت العقول. وقعت الواقعة فى وقت كان الأزهر يستشرف بواكير أعمال شيخه الجليل و إصلاحاته التى وضع أسسها فى أيامه القليلة التى قضاها بين ربوعه .. إن الشيخ مصطفى كان يحمل على أطواء قلبه النابض بالخير للأزهر و الإسلام بنود العمل المجيد، و النهضة الصالحة للجامعة الأزهرية بما يكفل لها الحياة الأزهرية القيمة، و المستوى الرفيع بين جامعات الأمم المتحضرة. و كان طموحه و هدفه أن ييسر للأزهر النهوض برسالته الدينية و الجماعية، و نشر السلام و الطمأنينة فى هذا العالم المملوء بالشرور و القلق الروحى.

كان يجمعنا إليه و يضع الاقتراح فى مسألة معينة من مسائل الإصلاح فى الأزهر، و نتداول الرأى فيها و يدلى هو برأيه كالمستفهم، و فى النهاية يستقيم الأمر على الأساس الذى ارتآه فى نفسه و فى سريرته. و هكذا دواليك، حتى اجتمع من ذلك جملة مسائل للإصلاح الذى انتواه، و وضع أساسه، و أزمع إجراءه. و فى الحق: انه ما كان يقطع برأى دون الإجماع منا على استحسانه و نفعه، و كان سبيله فى الإقناع الرفق و اللين، و الحجة الناطقة، و البرهان الواضح. وضع مرة مسألة أمامنا: فقيدنا العظيم، و وكيل الأزهر، و مديره، و المائل أمامكم. تداولنا الرأى فى المسألة فكان رأيى مخالفا للجميع فى صلابة. فابتسم المغفور له ابتسامة عميقة الإحساس،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۷

ثم قال: لعل لفلان حجة يكون فيها مقنع لنا. و ما زال بى يلطف و يرق، و يعالج و يقنع، حتى جرنى إليه و أسلس قيادى، فكنت فى صف الجماعة.

و كان شيخنا كثير الحلم و الأناة. و أذكر أنه عرض من بعض الطلبة شىء مخالف قبيل وفاته مما يستفز صدر الحليم، فرعد و زمع، و تمعر وجهه على غير عادته، فقلت: سيدى أين غاب عنك حلمك، و لم تغيرت عادتك فى هذه المرة؟! فقال مبتسما، و فى صوت مرنان: و من ذا الذى ياعز لا يتغير؟

إن الأزهر حين فجع فى شيخه الأكبر، فإنما فجع فى أسمى و أطيب و أعرق الخلال الكريمة التى لو وزعت على جماعة كثيرة لوسعتهم جميعا، و كان أجلى ما فى خلاله الوفاء، الوفاء الخالص المتصل، لأصدقائه ولداته، و العفاة المحرومين الذين اتصلوا به، و كان إلى جانب الوفاء الكرم و السماحة، كرم النفس، و سماحة الصدر إلى حد التضحية بكل نفيس فى سبيل ذلك. و فى جانب الوفاء و الكرم و السماحة و الحياء.

و من كلماته كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيسا فخريا لجمعيات المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراغى، قال فيها:

«القرآن مصقلة القلوب كما ورد فى الحديث، و ما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها و يجلو منها الصدأ! و القرآن هدى و نور، فهل إلا

القرآن لما بغشى العالم اليوم من ظلام و ضلال، و القرآن من بعد هذا ثقاف للألسن، يقوم عوجها، و يصلح عجمتها، و يغذى من البلاغة مادتها، فمن عمل على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن و ترتيله و مدارسته، فإنما يصلح القلوب، و يقوم الأخلاق، و يخدم العربية، و ما أشرف ذلك مقصدا و أعظمه نفعا!» و يتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوى بعد وفاة الرئيس الفخرى السابق رضى اللّه عنه أن نذكر مآثره الباقيات فى خدمة القرآن الكريم: كان رحمه اللّه مسلما صادقا، و كان يحب القرآن حبا جما، و قد عنى فى أكثر دروسه الدينية بالتفسير فى أسلوب يلائم جلال كتاب اللّه، و يوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الإمام «الشيخ محمد عبده». و وجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالية لعلوم

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۸

القرآن، و قد أنشأ معهد القراءات و التجويد، و المرجو أن يتابع الأزهر السير فى هذه السبيل، فيقوى معهد القراءات و يكمله، و ينشىء إلى جانبه دراسات عالية للحديث و علومه، حتى يستوفى الأزهر جميع الوسائل التى تعده لأن يكون كعبة المسلمين فى كل ما يتصل بالقرآن و الحديث. و فى مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق .

رأى طه حسين فى الشيخ كتب طه حسين عن مصطفى عبد الرزق يقول: كنت فى السادسة عشرة حين لقيته لأول مرة حين أقبل زائرا لثلاثة من رفاقه فى الأزهر، بينهم أخى، و كانوا جميعا يقيمون فى غرفات متقاربة فى ربع من تلك الربوع التى كان طلاب الأزهر يحتلونها فى حوش عطى .. و كانوا يجتمعون فى غرفة أحدهم حين يزورهم الزائرون، و قد كان الاجتماع فى غرفتنا تلك المرة. و قد لقيت منه شابا حار الصوت، صادق اللهجة، عذب الحديث، لا يرفع صوته إلا بمقدار، و كان قليل الحركة، معتدل النشاط، يمتاز من رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادىء المطمئن الذى لا يتسم به الشباب عادة، و إنما هو سمة الشيوخ و من يجرى مجراهم من الذين تقدمت بهم السن.

كان جم الأدب، موفور التواضع، لا يتجاوزر القصد فى قول أو عمل، يفرض عليه طبعه ذلك، و يفرضه هو على الذين يجالسهم أو يتحدث إليهم، كأنما كان يلقى فى نفوسهم و قلوبهم و على ألسنتهم، فضلا من وقاره و هدوء نفسه. فهم يتحدثون مثله فى أناة، و يضحكون مثله فى قصد، و يروون معه أحاديث الجد، و ربما عبثوا شيئا بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر. و مضى وقت غير قصير قبل أن تقوى الصلة بينه و بينى.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۸۹

كان قد أشرف على الخروج من طور الطلب إلى طور العلماء، و كنت فى أول عهدى بالدرس، لم أنفق فى الأزهر إلا عامين أو ثلاثة، و كان أولئك الرفاق يلقونه فى درس الأستاذ الإمام، و يزورونه- إذا أقبل الليل- فى داره بعابدين. فإذا عادوا تحدثوا عنه و عن إخوته، و عمن كانوا يلقونه فى تلك الدار من أصحاب المنازل الرفيعة، يملأون أفواههم بهذه الأحاديث، و يشعرون بأنها ترفعهم درجة عن أمثالهم من الطلاب.

و كان أولئك الرفاق يمتازون من زملائهم بالذكاء، و حسن التحصيل، و البراعة فى مجادلة الشيوخ. و أكبر الظن أن هذا هو الذى لفت إليهم زميلهم مصطفى عبد الرازق، فقد كان شديد الحرص على أن يصل أسبابه بأسباب الذين يحبون العلم، و يمتازون فيه، كأنه أخذ هذه الخصلة عن والده و عن أستاذه الإمام، فكلاهما كان يرى حب العلم نادرا فى مصر، و يبحث عن الذين يتصفون به بين طلاب الأزهر و غيرهم من الشباب. و قد ظلت هذه الخصلة ملازمة لمصطفى عبد الرازق حياته كلها، و قد وصلت أسبابه بكثير من الذين امتازوا فى طلب العلم بين الأزهريين و بين المختلفين إلى مدرسة القضاء و بين الجامعيين آخر الأمر، على اختلاف بيئاتهم و طبقاتهم.

و كان لا يعرف محبا لطلب العلم مخلصا فى هذا الحب إلا سعى إليه و اتصل به و قربه منه و فتح له قلبه و عقله و داره أيضا. و مهما أنس فلن أنسى تلك الجماعة التى ألفها من بعض أولئك الممتازين من طلاب العلم فى الأزهر، و نظم لها اجتماعا برياسته مساء

الجمعة من كل أسبوع.

و كانت هذه الجماعة تلتقى فى غرفة من غرفات الطلاب فى ربع من ربوعهم أيضا بخان الخليلى، و يلقى أعضاؤها أحاديث فى موضوعات مختلفة تدور كلها حول الإصلاح الذى كانت مصر كلها تتحرق ظمأ إليه، و إلى إصلاح الأزهر خاصة بعد أن شب الأستاذ الإمام فى قلوب الممتازين من شبابه جذوة الثورة على ذلك الركود الذى اطمأن إليه الأزهر قرونا طوالا.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۰

و كان افتتاح مصطفى عبد الرازق لجلسات تلك الجماعة هو أشد ما يعجبنى و يروعنى، فهو لم يكن يزيد على أن يسمى اللّه و يقرأ الفاتحة، ثم تأخذ الجماعة فيما تريد أن تدير بينها من الحديث و أى افتتاح أبلغ و أوقع فى القلوب من اسم اللّه و فاتحة الكتاب المجيد! و قد عرفت بعد ذلك أن مصطفى عبد الرازق كان يذهب فى ذلك مذهب الوفاء الصادق لأستاذه الإمام الذى افتتح رسالته فى التوحيد نفس هذا الافتتاح.

و إذا كان حب العلم و طلابه المخلصين هو الخصلة الأولى من الخصال التى لزمته حياته كلها، فخصلة الوفاء هى الخصلة الثانية من خصاله. فقد عرفته محبا للعلم و طلابه كأشد ما يكون الحب و أصدقه و أعمقه، يسعى إليهم و يقربهم منه و يؤثرهم بالخير و ينزلهم من نفسه مكانة الصديق، و عرفته كذلك وفيا لكل من أحب من الناس لا يفرق بينهم فى ذلك مهما تكن الظروف و مهما يبعد بهم الزمان و المكان و مهما تلم الأحداث و تدلهم الخطوب.

كان وفيا للشافعى، رحمه اللّه، لأنه كان يذهب مذهبه فى الفقه، و يرى الوفاء له دينا عليه. و من أجل ذلك ترجم رسالته و عنى بدرسها و ترجمتها وقتا غير قصير. و أثر هذا الوفاء للشافعى فى حياته العقلية نفسها و فى نهجه الفلسفى تأثيرا شديدا، و فتح له أبوابا من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين. فدراسته لرسالة الشافعى فى الأصول ألقت فى روعه رأيا خصبا لم يستغله تلاميذه بعد، و أرجو أن يتاح لبعضهم تعمقه و استقصاء آثاره الخطيرة فى تاريخ الحياة العقلية للمسلمين. فقد رأى أن الشافعى يفلسف فى أصول الفقه و ما يتصل به من المشكلات المختلفة فى الدين و اللغة و استنباط الأحكام من النصوص، فارتقى برأيه هذا إلى من سبق الشافعى من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا فى أصول الفقه وحدها، بل جادلوا فى أصول الدين أيضا، فأولئك الزعماء القدماء للأحزاب الإسلامية الأولى. حين كانوا يجادلون فى مذاهب أحزابهم و آرائها فيمن ثاروا بعثمان و من تابعوا عليا و من خاصموه و من وقف من هذه

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۱

الفتنة موقف الحياد، و حين كانوا يجادلون فى مقترف الكبيرة أمؤمن هو أم كافر أم هو يصير إلى منزلة بين منزلتين من الإيمان و الكفر أم هو مرجأ إلى اللّه يقضى فى أمره بالحق؟ و حين صاروا من هذا الجدال إلى الجدال فى أمور أخرى أعمق من هذه الأمور، فجادلوا فى العدل و التوحيد، إنما كانوا يفلسفون فى مسائل الدين قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين و اليهود. و معنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم، و كانت فلسفة يسيرة سمحة كالإسلام نفسه، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها ما فى هذه الفلسفة من العسر و التعقيد.

و كذلك جره الوفاء للشافعى، رحمه اللّه، إلى استكشاف مذهب جديد فى الفلسفة الإسلامية له خطره العظيم أن عرف تلاميذه كيف يتعمقون و ينتهون به إلى غايته.

و كان وفيا للذين عرفهم و حسنت الصلة بينه و بينهم من الأساتذة الفرنسيين حين أقام فى فرنسا طالبا للعلم الحديث، بعد أن أخذ بحظه من العلم القديم فى مصر.

عرف أستاذا فرنسيا شابا فى إحدى الجامعات هناك و اشتد الألف بينهما، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، و دعى ذلك الأستاذ الفرنسى إلى أداء واجبه العسكرى، فاستجاب للدعاء و ترك زوجة و ليس لها عائل، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه

بالنصيب الأوفر مما كان يصل إليه من المال، لا يتردد فى ذلك و لا ينقطع عنه حتى عاد إلى مصر. و اللّه يعلم ماذا فعل بعد عودته. و قد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسى نفسه، و قد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث، و ظل وفيا لهذا الأستاذ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، و مضى شىء من الوقت، و خلا منصب فنى من المناصب فى مصر، و لم يكن بين المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب، و أخذت الحكومة تبحث عن أجنبى- جدّ مصطفى حتى اختير صديقه ذاك لهذا المنصب. و سألته عن عنايته الخاصة بهذا

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۲

الأستاذ وجده فى السعى له، فأنبأنى بأنه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولا، و بأنه فقد زوجه و جزع لفقدها، فمن الخير أن يترك وطنه و مدينته و يشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد فى ذلك عزاء و تسلية.

و ربما جر عليه وفاؤه ذاك بعض ما كان يضيق به من الأمر، و لكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيرا أم شرا، بل لم يحفل قط بعواقب الواجب و ما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه. كان سعد زغلول منفيا عن وطنه و كانت زوجه تعيش فى دارها بالقاهرة يبرها المصريون و السعديون منهم خاصة، و كان مصطفى من أسرة تذهب مذهب الأحرار الدستوريين الذين كانوا يخاصمون سعدا أشد الخصام، و كان مفتشا قضائيا بوزارة العدل، و أقبل عيد من الأعياد، فلم يتردد مصطفى فى أن يذهب إلى دار سعد و يترك بطاقته هناك.

و انقضت أيام العيد، و ذهب مصطفى إلى عمله، فلم يكد يستقر فى مكتبه حتى دعى للقاء الوزير. فلما لقيه قال له الوزير: ألم أعلم أنك ذهبت الى دار سعد و تركت فيها بطاقتك يوم العيد؟ قال مصطفى: قد كان ذلك. قال الوزير: أو لم تعلم أن سعدا يناوىء الحكومة القائمة و أن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى: تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة و لا بالحكومة، قال الوزير: فأنت مفصول منذ الآن. قال مصطفى: أنت و ما تريد. و عاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان.

و لكن رئيس الوزراء ثروت باشا، رحمه اللّه، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه، و ترضى ذلك الوفى الذى وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء.

و البر بطلاب العلم خاصة، و بكل من يحتاج إلى البر عامة، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق. فلم أعرف قط قلبا ابر بفقير و لا نفسا أرق لذى حاجة، و لا يدا أسرع إلى العطاء، من قلب مصطفى عبد الرازق و نفسه و يده.

كان أستاذا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، و كنت لها عميدا فى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۳

بعض الأوقات، و كان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية فى الكلية إذ ذاك، فكان يسعى إلى فى بعضهم، فأجتهد له فى ذلك حتى لا أجد سبيلا إلى الاجتهاد، فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد. و كلمته فى ذلك ذات يوم و قلت له: توشك ألا تجد شيئا من مرتبك آخر الشهر، فضحك ضحكة حلوة، و قدم إلى سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التى لم أنسها قط، و التى ينبغى أن يذكرها كل قادر على العون:

و ماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم و نحن نرى؟

كان وفيا و كان أبيا و كان برا و كان سمح الطبع و النفس و القلب. لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت. و كان لهذه الخصال كلها تأثير أى تأثير فى حديثه إذا تكلم و فى فنه اذا كتب.

و اقرأ ما شئت من فصول هذا الكتاب: ما كتبه منها أيام شبابه الأول، و ما كتبه منها بعد أن تقدمت به السن، ما كتبه منها حين كانت الأيام هينة لينة، و ما كتبه منها حين كانت الأيام شدادا ثاقلا.

لم يكن شىء قادرا على ان يغير من خصاله تلك شيئا. كان سمحا فى جميع أطواره و فى أطوار من حوله من الناس و ما يحيط به من

الظروف. كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه، و الحديث العذب ألزم شيء له. و كان يضيف إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب، و هى خصلة العناية الدقيقة جدا بالتفكير أولا و بالتعبير بعد ذلك عما فكر فيه.

كان لا يكره شيئا كما كان يكره العجلة فى القول و العمل و المشى أيضا.

كان شديد الإيثار للإناة. و كان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق و الزملاء، فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات، و يحضر أعضاء هذه الاجتماعات فى الموعد المقدر لا يتأخرون عنه إلا الدقيقة أو الدقائق القليلة إلا مصطفى، فكان يأتى دائما متأخرا جدا و كان زملاؤه لا يحبون

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۴

أن يأخذوا فى العمل قبل حضوره. فكانوا ينتظرون و ينتظرون، و ربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق، و لكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة تلك، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له، و لا يأخذون فى عملهم إلا بعد دعابة لا تمل.

و كان لهذه الأناة أثرها فى كتابته، فأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافرا أو فجا لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه. و أنت لا تجد فيما يكتب لفظا نابيا عن موضعه، أو كلمة قلقة فى مكانها، و إنما كان كلامه يجرى هادئا مطمئنا كما يجرى ماء الجدول النقى، حتى حين يداعب صفحته النسيم و كنت أشبه له كتابته بعمل صاحب الجواهر: يستأنى بها و يتأنق فى صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة تثير فيمن يراها المتعة و الرضى و الإعجاب. كان يتأنق فى فنه كما كان يتأنق فى حياته كلها، و كما كان يتأنق فى سيرته مع الناس جميعا، سواء منهم من كان يألف و من كان يجفو. فلست أعرف أن أحدا سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه. كان راضى النفس، يبعث الرضى فى نفوس الناس حين يرونه و حين يسمعونه و حين يقرؤون له.

و انى لأذكر حديثا له ألقاه فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين فى مدينة «ليدن» و كان المؤتمرون كثيرين، و كانت أحاديثهم كثيرة متنوعة، و كان رئيس الجلسة مضطرا إلى أن يقدر للمتحدثين عشرين دقيقة لا يعدوها احد مهما يكن حديثه. و قد التزم المؤتمرون ذلك و لم يخالف عنه أحد منهم. فلما أخذ مصطفى فى حديثه فى صوته ذاك الهادىء العذب الرقيق أصغت إليه الآذان، ثم صغت إليه القلوب، ثم اتصلت به النفوس، و كان يقطع حديثه بين حين و حين و يلتفت إلى الرئيس مبتسما كأنه يسأله: أيمضى فى حديثه! فيشير الرئيس إليه: أن نعم، حتى إذا أتم حديثه كان قد جاوز الأربعين من الدقائق. لم يحس أحد أنه قد أطال، و أخذ من الوقت أكثر مما كان ينبغى له.

و اقرأ هذا السفر الضخم الذى تختلف فيه الأحاديث و الموضوعات

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۵

اختلافا شديدا فستراه على ذلك مؤتلفا أشد الائتلاف يؤلف بين مختلفاته ما تفيض عليه نفس الكاتب الهادئة السمحة الرزينة من هدوء سمح رزين.

و لو أنى أرسلت نفسى على سجيتها لما وجدت لحديثى عن مصطفى غاية انتهى اليها أو حدا أقف عنده.

فاشهد ما مر بى يوم دون أن أفكر فيه يقظا، و أشهد ما مر أسبوع دون أن أراه فيما يرى النائم، كما كنت ألقاه اثناء الحياة.

فلأخلص أنا للتفكير فى هذا الصديق العزيز، و لتخلص أنت لقراءة أصدق حديث لأخ عن أخيه اولا، و أسمح كلام كتبه كاتب فى هذا العصر الحديث بعد ذلك.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۶

الشيخ مأمون الشنّاوى شيخ الأزهر ۱۸۸۰- ۱۹۵۰

من بيت علم و تقوى و صلاح، كان والده الشيخ سيد أحمد الشناوى من مركز السمبلاوين، و أقام فى بلدة الزرقا من أعمال مديرية الدقهلية لمصالح مالية له، و كان عالما جليلا متفقها فى شئون الدين، و كان أخوه الأكبر فضيلة الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ سيد الشناوى من كبار رجال القضاء الشرعى، و تولى رئاسة المحكمة العليا الشرعية، و مات بعد أن ترك وراءه ذكرى عاطرة، و آثارا طيبة فى القضاء، و أحكاما تعد مثالا يحتذى فى سلامة الفهم، و نفاذ الخاطر، و سعة الإطلاع.

-۲-

ولد عام ۱۸۸۵، و حفظ القرآن الكريم فى قريته و هو فى الثانية عشرة من عمره.

و أرسله والده إلى الأزهر الشريف بالقاهرة يطلب العلم، فعاش عيشة طلاب الأزهر، يوجهه أخوه الأكبر الشيخ السيد الشناوى الذى كان قد سبقه بسنوات إلى المجاورة فى الأزهر.

و كاد الشيخ محمد مأمون يسأم من حياته فى الأزهر، و ينقطع عن الدراسة، و يترك التعليم، و يعيش فى قريته فلاحا يزرع الأرض، لو لا أن والده أخبره أنه

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۷

رأى فى نومه حلما يدل على أنه سيكون له ولدان عالمان، فاستبشر محمد مأمون بهذه الرؤيا و عاد إلى الأزهر.

و واصل الدراسة حتى كان موضع إعجاب شيوخه، و أساتذته، و فى طليعتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، و الشيخ أبو الفضل الجيزاوى.

و تقدم الشاب الشيخ محمد مأمون لامتحان العالمية، و لكنه كان قد سبقته و شايات بعض الطلاب إلى أساتذته، بأنه يتناولهم بالنقد، و أنه شاعر، إلى غير ذلك، فأخذ أعضاء اللجنة يتحدونه و هو يتحداهم .. و كان الشيخ أبو الفضل الجيزاوى أحد الأعضاء، و لكنه لم يكن يعرف شيئا عن الوشايات التى بلغت زملاءه، و رأى هذا العالم الصغير الشاب جديرا بلقب «عالم»، بل مثالا لإخوانه فى سلامة الفهم و سعة المحصول العلمى، فدافع عنه و نال شهادة العالمية عام ۱۹۰۶ .. و مما يذكر أنه و هو يتأهب لامتحان العالمية أصابه إجهاد شديد من كثرة المذاكرة، فذهب إلى عالم صالح من أولياء اللّه، يستفتيه فى أمره، فبشره هذا الولى بأنه سيكون عالما فاضلا فقاضيا عادلا، فإماما نبيلا، فرئيسا جليلا، فشيخا كبيرا .. و تحققت النبوءة على مر الأيام.

-۳-

و عين مدرسا بمعهد الاسكندرية الدينى، بعد تخرجه من الأزهر. ثم اختير عام ۱۹۱۷ قاضيا شرعيا بعد أن طارت شهرته، و ذاع صيته، و ضرب أحسن الأمثال فى جلال الخلق، و سعة الأفق، و طول الباع فى الإلمام بأسرار علوم الشريعة و الدين.

و اختير محمد مأمون الشناوى إماما (للسراى)، ثقة بعلمه و خلقه و دينه و فضله، فكان موضع التقدير و الإجلال من الجميع.

و فى عام ۱۹۳۰ صدر قانون تنظيم الجامع الأزهر و المعاهد الدينية فى عهد شيخه الشيخ الأحمدى الظواهرى؛ و أنشئت الكليات الأزهرية الثلاث: الشريعة و اللغة و أصول الدين، على نظام جامعى راق، فاختير ثلاثة من كبار رجال الدين

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۸

لتولى مشيخة الكليات الثلاث، و هم الشيخ محمد مأمون الشناوى الذى تولى مشيخة كلية الشريعة، و الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ معهد الزقازيق الدينى حينذاك و قد تولى مشيخة كلية اللغة العربية، و الشيخ الجليل المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ القسم العام بالأزهر الشريف الذى تولى مشيخة كلية أصول الدين. و كان للشيخ مأمون طيب اللّه ثراه آثار جليلة فى التوجيه

العلمی و الدینی للأساتذة و الطلاب ...

و لما افتتحت کلیة الشریعة- یوم الأربعاء ۳ من ذی الحجة عام ۱۳۵۰ ۲۹ مارس ۱۹۳۳- ألقی الشیخ محمد مأمون الشناوی کلیة قیمة فی حفلة الافتتاح صور فیها سیر النهضة العلمیة و الدینیة فی الأزهر عامة و فی کلیة الشریعة خاصة.

-۴-

و فی عام ۱۹۳۴ منح الشیخ محمد مأمون الشناوی عضویة جماعة کبار العلماء.

ثم اختیر وکیلا للأزهر بعد ذلک بعشر سنوات- عام ۱۹۴۴- و فی عهد وکالته للأزهر فاض الخیر علی العلماء، و شملهم الأنصاف و سارت الأمور فی الأزهر فی مجراها الطبیعی .. و تولی منصب رئاسة لجنة الفتوی بالأزهر الشریف.

و فی عام ۱۹۴۵ توفی شیخ الأزهر الشریف الأستاذ الأکبر المغفور له الشیخ مصطفی المراغی طیب اللّه ثراه، و أرید اختیار خلف له، و کان من الطبیعی أن یعین فی منصب المشیخة وکیل الأزهر أو أحد کبار علماء الأزهر الشریف و فی مقدمتهم الأستاذ الأکبر الشیخ إبراهیم حمروش، و مفتی الدیار حینذاک الشیخ عبد المجید سلیم، و لکن الحکومة فی عهد النقراشی أصرت علی تعیین المغفور له الأستاذ الأکبر الشیخ مصطفی عبد الرازق فی منصب المشیخة الجلیلة.

و قدم الشیخ مأمون استقالته من وکالة الأزهر، کما قدم الأستاذ الأکبر الشیخ إبراهیم حمروش استقالته من کلیة الشریعة، و الشیخ عبد المجید سلیم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۲۹۹

استقالته من الإفتاء، و ذلک یوم الثلاثاء ۱۱ دیسمبر عام ۱۹۴۵.

و أصدر کبار الشیوخ و فی مقدمتهم الشیخ الشناوی بعد ذلک بیومین بیانا تاریخیا للأمة الإسلامیة عن الخلاف بین الأزهر الشریف و الحکومة فی شأن مشیخة الجامع الأزهر، إثر إقدام الحکومة علی تعدیل قانون الأزهر و تعیین المغفور له الأستاذ الأکبر الشیخ مصطفی عبد الرازق شیخا للأزهر، و قد رفع هذا البیان إلی المسئولین فی ۱۳ دیسمبر عام ۱۹۴۵.

-۵-

و فی مساء یوم الأحد ۷ ربیع الأول عام ۱۳۶۷ ه- ۱۸ ینایر عام ۱۹۴۸ عین الأستاذ الأکبر الشیخ محمد مأمون الشناوی شیخا للأزهر الشریف بعد شیخه الراحل المغفور له الأستاذ الشیخ مصطفی عبد الرازق.

و استقبل فضیلته من الأزهریین و من العالم الإسلامی استقبالا رائعا.

و للأستاذ الأکبر الشیخ الشناوی مآثر خالدة علی الأزهر فی عهد مشیخته ..

ففی عهده أنشیء معهد محمد علی الدینی بالمنصورة و معهد منوف، و أنشئت الوحدة الصحیة للأزهر، و ضم معهد المنیا و جرجا و سمنود إلی الأزهر. و زادت البعوث الإسلامیة إلی الأزهر، کما زادت بعثات الأزهر إلی البلاد العربیة و الإسلامیة.

و فی عهده ألغی البغاء الرسمی، و جعل الدین مادة أساسیة فی المدارس، و حوربت الفوضی الخلقیة و الاجتماعیة و الصور الخلیعة، و حددت الخمور فی المحلات العامة.

و فی عهده نقلت کلیة اللغة من الصلیبة إلی البرامونی، و نقلت کلیة الشریعة إلی المبانی الجدیدة للجامعة الأزهریة، و اشترک الأزهر فی المؤتمر الثقافی العربی، و تمت أمانی کلیة اللغة فی المساواة بینها و بین معاهد اللغة العربیة المختلفة،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۰

و ارتفعت میزانیة الأزهر، و قضی علی الفتن المختلفة فیه، إلی غیر ذلک من جلائل الأعمال.

-۶-

اشارة

و بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال توفى الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى عليه رحمة اللّه، ففى الساعة العاشرة من صباح اليوما لحادى و العشرين من ذى القعدة عام ۱۳۶۹ ه- ۴ سبتمبر عام ۱۹۵۰ فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

و ابنته الصحف فى العالم العربى و الغربى فى حسرة و لوعة و تقدير. و فى ذلك تقول جريدة المصرى عدد ۵ سبتمبر ۱۹۵۰ م: فجعت مصر بل العالم الإسلامى كله أمس بوفاة المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر؛ و قد خسر العالم الإسلامى بوفاته عالما ثبتا و حجة قوية و فقدت مصر فيه الورع و التقوى و البر و الخير و الإخلاص لدين اللّه، و فقد الأزهر فيه كبير علمائه و شيخا من أخلص شيوخه، ظل يعمل لخيره، و يواصل السعى لتحقيق رسالته بين ربوع العالم الإسلامى، و لم يقعد به المرض أو النصب يوما عن مواصلة سعيه و صرف اهتمامه إليه.

تولى رحمه اللّه مشيخة الأزهر فى ۱۸ يناير سنة ۱۹۴۸ و كان الأزهر فى ذلك الحين نهبا لعصبية ممقوتة كادت تقضى على ما يتمتع به من سمعة طيبة و ماله فى العالم من مكانة، فرأب الصدع و لم الشمل و قضى على الفتنة فى مهدها، و شعر الأزهريون جميعا بأنهم أبناء جامعة واحدة و أنهم تربطهم صلات أقوى من صلات الدم .. و على هذا النحو ساس فضيلته شئون الأزهر، و عمل على تقوية ما بينه و بين العالم الإسلامى من روابط فأوفد البعوث الإسلامية المختلفة إلى ربوع العالم الإسلامى تنشر مبادىء الإسلام و الثقافة الإسلامية و تقرب ما بين المسلمين و تعمل على إزالة الفرقة و الخلاف بينهم.

و زيادة فى تقوية الروابط بين البلاد الإسلامية أرسل فضيلته بعثة إلى انجلترا

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۱

لدراسة اللغة الانجليزية، لإرسال أعضائها إلى البلاد العربية الإسلامية التى لا تجيد التخاطب باللغة العربية.

و لم يكتف فضيلته بذلك بل عنى أيضا بربط الجامع الأزهر بجميع المعاهد الإسلامية فى بقاع الأرض، فاهتم بشئون التعليم فى الباكستان و الهند و الملايو و أندونسيا و أفريقيا الجنوبية.

و إلى جوار هذا و ذاك عمل على التمكين لأبناء المسلمين بطلب العلم فى الأزهر و فتح أبوابه للوافدين حتى بلغت البعوث الإسلامية فى عهده ما يزيد على ألفى طالب، خصصت لهم أماكن الدراسة و المسكن اللائق.

و أخذ يعمل على زيادة المعاهد الدينية فى عواصم المديريات، و قد افتتحت فى عهده أربعة معاهد نظامية كبيرة، هى معاهد المنصورة و المنيا و سمنود و منوف.

و هكذا مضى فى سياسته الإصلاحية و التوسع فى رسالة الأزهر، و قد نال الأزهر بفضل جهوده و تقواه خيرا كثيرا، فارتفعت ميزانيته إلى أكثر من مليون جنيه، و وضع مشروع كادر لتسوية أساتذة الكليات فى الأزهر بزملائهم الجامعيين.

و كان من رأيه رحمه اللّه جعل دراسة الدين مادة أساسية فى المدارس ليقى النشىء من الآراء الفاسدة، و ما زال ينافح عن هذا الرأى حتى تحققت أمنيته و تقررت دراسة الدين مادة أساسية فى المدارس.

و منذ شهور مرض مرضا ألزمه الفراش، و لكن ثقته باللّه و شدة إيمانه حفزاه على مقاومة العلة، و تمكن الأطباء فى النهاية من القضاء عليها.

و رأى أن يستجم فى الاسماعيلية عند نجله الأستاذ عبد العزيز الشناوى فسافر إليها و كان ينعم فيها بالصحة التامة، و زاره كثيرون من أصدقائه و من كبار رجال الأزهر هناك.

و لكن القدر المحتوم أبى إلا أن يوافيه فى الاسماعيلية فأصيب بنوبة قلبية

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۲

حادة تمکن الأطباء من مقاومتها، ثم أصیب فی عقبها بالتهاب رئوی کان أیسر و أهون ما لقیه فی مرضه، و لکن استعصی دواؤه علی الأطباء، و فاضت روحه الطاهرة إلی بارئها فلقی ربه راضیا مرضیا.

و قد شیعت جنازته یوم الثلاثاء ۵ سبتمبر ۱۹۵۰ بما یلیق بمکانته التی کانت له فی القلوب، و بأعماله الجلیلة فی خدمة الإسلام و المسلمین .. و صلی علیه فی الأزهر الشریف، و کبر المؤذنون فی شتی المساجد حینما صلی علیه، ثم ووری جسده الطاهر التراب.

-۷-

لقد کان- رحمه اللّه و طیب ثراه- کریم الخلق نبیل النفس رائعا فی وقاره و هیبته و سمته و صلاحه و ورعه و زهده، ذا شخصیة قویة بارزة.

و کان موضع المهابة من الجمیع یجلونه و یحترمونه و یرجعون أ إلیه یستفتونه، کان موثوقا بعلمه و رأیه، واسع الثقافة، کثیر الإطلاع.

اشترک فی کل الأعمال التی کانت تبذل لإصلاح الأزهر و تنظیمه فی الربع الثانی من القرن العشرین .. و تقول جریدة المصور من مقال عنه بعد وفاته:

کان رحمه اللّه یتذوق الشعر و ینظمه و یقدر الشعراء .. و قد ترک فی مکتبته الکبیرة فی بیته بالحلمیة الجدیدة، مجموعة من دواوین الشعر و کتب الأدب، غیر کتب الدین و التاریخ الإسلامی و البلاغة و الفلسفة و الأصول و الحدیث و الفقه و التوحید.

و خیر الشعراء عنده شاعران: المتنبی و شوقی .. و قد عثرت بین أوراقه علی بعض القصائد التی نظمها بنفسه أیام الشباب.

أمضی المرحوم الشیخ مأمون الشناوی حیاته فی الدرس و الاطلاع، و قد اعتاد منذ أیام الشباب أن یتلو بعض الأدعیة قبل کل صلاة و بعدها و فی الطریق بین

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۳

البیت و مقر العمل .. و کان یکتب بعضها و یضعها فی حافظته لتلازمه علی الدوام و تصونه من المکاره .. و ظل محافظا علی ذلک لا یتهاون فیه إلی أن دعاه اللّه إلیه.

و وجدت بین مخلفاته ورقة کتب فیها بخطه: «ید اللّه فوق أیدیهم» و ورقة أخری کتب فیها بخطه أیضا: «اللهم اهدنی من عندک، و أمنن علی من فضلک، و انشر علی من رحمتک، و انزل علی من برکاتک، اللهم استرنی بسترک الجمیل، اللهم ارزقنی سعادة الدارین و اکفنی همهما».

و کان بعد الصلاة یتلو دعاء طویلا هذه بدایته: «اللّه أکبر اللّه أکبر، بسم اللّه علی نفسی و دینی، بسم اللّه علی أهلی و مالی، بسم اللّه علی کل شیء أعطانیه ربی، بسم اللّه خیر الأسماء، بسم اللّه الذی لا یضر مع اسمه داء، بسم اللّه الذی لا یضر مع اسمه شیء فی الأرض و لا فی السماء، و هو السمیع العلیم» ...

و قد ساهم رحمه اللّه فی الحرکة الوطنیة عند قیامها فی سنة ۱۹۱۹، فکان یلقی الخطب الحماسیة فی المساجد و الکنائس و یکتب المقالات فی الصحف، بل نظم المظاهرات، و مشی فی طلیعتها، مع أنه کان وقتئذ قاضیا بمحکمة الاسکندریة الشرعیة!.

لکنه کان ینفر من الحزبیة، و یری أن رجل الدین لا ینبغی له أن یجمع بین الدین و السیاسة ..

حینما کان إماما فی السرای طلب إلیه أحد رجال القصر أن ینضم إلی حزب الاتحاد فأبی، ثم ألح علیه فازداد إباء و قال له: «إننی أستطیع بسهولة أن أخرج من الباب الذی دخلت منه».

و فی الیوم التالی دعاه رئیس الدیوان لمقابلته، و کان المرحوم توفیق نسیم، و أبلغه أن الملک فؤاد أحیط علما بما حدث، و أنه سر من موقفه، و لکنه یأخذ علیه قوله إنه یستطیع الخروج بسهولة من الباب الذی دخل منه .. لأن الدخول من هذا الباب لا یستأثر به فریق من

المصریین دون فریق.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۴

و لم یرث فضیلة الشیخ محمد مأمون الشناوی شیئا عن أبیه. و ظل لا یملک إلا مرتبه، حتی رأی فی سنة ۱۹۳۰ أن یستبدل بجزء من معاشه قطعة أرض زراعیة هی کل ما کان یملک من حطام الدنیا ..

و کان رحمه اللّه قوی الإیمان، کثیر تحری العدالة، یحب الهدوء و النظام، و یشتد فی الحق، و یسوس من مرؤسیه باللین و العطف، و یقسو أحیانا للتأدیب .. و کانت داره فی الحلمیة الجدیدة محط أهل الفضل و العلم و الأدب ..

و قالت مجلة الأزهر فی تأبینه: «انتقل إلی الدار الآخرة فی الیوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ۱۹۵۰ العالم الشیخ محمد مأمون الشناوی شیخ الجامع الأزهر متأثرا بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر، فکان لنعیه أسف عمیق لدی کل من عرفه و غشی مجلسه، لما کان علیه، رحمه اللّه، من محاسن الشیم، و التواضع، و حسن الإصغاء لذوی الحاجات.

و قد تلقی رحمه اللّه العلم فی الأزهر، و نال درجة العالمیة فی سنة ۱۹۰۶، و عین مدرسا فی معهد الاسکندریة، ثم تولی القضاء بالمحاکم الشرعیة، و تقلب فی وظائفها و اشتهر فیها بإیثار العدل و الإنصاف. و فی سنة ۱۹۱۶ اختیر لیکون إماما فی السرای فظل فی هذا المنصب نحو خمس سنین، و فی سنة ۱۹۳۱، حین وضع للتدریس بالأزهر نظام جدید، و قسمت الدراسة العالیة فیه إلی ثلاثة فروع، و أنشئت لها کلیات ثلاث: واحدة للشریعة و أخری لأصول الدین، و ثالثة للغة، اختیر الشیخ رحمه اللّه شیخا لکلیة الشریعة، فمکث یشغل منصبه فیها بکفایة محمودة، و عمل قرابة ثلاث عشرة سنة. و فی سنة ۱۹۴۴ أسندت إلیه وکالة الجامع الأزهر، و کان المرحوم الشیخ مصطفی المراغی شیخا له، فلبث فی هذا المنصب حتی توفی الأستاذ المذکور، و ترددت الحکومة فی تخیر رجل کفء لشغل منصب المشیخة، فوقع الاختیار علی المرحوم الأستاذ مصطفی عبد الرازق، فرأی أن قانون الأزهر یشترط فیمن یتولی هذه الوظیفة أن یکون من هیئة کبار العلماء.

و لم یکن الأستاذ المذکور منها، فاستحسن أن ینقح هذا القانون حتی یتسع لتعیین

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۵

من یصلح ممن لا تنطبق علیه شروطه من أجلاء العلماء، ما دامت تتوافر فیه المؤهلات العلمیة و الأدبیة. فلما عرض هذا الحل علی المرحوم الشیخ محمد مأمون الشناوی أبی و رأی أن یستقیل من منصبه، و أن یتولی هذا الأمر غیره. فقبلت استقالته و مضت الحکومة فی إصلاح ذلک القانون، و عین المرحوم الشیخ مصطفی عبد الرازق شیخا للأزهر: فلما کانت سنة ۱۹۴۸ و توفی الأستاذ المذکور، أسندت الحکومة مشیخة الأزهر إلی الشیخ محمد مأمون الشناوی فی الشهر الأول من تلک السنة فلبث فیها إلی أن وافاه أجله فی الحین الذی ذکرناه آنفا. و مما یجب تسجیله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذی شمل جمیع طلبة الکلیات و المعاهد الأزهریة، و ما قام به للأزهریین من مساواة خریجیهم بخریجی الجامعة المصریة فی المرتبات، و من عمله علی تحقیق أمانیهم.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۶

الأستاذ الأکبر الشیخ عبد المجید سلیم

کان الأستاذ الأکبر عبد المجید سلیم من العلماء القلائل الذین قل أن شهد لهم الأزهر مثیلا: فی سعة الأفق، و جلال الخلق، و عظمة النفس، و قوة النزوع إلی المثل العلیا، فهو بحق خلف عظیم لأسلاف کرام.

تتلمذ علی الإمام محمد عبده، فتخرج عالما قدیرا، و شیخا جلیلا، و ما لبث أن جعلته مواهبه و کفایته و شخصیته علما بین زملائه العلماء.

و شاهد الأحداث الکبری فی تاریخ الوطن الدینی و الفکری و الاجتماعی و السیاسی، و اشترک فیها موجها و هادیا و شغل الکثیر من

المناصب الدينية الجليلة فی الأزهر و القضاء الشرعی و الإفتاء، و كان لآرائه الدينية صداها البعيد فی العالم الإسلامی كافة، ثم عهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا فی الأزهر الجامعی، ثم صارت إليه رياسة لجنة الفتوى، فكان له فی كل ناحية أعمال خالدة مأثورة .. و إصلاح الأزهر الجامعی فی شتى أطواره المختلفة فی العصر الحديث مدين لفضيلته بالرأى و التوجيه.

و قد ولد الشيخ عبد المجيد سليم فی ۱۳ أكتوبر ۱۸۸۲، و تخرج من الأزهر عام ۱۹۰۸، حاملا العالمية من الدرجة الأولى .. و شغل وظائف التدريس و القضاء و الإفتاء و مشيخة الجامع الأزهر. و مكث فی الإفتاء قرابة عشرين عاما. و له من الفتاوى ما يربو على خمسة آلاف.

و لقد تولى مشيخة الأزهر مرتين، أقيل فی أولهما لأنه نقد الملك.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۷

و قد ركز نشاطه فی السنوات الأخيرة فی الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، و قد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تتفاهم الطوائف الإسلامية على ما ينفع المسلمين، و أن تعمل على نسيان الخلاف و استلال الضغائن من بينهم، و له فی هذه الناحية كتابات و رسائل و مراسلات بينه و بين كثير من علماء البلاد الإسلامية، فلم يقتصر فضله على العلم فی مصر، و لكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الإسلام، و إلى كل الطوائف.

و لفضيلته عدة رسائل مخطوطة، و قد أثر عنه الشجاعة فی قول الحق و الجهر به أمام الحكام دون خوف أو حذر، و قد استقال من الإفتاء عام ۱۹۴۶ حين وجد حكومة ذلك العهد تريد التدخل فی شؤون الأزهر، و قال لرئيس ديوان الملك حين حذره من الخطر الذى سيلحقه: «إننى ما دمت أتردد بين بيتى و المسجد فلا خطر على». عين فضيلته فی مشيخة الأزهر للمرة الأولى يوم ۲۶ ذى الحجة عام ۱۳۶۹ ه- الثامن من شهر أكتوبر عام ۱۹۵۰ و أعفى من المنصب فی ۴ سبتمبر ۱۹۵۱ ثم تولى المشيخة لثانى مرة فی ۱۰ فبراير ۱۹۵۲ و استقال من المنصب فی ۱۷ سبتمبر ۱۹۵۲، و توفى عليه رحمة اللّه فی صباح يوم الخميس ۱۰ من صفر ۱۳۷۴ ه- ۷ من أكتوبر ۱۹۵۴، تاركا ذكريات إسلامية لا تنسى.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۸

الأستاذ الأكبر الشيخ ابراهيم حمروش

ملء القلوب و الأسماع، و حديث الخاصة و العامة، و شخصية تكاد من جلالتها و تواضعها تعد مع الخالدين الأوائل من كبار أئمة الإسلام .. حجة فی علوم الدين و اللغة و الأدب، و إمام فی المعقول و المنقول، و شيخ كثير من علماء الأزهر المعاصرين، تتلمذوا عليه، و نهلوا من معين علمه الفياض، و استمعوا لأحاديثه و آرائه فی اللغة و البلاغة و الأدب، و فی علوم الشريعة و أحكامها، و فی دقائق الاجتماع و التاريخ، فكان لهم من ذلك علم غزير، و مدد فياض .. و مجلسه العامر يفيض بالجديد الطريف من معارفنا الحاضرة، و بالتليد القديم من علوم الأوائل و معارفها، و إلى جانب ذلك النكتة الرائقة و الفكاهة الشائقة، و الآداب الرفيعة، فی سمت الصالحين الورعين، و الزاهدين العابدين، مع التقوى و التواضع، و عفة اللسان، و طهارة القلب، و يقظة الضمير. و هو صوفی ورع، محب لآل البيت، كثير الإجلال لذكرهم، مع التوكل على اللّه و التباعد عن السياسة. و هو من أرومة عربية طيبة، من عرب إقليم البحيرة، حفظ القرآن، و جاور فی الأزهر، و تتلمذ على الإمام محمد عبده، و نال العالمية من الدرجة الأولى، و شغل منصب التدريس فی الأزهر، ثم فی مدرسة القضاء الشرعی، ثم تدرج فی مناصب القضاء، ثم اختير شيخا لمعهد أسيوط، فشيخا لمعهد الزقازيق، فعميدا لكلية اللغة العربية، فشيخا لكلية الشريعة .. ثم أسندت إليه رياسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، ثم منصب المشيخة العظمى،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۰۹

و الامامة الكبرى للإسلام و المسلمين. إلى جانب عضويته فی مجمع اللغة العربية منذ نشأته حتى اليوم، و لقد عاش طول حياته يحلم

بإصلاح الأزهر و يعمل مع العاملين لهذا الهدف، و يشترك فی جميع اللجان التی ألفت لذلك.

و لقد تخرج الشيخ إبراهيم حمروش من الأزهر، عام ۱۹۰۶، و عين مدرسا فی الأزهر، ثم اختير للتدريس فی مدرسة القضاء الشرعی ۱۹۰۹، و مكث مدرسا بها حتی سنة ۱۹۱۶، ثم عين قاضيا فی المحاكم الشرعية، و ظل يرقی فی مناصبها، إلی أن اختير عام ۱۹۲۸ شيخا لمعهد أسيوط، و نقل بعد شهور شيخا لمعهد الزقازيق، و لما أنشئت الكليات الأزهرية اختير عام ۱۹۳۲ شيخا لكلية اللغة العربية، و فی عام ۱۹۴۴ اختير شيخا لكلية الشريعة، ثم استقال من منصبه عام ۱۹۴۶ احتجاجا علی السرای لتدخلها فی شؤون الأزهر، و عين عام ۱۹۵۰ رئيسا للجنة الفتوی .. و هو عضو فی المجمع اللغوی بالقاهرة منذ إنشائه عام ۱۹۳۲.

و للأستاذ الأكبر مكانته الكبيرة فی قلوب الأزهريين، فهو حيثما حل و حيثما كان موضع التجلة و الاحترام و التقدير، من كل أزهری و كل مسلم .. و مكانته العظيمة فی العالم الإسلامی فی غنی عن البيان.

و إن معاهد الأزهر و كلياته لتفخر بجهوده فی تنظيمها و فی توجيهها لأداء رسالتها، و لقد نال مكانته المرموقة بما فطر عليه من نبل خلق و عظمة شخصية و سعة علم و صلاح و إيمان ...

كان فی الوظائف الكبری التی تقلدها مثالا عاليا للرئيس اليقظ العادل و الإمام الراعی الساهر، و الشيخ الحكيم المدبر، و العالم الحانی علی طلاب العلم و شيوخه. و قد تولی الشيخ حمروش مشيخة الأزهر للمرة الأولی فی ۴ سبتمبر عام ۱۹۵۱ و كانت له مواقف خالدة فی الحركة الوطنية المصرية الأخيرة، و أعفی من منصبه فی ۱۰ فبراير عام ۱۹۵۲ لاشتراكه فی الحركة الوطنية التی قام بها الشعب و قيادته للمظاهرة الشعبية

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۰

التی خرجت تهتف بحرية مصر، و مقالاته عن وجوب محاربة الاستعمار، و أذكر أنه لما تولی المشيخة للمرة الأولی استقبل فی الأزهر استقبالا حافلا، و هنأته بهذه الأبيات:

عاد الدين مجده و سلامهو حمی الدين هذه أيامه

و دع الأزهر الغداة لياليه، و نادته بالمنی أحلامه

تلك آماله الكبار، و هذاشيخه الأكبر الحكيم إمامه

يشهد اللّه أنه كاهل الدين،و للأزهر العريق سنامه

إن (إبراهيم) الملاذ لبيت اللّهتسعی بسعيه أعلامه

أمة واحدة، و فی اللّه مسعاه،و للحق عزمه و مقامه

أمل المسلمين، و النور يهدیليس إلا للمكرمات اعتزامه

يا إمام الإسلام بايعك الأزهرشيخا له، و أنت سلامه

تلك آماله إليك، و هذافی يديك الكريمتين زمامه

و علی منكبيك برد جلالصيغ من نسج الصالحات و سامه

سر علی يمن اللّه تحرس بيت العلمفی يمنی راحتيك و سامه

جمعت حولك القلوب و هذا البيت جذلان من هداك ابتاسمه

و الشيخ حمروش، هو البقية الباقية من علماء الأزهر الأعلام، و من الجيل القديم، الذين يعتز بهم الأزهر الحديث، و الذين ليس لهم نظير فی العلم و الغيرة علی شؤون الإسلام و العروبة، أمد اللّه فی حياته .. و ما من أزهری اليوم إلا و هو من تلامذته، أو من تلامذة تلامذته ..

و من كلماته هذه الكلمة التی ألقاها فی الأزهر فی ذكری الهجرة و هی: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و

السلام على أشرف المرسلين: شاعت فى الأمم السابقة خرافات و عقائد باطلة لم تكن وليدة بحث و دروس و نظر و استدلال، و إنما هى أقوال ملفقة مما يأخذها الخلف عن السلف، و يقلد فيها الأبناء آباءهم، من غير فهم و لا روية، و هى موضع تقديرهم، و محل اعتبارهم، و أشد الناس تمسكا بها

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۱

و محافظة عليها المترفون، لأنهم يعتقدون أن فى الدين زوالا لهيبتهم و ذهابا لعظمتهم، قال تعالى: وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، و قد أرسل اللّه تعالى محمدا صلى اللّه عليه و سلّم إلى الناس كافة بدينه الذى ارتضاه لخلقه، و اختاره لعباده، من يوم مبعثه إلى أن يرث اللّه الأرض و من عليها، فكان موقف أمته منه موقف الأمم السابقة من رسلها، و لم تستحدث الأيام خلقا، و لا حالت من الزمن العهود.

بدأ محمد صلى اللّه عليه و سلّم، بدعوة العرب، و كانوا وقتئذ أقل الناس حظا و أشقاهم عيشا، و أبينهم ضلالة، بأسهم بينهم شديد، يقتتلون لأقل الأمور و أحقر الأسباب، و كانوا متفرقين لا تجمعهم وحدة، و لا يشملهم نظام، و كان يجاور العرب دولتان عظيمتان: دولة الفرس، و دولة الروم الشرقية، استولت كل واحدة منهما على ما جاورها من بلاد العرب، و جعلت عليه حاكما من العرب، يعمل لها و ينفذ إرادتها، و يرعى مصالحها، و بهذا الوضع كان العرب محصورين فى جزيرتهم، قانعين بما فيها من مفاوز و صحراوات.

دعاهم صلى اللّه عليه و سلّم إلى خير الأمور، و أفضل الأعمال: دعاهم إلى عبادة اللّه وحده، و ترك عبادة الأصنام، لأنها لا تضر و لا تنفع، و لا- تعطى و لا- تمنع، و لا- تدفع عن نفسها أذاة، و لا- تميط قذاة، و لا- تخلق حصاة، و مع ظهور الحجة و وضوح البرهان، و تنبيههم للحق فى كثير من الآيات، قال تعالى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ إلى غير ذلك من الأمثال التى صرفها اللّه تعالى فى كتابه، و مع كل ذلك لم يؤمنوا به، بل كذبوه أشد تكذيب و بالغوا فى الإنكار، و قالوا: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ.

و من جهلهم زعموا أن دعوة النبى صلى اللّه عليه و سلّم الناس إلى عبادة اللّه، و ترك عبادة الأصنام، لم تكن إلا لأنه صلوات اللّه عليه يكره الأصنام، و يريد الانتقام منها، لأن بعضها اعتراه بسوء، و ألحق به ضررا، فقالوا: إِنْ نَقُولُ إِلَّا

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۲

اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ، فكان ذلك صراعا بين الحق و الباطل، و بين الحجة و البرهان، و الجهل و الطغيان، و لم يقفوا عند التكذيب و الإنكار، بل تجاوزا ذلك إلى إيذائه و إيذاء من شرح اللّه صدورهم للإسلام، فقبلوا دعوته؛ و آمنوا برسالته. و فازوا بشرف السبق، و كلما بالغوا فى الإيذاء، بالغ صلى اللّه عليه و سلّم فى الصبر، و اجتهد فى الدعوة، و كان صلى اللّه عليه و سلّم شديد الحرص، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان و الأنصار، ليتمكن بذلك من أداء مهمته، و تبليغ رسالته، فكان عليه السلام يتلقى من أقبلوا إلى مكة فى موسم الحج، فيدعوهم إلى الإسلام، و يقرأ عليهم القرآن، فما أجابه أحد، و منهم من رد عليه ردا قبيحا، و قد اجتهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم فى مقابلة الوفود، و لم يصرفه إيذاء قريش عن دعوته، و لا الرد القبيح عن السعى فى إدراك طلبته، فكان يقابل الوفود فى كل موسم، ففى موسم التقى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم بجماعة من الخزرج، و لما عرض عليهم الإسلام قبلوه، فكان ذلك الاجتماع مقدمة النجح و وسيلة الفوز، فإنهم لما عادوا إلى أهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم، و الدين الذى يدعو إليه، فأسلم منهم كثيرون، و فى موسم آخر حضر جمع من مسلمى المدينة و التقى بهم رسول اللّه و بايعوه، إن هاجر إليهم، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم و أبناءهم، و بعد ذلك أمر صلوات اللّه عليه، أصحابه بالهجرة إلى المدينة و اللحوق بإخوانهم، و قال لهم: «إن اللّه قد جعل لكم إخوانا و دارا تأمنون بها» فخرجوا أرسالا- رجالا- و نساء، إلا- من حيل بينهم و بين الهجرة من المستضعفين، و لما رأت قريش أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم قد صارت له شيعة و أصحاب من غير بلدهم، و خرج أصحابه من

المهاجرين إليهم، و عرفوا أنه قد أجمع لحربهم، ائتمروا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه. و لما علم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم ما أجمعت عليه قريش و عرف الليلة التى يريدون الفتك به فى صبحها، توجه صلوات اللّه عليه إلى أبى بكر، و أخبره أن اللّه أذن له بالهجرة، فسأله الصحبة، فأجابه إليها، و اتعد على الهجرة فى تلك الليلة، و قد أمر النبى صلوات اللّه عليه على بن ابى طالب أن ينام مكانه فى تلك الليلة و يتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده، و أصبحت فتيان قريش ينتظرون

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۳

خروجه صلى اللّه عليه و سلّم للفتك به، فإذا بعلى يخرج إليهم، فعلموا أنهم باتوا يحرسون عليا. و لما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتهم و أخذوا يقتصون الأثر، و جعلوا لمن يأتى به حيا مائة من الابل، و هاجر صلى اللّه عليه و سلّم بإذن اللّه و فى رعايته و حفظه إلى أن بلغ المدينة، و لما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته و يبلغ رسالته إلى أن بلغ كل ما امر بتبليغه، و بذلك تمت الشريعة، و كمل النظام الذى وضعه العليم الحكيم.

و الشريعة التى بلغها سمو بالعقول عن التقليد، و اتباع القول بلا دليل، و أمر بالنظر فيما بث اللّه فى الآفاق من آيات. و نصب فى الكون من دلائل تدفعها إلى الاذعان بوجود اللّه، و بما له من صفات الكمال: من القدرة التامة و العلم المحيط و التفرد بالسلطان فيما عداه، يمضى فيه حكمه و ينفذ قضاؤه، و عبادة و خضوع و تقرب و خشوع. شكرا لمن خلقهم، و أسبغ عليهم النعم الظاهرة و الباطنة، و تهذيب نفوس، و تطهير قلوب، و بعد عن الآثام و الذنوب، و تنزه عن الصغائر، و صدق فى القول، و إخلاص فى العمل، و أمر بالمعروف، و نهى عن المنكر، و شجاعة و نجدة، و إعداد عدة لارهاب الأعداء، و مساواة فكلهم عند اللّه سواء، لا فرق بين عظيم و حقير و غنى و فقير، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى اللّه و التقرب منه، و مساعدة الضعفاء و المحتاجين، و تعاون و تناصر، و تواد و تراحم و تعاطف و طاعة اللّه و رسوله و أولى الأمر من المسلمين. إلى غير ذلك مما أمرت به الشريعة. و حثت عليه. و رغبت فيه. و قد اعد اللّه تعالى للذين يعملون الصالحات سعادة الدنيا و الآخرة، قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ. وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً و قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. و قد عملت الأمة بتلك الشريعة، فآتت اعمالها الصالحة أكلها، و أثمرت ثمرتها فى بناء الأمة على أسس متينة، و أخلاق عظيمة، و ربطت بينها برباط التعاون و المساواة و الألفة و المحبة، و الدين و الخلق، فاتحدت بعد تفرق،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۴

و قويت بعد ضعف، و سعدت بعد شقاء، و عزت بعد ذل. فعظم قدرها و علا شأنها، و أحكم أمرها، فغيرت وجه التاريخ، و فكت الحصر الذى ضربته دولة الفرس و دولة الروم. و فتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها و يعملون على مضايقتها. و لا زالت الدولة الإسلامية تنتقل من فتح إلى فتح و من نصر إلى نصر، و عاشت قوية عزيزة، تقدرها الأمم، و يرهبها الأعداء و لما انحرفت عن العمل بالدين، و اتباع هدى سيد المرسلين، اعتراها الضعف و الوهن، فلانت قناتها. و ذهبت هيبتها.

و قد توفى رحمه اللّه عصر يوم الاثنين ۲۵ جمادى الأولى ۱۳۸۰ ه ۱۴ نوفمبر ۱۹۶۰ و شيعت جنازته فى اليوم التالى إلى مقبرة سيدى جلال فى ۱۵ نوفمبر ۱۹۶۰.

و كتب عباس محمود العقاد فى يومياته فى الأخبار (عدد ۲۳/ ۱۱/ ۱۹۶۰) يقول:

كان صاحب الفضيلة الشيخ إبراهيم حمروش بقية صالحة من بقايا المدرسة الإمامية التى استفادت من قدوة أستاذها الشيخ محمد عبده فى العناية بعلوم اللغة و الأدب و الحكمة إلى جانب العناية بعلوم الفقه و الشريعة.

كان الأستاذ الإمام يعنى بالأدب و اللغة فيدرس نهج البلاغة و مقامات البديع و يعنى بالفلسفة الإسلامية فيكتب رسالة التوحيد و يعلق على «العقائد العضدية» و يهدى طلا به إلى أسرار حكمة الغزالى فى مطولاته و مختصراته، و يعنى بالفقه و الشريعة فيلقى دروسه فى

تفسیر القرآن الکریم و یکتب تقریراته الوافیة فی إصلاح المحاکم الشرعیة.

و بهذه القدوة العالیة کان تلامیذه الأوائل یقتدون و یهتدون و منهم فقید اللغة و الفقه الأستاذ حمروش شیخ الأزهر الأسبق و عضو مجمع اللغة العربیة، الذی فقده العالم العربی و العالم الاسلامی، منذ أیام.

کان عجبا فی سرعة الشاهد من الشعر و النثر علی خاطره و علی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۵

لسانه، و کان من شواهده فی جلسة قریبة من جلسات لجنة الأصول بالمجمع أن بعض الزملاء تذاکروا شروط السن فسمعنا الشیخ- کعادته- عند حضور الشاهد یهمس ببیت التمیمی الذی یقول فیه:

و إن امرأ قد سار خمسین حجةإلی منهل من ورده لقریب

و هو بیت یکثر فیه تبدیل العدد علی حسب المناسبة، فصاحب البیت یقول «خمسین حجة»، و بدیع الزمان فی مقامته الأهوازیة یقول «عشرین حجة» و ... و الشیخ حمروش یرویها أولا «ستین حجة» ثم یذکر أنه جاوزها فیصلح وزن الشطر علی الثامنین، و یعود قائلا:

و ان امرأ یسعی ثمانین حجةإلی منهل من ورده لقریب

و هکذا کنا نسمع منه الشواهد الحاضرة حین یستشهد بها فی موضعها من الدلالة علی الأحکام اللغویة، ثم یتصرف فیها- متبسطا- علی حسب الحالة الحاضرة کما یقول:

و لم یکن من المتشددین فی استناده إلی أقوال الشعراء و الرواة، فانه کان علی خلاف علماء اللغة الذین یقفون بالحجة عند اقوال المخضرمین- یتوسع فیستشهد أحیانا بأقوال العباسیین من أمثال بشار و أبی نواس، بل یستشهد أحیانا بأقوال المولدین المتأخرین إذا درجت فی مدارج الاستعمال الشائع، و یظرف غایة الظرف حین تسمعه فی وقاره و سمته یروی بیتا لأبی نواس أو لبشار لا یتحرج فیه هذا و لا ذاک، و لا یبالی الشیخ لغوهما إذا کان فیه حجة «اللغویین» ... و قد ینطقها أحیانا بفتح اللام من «اللغو» لا من «اللغة» تفکها منه علی حسب المقام.

و کثرا ما کان یعزز حجة «النحوی» بحجة الفقیه «المنطیق».

و کثیرا ما کان یسأل عن مقابل الکلمة باللغات الأجنبیة لیضعها فی موضعها من المعنی و الترکیب، و لا نذکر أنه حصر رأیه قط فی أفق ضیق

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۶

من التقلید أو التقیید، و لکنه کان مثلا للعالم السلفی الذی یرعی حق القدیم و لا ینسی فی غیرته علیه حق الجدید.

و کتب الشیخ محمد علی النجار عنه یقول :

تعلقت بأسبابه ، و وصلت حبلی بحبله فی سنة ۱۹۳۷ حین عملت فی التدریس فی کلیة اللغة العربیة و کان عمیدها، فأولانی من عطفه، و أخذ بضبعی، و کان لی منه الخیر الکثیر.

صحبته إذن، و قد استوی علی صهوة المجد و الشرف الباذخ. فهو من رجالات الأزهر و أولی الأمر فیه، و هو عضو فی مجمع اللغة العربیة، و هو حجة فی علوم الدین و اللغة.

کان جامعا بین الحزم فی سیاسة الکلیة و تدبیر الأمور فی الأزهر، و الاضطلاع بالمطالب العلمیة التی یتطلبها المجمع و الأزهر.

کان ساهرا علی رعایة الکلیة، خبیرا بما فیها، لا یشذ عنه شیء من أحوالها. حریصا علی أن تتبوأ المرکز اللائق بها، فکان یختار لها المدرسین الکفاة من الأزهر و غیره، و کان ینظم امتحان مسابقة لدخول الطلاب فیها، و لم یکن ذلک مسنونا فی قانون الأزهر، و لکنه الحرص علی أن یکوّن طبقة ممتازة من الطلاب.

و لقد کان یطوف بحجر الدراسة فی الیوم غیر مرة، و یسأل الطلبة فی دروسهم، و یقف علی درجة تقدمهم و تخلفهم، و یطب لکل

مقام بما يقتضيه.

و لقد مرت فتن سياسية و أعاصير هوج كان الطلبة يسلكون فيها فى بعض الحين مسلك الشطط و النزق، فكان يعالج الأمر بالحزم و الكياسة،

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۷

يخلط الشدة باللين، و المخاشنة بالمحاسنة، فيعود الطلبة طوع يديه، يأتمرون بأمره و يقفون حيث أحب

و لقد بلغت كلية اللغة العربية أوج مجدها، و كانت غرس يديه.

و ترك كلية اللغة إلى كلية الشريعة فى ۲۴ من أكتوبر سنة ۱۹۴۴ م فأصلح من شأنها، و قوم من أودها، و ثقف من قناتها، و كان له فيها أثر محمود حتى استقال من رياستها فى ۲۳ من ديسمبر سنة ۱۹۴۵ م على أثر أمور فى الأزهر لم ترضه. و لكنه بقى عضوا فى جماعة كبار العلماء.

و أسند إليه منصب مشيخة الأزهر فى ۳۰ من ذى القعدة سنة ۱۳۷۰ ه (۲ من سبتمبر سنة ۱۹۵۱ م) و بقى متقلدا هذا المنصب الجليل حتى يوم ۹ من فبراير سنة ۱۹۵۲ م.

و كان الوطن فى أيام توليه مشيخة الأزهر فى محنة مع الإنكليز فى قناة السويس و فى حاجة إلى جمع الصفوف و توحيد الكلمة، فكان للشيخ السهم الموفور فى هذه الدعوة الشريفة.

فنراه ينشر على الناس فى يوم ۱۵/ ۱/ ۱۹۵۲ كتابا يقول فيه:

«أيها المصريون، أتوجه إليكم فى هذه الظروف التى غشيتكم فتنتها، و حزبتكم شدتها، أن تكونوا إخوانا فى الوطن متآخين متحابين، رائدكم الإخلاص لبلادكم و أنفسكم «و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم».

«و إن شر ما تبتلى به الأمم فى محنتها أن تتفرق كلمتها، و أن تنحل وحدتها، و تنقطع أواصر المودة بين جماعاتها، فيشق العدو الطريق إليها، و ينفذ بسهامه إلى صدور أبنائها».

«و هذه مصر، بلادكم العزيزة و وطنكم المحبوب تناديكم جميعا، شيبا و شبانا، رجالا و نساء، أقباطا و مسلمين، أن تكونوا سهاما مسددة نحو عدوها، و أن تلقوا الغاصب صفا واحدا كأنكم بنيان مرصوص، بقلوب لا تعرف إلا الوطن و الدفاع عن حوزته».

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۸

«و أذكركم- حتى لا يغيب عن أذهانكم- تاريخ هذا الغاصب الرابض فى دياركم، و ما اعتاده من سياسة التفريق طلبا للسيادة و رغبة فى السلطان و بسطا للنفوذ، لمصلحته هو لا لمصلحة أحد سواه. و أذكركم جميعا مسلمين و أقباطا بماضيكم المجيد. فقد قمتم كتلة واحدة تطالبون باستقلال البلاد و استكمال حريتها، و تبوئها مكانة سامية بين الأمم. و أشهدتم العالم كله على وحدتكم و ائتلافكم».

«و إنى أعيذكم باللّه من التفرق و اختلاف الكلمة، فتضيع جهودكم الكبيرة التى بذلتموها فى سبيل عزتكم و عزة بلادكم».

«و اعلموا أن النصر المؤزر لقضيتنا رهن باتحاد صفوفنا و اجتماع كلمتنا، و وقوفنا جميعا فى وجه عدونا، حتى تظفر بلادنا بما تصبو إليه من السيادة و الحرية و الاستقلال، و يتمتع أهلها جميعا بالأخوة الصادقة و الاطمئنان على أموالهم و أنفسهم».

و حين اشتد حنق الإنكليز فى القناة و الإسماعيلية فأنزلوا عذابهم على القرى الآمنة أصدر الشيخ منشورا جاء فيه:

«إن شعب وادى النيل الباسل فى كفاحة السلمى لإخراج المغتصبين المحتلين من بلاده لم يجاوز حقه الشرعى فى الدفاع عن عقيدته و المطالبة بحريته، و لكن هذا الدفاع لم يرق فى أعين المحتلين من الإنجليز، فعملوا بكل الوسائل العدوانية على توهين وحدته، و اندسوا فى صفوفه، يشيعون الأراجيف لتفريق كلمته. فلما واجههم الشعب وحدة متراصة، و قام فى وجههم على قلب رجل واحد يطالب بحقه فى الحياة الحرة طاشت أحلامهم و لجئوا إلى القوة الغاشمة يسلطونها على الآمنين فى ديارهم، و على النساء فى خدورها، و على الأطفال فى مهادها».

«و کلما زاد الشعب تمسکا بحقه و صبرا علی هذا العنت زاد عسفهم، و تعددت مظالمهم، حتی خرجوا علی کل شرعة، و بزوا کل ما عرف من أعمال التنکیل التی اشتهرت بها محاکم التفتیش، و ما قام به النازیون من

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۱۹

أعمال وحشیة، فأزالوا القری الآمنة من الوجود بدباباتهم، و هدموا البیوت بمدافعهم الثقیلة، و شردوا النساء و الأطفال الأبریاء، و انتهکوا کل الحرمات، و اعتدوا علی المساجد و الکنائس، و لم یبق جرم إلا ارتکبوه، و لا شناعة إلا فعلوها. و لم تقف شناعتهم عند حد، فراحوا یطلقون النار علی حفظة الأمن و رجال الشرطة، و یقتلونهم تقتیلا فی رائعة النهار، و یأسرون من نجا منهم ...».

«و إنی باسم الأزهر علمائه و طلابه لأعلن استنکاری لهذا الإجرام الفظیع الذی انتهکت فیه الأعراض، و استبیحت الأموال و اعتدی علی حریة الإنسان و حقه المشروع فی أن یطالب بحریته و استقلاله، و احتج بشدة علی هذه الأعمال العدوانیة التی تنافی جمیع الشرائع و الأدیان. و أهیب بالضمیر العالمی أن یثور علی هذا الوضع المهین لکرامة الإنسان، و أن یهب لوقف هؤلاء المستبدین عند حدهم، لیعلموا أن فی العالم ضمائر تتحرک لنصرة الحق، و نفوسا تثور للأخذ بید العزل المکافحین لنیل حریاتهم ..».

«و لیعلم الإنجلیز أن هذه الفظائع التی یصبونها علی رؤوس أبنائنا لن تلین للشعب قناة، و لن ترده عن المطالبة بجلائهم الناجز عن وطننا العزیز، و أن وادی النیل کله لن یسکت بعد الیوم علی ضیم یراد به، و لن یفرط فی حق من حقوقه، مهما ابتلی بالشدائد و مهما ضحی من أرواح غالیة ...».

«و إنی إذ أستمطر رحمة اللّه و رضوانه علی شهدائنا الأبرار أتوجه إلی أبناء الوطن جمیعا مناشدا إیاهم أن یشدوا من عزائمهم، و ألا یجعلوا لهذه الأحداث أثرا فی نفوسهم، فلا یهنوا و لا یحزنوا و لا یضعفوا، و هم الأعلون إن شاء اللّه. فلا بد للجهاد من تضحیة و للحریة من ثمن یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ».

و إن النیل من الإنجلیز و جبههم بالغلیظ من القول فی ذلک العهد لم یکن بالسهل الهین، و لا یقاس به عهدنا الحاضر الذی نعمنا فیه بجلائهم و ذهاب سلطانهم عنا. فقد کان الانکلیز لا یزال لهم من السلطان علی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۰

صاحب القصر و رجاله الشیء الکثیر، و کان القدح فیهم لا یطور به من ذوی المناصب إلا من لا یتمسک بمنصبه، و یؤثر الحق علی زینة السلطان و جلاله الکاذب، و أکبر الظن أن إقالته من المشیخة ترجع إلی هذا المنزع السیاسی الذی ضاق به الإنکلیز.

و إنی أقص هنا سیرة الشیخ و نشأته حتی استوی سیدا جلیلا.

ولد الشیخ فی قریة الخوالد التابعة لمرکز إیتای البارود من أعمال مدیریة البحیرة فی العشرین من شهر ربیع الأول ۱۲۹۷ ه (أول مارس ۱۸۸۰ م) و نشأ فیها فحفظ القرآن الکریم حین بلغ الثانیة عشرة من عمره، و أرسله والده إلی الأزهر، و کان یحکی أن والده إذ ودعه حین ذاک أوصاه أن یحافظ علی الصلاة لأول وقتها، و حافظ الشیخ علی هذه الوصاة طوال حیاته، فإذا دخل الوقت کان أکبر همه أن یؤدی الصلاة، و فی یوم وفاته قدر له أن صلی العصر، و لم یلبث أن وافاه الحمام.

و جاور الشیخ فی الأزهر فأخذ عن الشیوخ المنتفعین الذین کان الأزهر ملآن بهم. و کان الشیخ ذکیا ثقفا لقفا عرف بالذکاء و الزکانة طول دهره، فحصل تحصیلا عجبا، و فطن لدقائق العلوم، و استحکمت عنده الملکة الأزهریة.

و قد تلقی الفقه الحنفی عن الشیخ أحمد أبی خطوة و اختص به، و کان یثنی علیه کثیرا، و أخذ عن الشیخ محمد بخیت و أخذ النحو علی الشیخ علی الصالحی المالکی. و لزم الأستاذ الإمام الشیخ محمد عبده فی دروسه فأخذ عنه أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز و البصائر النصیریة فی المنطق. و قد یرجع إلی تلمذته للشیخ محمد عبده الفضل فی تحرر فکره و اتساع أفقه و حسن التصرف فیما یعلم.

و کان إلی جانب اشتغاله بعلوم الدین و اللغة یشتغل بالعلوم الریاضیة، و کان ریاض باشا رحمه اللّه قد أعد مکافآت مالیة لمن یفوز

فی امتحانات الریاضة ففاز الشیخ فی هذه الامتحانات غیر مرة.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۱

و قد أتم تحصیله فی سنة ۱۳۲۴ ه (۱۹۰۶) و تقدم لامتحان شهادة العالمیة و کان صغیر السن بین أقرانه فی ذلک الحین. و کان امتحان العالمیة فی أصول الفقه یکون فی مسألة من مسائل مقدمة جمع الجوامع، و رأی شیخ الأزهر الشیخ عبد الرحمن الشربینی تجاوز المقدمة و الامتحان فی مسألة أخری حتی لا یقصر الطلبة جهودهم علی المقدمة، فعیّن مسألة للامتحان فی القیاس فتخلف عن الامتحان کثیر ممن جاء موعد امتحانهم، فأبیح التقدم لم بعدهم و تقدم الشیخ ففاز فی امتحان دقیق کان شیوخنا یحدثوننا عن عسره و کان الطالب یقضی فی الامتحان سحابة نهاره، و لکن الشیخ لم یتجاوز ثلاث ساعات، و کان الامتحان فی أربعة عشر علما.

و عقب تخرجه نظم فی سلک مدرسی الأزهر فی ۲۱ من نوفمبر سنة ۱۹۰۶. و کان رحمه اللّه أحیانا یتحدث بما أفاء اللّه علیه من النعمة، و ما کان علیه الأزهر فیقول: کان مرتب المدرس فی الأزهر خمسة و سبعین قرشا فی الشهر، و لقد کان أول ما تسلمته بعضا من هذا القدر إذ کان دخولی فی التدریس فی أعقاب الشهر، و لقد کان فرحی بهذا المال الذی هو أول مال اکتسبته من الأزهر عظیما: إذ کان فیه و صلی لحبلی بحبال علماء الأزهر. و قد اختیر لتدریس الریاضة بعد، و کان یتقاضی علی ذلک خمسین و مائة قرش فی الشهر، و هو مع ذلک یدرس العلوم الدینیة و اللغویة. و یذکر بعض من تلقی العلم عنه فی هذه المدة فیقول: کان الشیخ جمیل البزة مونقها غیر متزمت فی هدیه، یلقی الدرس فی ترتیب عجیب و سیاق لطیف یأخذ بألباب السامعین، یبعد عن الحشو و التطویل و اللغو من القول، و لا یطیل فی المباحث اللفظیة، له نغمة حلوة فی الإلقاء تجذب الطلاب.

و فتحت مدرسة القضاء الشرعی فی ذلک العهد، و کان علی أمرها عاطف برکات رحمه اللّه، و کان یختار لها من الأزهر المبرزین الفوقة، فذکر له الشیخ فاختاره، و کان ذلک فی سبتمبر سنة ۱۹۰۸ فبقی فیها إلی ۱۲ یونیة سنة ۱۹۱۶ م. و قام فیها بتدریس الفقه و أصول الفقه، فتخرج

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۲

علیه الثقات الکفاة الذین تقلدوا مناصب القضاء، و الإفتاء، أذکر منهم الشیخ فرج السنهوری، و الشیخ حسنین مخلوف، و الشیخ حسن مأمون.

و الشیخ علام نصار، و غیرهم کثیر.

و ولی بعد المدرسة منصب القضاء الشرعی، فکان القاضی الفاضل الذکی البصیر بالأحکام و مکاید الخصوم، الصادع بالحق، الناطق بالفضل، و کان أخوه الشیخ أحمد حمروش قاضیا، و کذلک کان عمه الشیخ عبد الحمید حمروش قاضیا، فهو من أسرة تأثل فیها هذا المنصب الرفیع. و لقد عرفه فی ساحة القضاء الشیخ المراغی رحمه اللّه، فلما ولی مشیخة الأزهر نقله إلی الأزهر یستعین به فی أمره، فکان له فی الأزهر الید الطولی فی شؤونه و تقلب فی مناصبه حتی صار شیخا لکلیة اللغة العربیة فی ۱۳ یونیة سنة ۱۹۳۱.

و تتوج حیاته العلمیة فی الأزهر بدخوله فی جماعة کبار العلماء فی ۲۸ من صفر سنة ۱۳۵۳ ه (۱۰ من یونیة سنة ۱۹۳۴ م). و قد قدم لنیل هذه الدرجة رسالة جلیلة فی «عوامل نمو اللغة» تدل علی تحقیق و دقة نظر فیما تناول من المسائل، یقول فی مقدمتها:

«و بعد: فإن اللغة العربیة بفضل عواملها المتعددة رحب صدرها، و اتسع نطاقها، و کثرت مادتها، و تنوعت أبنیتها، و صار لها جمال المنطق و جلال الدلالة و حسن الدیباجة و لطف العبارة، و قد وسعت بتلک العوامل علوم الیونان و الفرس و غیرهما؛ و صارت لغة العلم و الدین».

«و قد کتبت کلمة فی التولید بالزیادة و الإبدال و القلب و الاشتقاق و الترادف و الاشتراک و المجاز و النحت و الارتجال و التعریب».

و أذکر هنا مبحث للتعریب فی ختام الرسالة لیکون نموذجا لمباحثها.

و عنوان البحث: «أثر التعریب»: «فی التعریب زیادة مادة اللغة بالألفاظ الدخیلة فیها، و قد أجرت العرب علی بعضها أحکام الألفاظ

العربیة من القلب و الاشتقاق و غیرهما، و قد جری العلماء علی تسمیة ما أدخله العرب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۳

بالمعرب، إلی أن اختلطت العرب بغیرها و فسدت اللغة و ما أدخله غیر العرب بعد فساد اللغة و الاختلاط بالأعاجم سموه مولدا، و هناک قسم آخر یسمی بالعامی، و هو ما أخذ من غیر مادة عربیة، أو من مادة عربیة و لکن بتحریف و تبدیل لا تجیزه قواعد اللغة».

«بقی الکلام الآن فی أمر هو محل نزاع الباحثین و موضع اهتمامهم، و هو أن المعانی الجدیدة، و المستحدثات العصریة کثرت و تعددت بعد أن وقف التعریب، و أصبحت اللغة العربیة لا تنهض بالدلالة علی تلک المعانی و لا تقوم بحاجة التعبیر عنها، فهل للموجودین أن یعربوا ألفاظ المعانی و المستحدثات تمشیا مع الحاجة، و دفعا للضرورة و رفعا لعیب نقص اللغة العربیة عن الاضطلاع بحاجة أبنائها»؟.

«ذهب فریق إلی التعریب، و قال: إن اللغة کائن حی کسائر الموجودات و کل موجود حی یتدرج فی الرقی، و کما تدرج أهل اللغة یجب أن تتدرج اللغة، و إن التعریب یؤدی إلی اتحاد لغة العلم، و یحفظ للمخترع اسمه، و یبقی له ذکره».

و ذهب فریق إلی أنه لا حاجة إلی التعریب و أن اللغة العربیة یمکن أن تنهض بالدلالة علی المعانی الجدیدة باتخاذ الوسائل المؤدیة إلی ذلک، فعندنا مهجور فی اللغة لا یستعمل الآن، و بنقله إلی المعانی الجدیدة یقوم بالدلالة علی بعضها و یتداول بین الناس فتحیا به اللغة العربیة. و عندنا المجاز، و هو یدل علی غیر الموضوع له بواسطة العلاقة و القرینة و علاقاته کثیرة متعددة، و عندنا المشتق، و منه قسم مطرد».

«و بهذه الوسائل یمکن اللغة العربیة النهوض بالدلالة علی المعانی الجدیدة».

«علی أن فی التعریب فشو الکلمات الدخیلة فی اللغة، و هو یودی باللغة الفصیحة، و یذهب بجمالها و رونقها. و فی ضیاع اللغة الفصیحة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۴

تعطیل الأداة الصالحة لفهم القرآن و الحدیث، و هما عماد الدین و إلیهما یرجع المسلمون». الأزهر فی ألف عام ؛ ج۱ ؛ ص۳۲۴

و فی جواز التعریب ضیاع أخص ممیزات الجنس العربی؛ لأن الجامعة الجنسیة لا تکون بغیر اللسان العام الذی یتفاهم به الجمیع علی السواء. فلو تساهل کل شعب فی استعمال ألفاظ أعجمیة لضاعت روابط الجنسیة، و أصبح لکل شعب لسان خاص».

و أما أن التعریب یوحد لغة العلم و یحفظ للمخترع اسمه فکلام لا یلتفت إلیه؛ فإن اتحاد لغة العلم إنما یکون إذا اتحدت أبجدیات الأمم و هی مختلفة جدا. و حفظ اسم المخترع لا نبالی به إذا کان فی عدم الالتفات إلیه صیانة اللغة العربیة».

«هذا حاصل کلام الفریقین باختصار. و أری أنه إذا أمکن باتخاذ الوسائل المتقدمة أو باتخاذ وسائل أخری غیرها أن تنهض اللغة العربیة للدلالة علی جمیع المعانی و المستحدثات العصریة فلا نقدم علی التعریب حفظا للغتنا العربیة التی هی أداة فهم القرآن و الحدیث اللذین هما أساس الدین و عماده. و إن لم یمکن أن تقوم اللغة بعد اتخاذ الوسائل بالدلالة علی جمیع المعانی أقدمنا علی التعریب بقدر الحاجة فقط، مع المحافظة علی اللغة الفصحی، بأن نذکر اللفظ و نذکر بجانبه معناه، و أنه مما عرب للدلالة علیه، و نبین تاریخ التعریب، فیکون ما وضعه المتقدمون معروفا، و ما ألحق باللغة معروفا، فتتحقق المحافظة علی الموروث عن السلف».

و أرانی قد ألممت ببعض حیاته فی الأزهر، و سألم ببعض حیاته فی المجمع.

دخل الشیخ- رحمه اللّه- المجمع لأول نشأته فی سنة ۱۹۳۴ م فاختیر فی معظم لجانه، و شارک فی بحوثه، و کان من الرعیل الأول الذین أرسوا قواعد المجمع و أقاموا عمده. و کان له فیما یعرض فی اللجان

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۵

و مجلس المجمع و مؤتمره الرأی السدید و البصر النافذ و اللحظ الناقد و البحوث المستفیضة فی الشؤون العلمیة.

و من آرائه أن اللفظ المولد إذا اشتهر يستعمل فی غير اللغة و الأدب.

و عرض المجمع فی بعض جلساته لرسم المصحف و طلب إلی الشيخ أن يكتب رأيه، فكان رأيه الوقوف عند الرسم المعهود له، و لا ينبغی كتابته بالرسم العادی: لأنه عرضة للتغيير و التبديل فی كل عصر، فلو أبيح هذا لتعدد رسم المصحف، و كان مظنة لأن يعزی إليه الاختلاف فحفظ القرآن و صونه يقضی بإبقاء رسمه علی الكتبة الأولی.

و قدم أحد الأعضاء المراسلين بحثا فی كلمة «الضرر» رأی قصره علی الزمانة و فقد البصر و أنه مصدر لفعل لازم علی زنة فرح، و إن لم يجیء هذا الفعل فی المعاجم، و أنه لا يقال: أصاب فلانا الضرر فی ماله أو فی حميمه مما ليس بداء لازم و خطأ الجوهری فی جعله الضرر اسما بمعنی الضر، و ارتاب فی الحديث: لا ضرر و لا ضرار، و أثار مسألة الاحتجاج بالحديث فی اللغة فقدم الشيخ بحثا رد به حجج هذا الباحث و أورد من الشواهد ما لا يقبل الجدل؛ كقول جرير:

فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم‌أو تنج منها فقد أنجيت من ضرر

و قول أبی تمام:

لو كان فی البين إذ بانوا لهم دعةلكان فقدهم من أعظم الضرر

و له بحث قيم فی التضمين و نيابة بعض الحروف عن بعض، و بحث فی الاشتقاق الكبير.

و كان الشيخ- رحمه اللّه- عجيب الاستحضار لما يقرأ و يسمع، كثير المحفوظ من الشعر، حسن الاستشهاد به فی المقامات المناسبة، جری مرة فی لجنة الأصول الحديث فی التضمين، و أنكر بعض الحاضرين أن يضمن فعل متعدّ معنی فعل آخر متعد، فقال الشيخ: أذكر قول الشاعر:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۶ علفتها تبنا و ماء باردا. و قد قال اللغويون: إن علف هنا مضمّن معنی أطعم، و كلاهما متعد.

و كان بيته محجة أولی العلم ينهلون من مورده العذب، و يجدون ما طاب من حديث فی دقائق العلم ممزوجا بفكاهة حلوة و طيب سمر، و كان الشيخ طيب النفس بعيدا عن التزمت مؤنسا للجليس لا يمل مجلسه. و فی يوم الجمعة الذی توفی بعده اجتمع الشيوخ عنده عقب الصلاة فجری البحث فی تفسير قوله تعالی: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ».

و أفاض الشيخ فی الحديث فيها، و كان الشيخ يفسح الكلام لمن يتكلم و يعقب برأيه السديد.

و لقد طويت صفحات خالدة من تاريخ الأزهر الحديث بوفاة الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر الأسبق، فقد عاصر رحمه اللّه مدرسة محمد عبده فی الإصلاح الدينی، و اشترك فی نشاطها، و كان أحد أقطابها، و كان الإمامان المراغی و حمروش يمثلان عنصر الشباب فی هذه المدرسة التی تتجه بكل كفاحها إلی خلق بيئة دراسية مستقرة فی الأزهر، و تكوين أجيال من الشباب المثقفين ثقافة واسعة تحيط بشتی علوم الشريعة و العربية، و تتمثل فيهم رسالة رجل الدين الروحية و العلمية .. و كان حمروش يمثل الجانب العلمی لهذه المدرسة خير تمثيل، فی دروسه و هو شاب مكافح، و فی توجيهه للتعليم فی الأزهر و هو فيه مفتش فشيخ معهد فعميد لكلية اللغة و عضو فی جماعة كبار العلماء فرئيس للجنة الفتوی، و فی ندواته الليلية الدائمة فی منزله فی القلعة و قد كان كعبة العلماء و المفكرين، حيث كانت تعرض أمامه مشكلات الدين و الثقافة فيفتی فيها برأی سديد، و حكمة نافذة، تعد خير توجيه لرواد مجلسه، و لم تحل مهامه الإدارية حين تولی مشيخة الأزهر الشريف فی أكتوبر عام ۱۹۵۱ حتی نوفمبر عام ۱۹۵۲ و بين عقد هذه الندوة كما كانت من قبل.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۷

و كان منزل حمروش مفتوحا دائما للناس و لمختلف طبقات الشعب يستفتونه فی مشكلاتهم الروحية، و يطلبون معاونته فی مصالحهم الشخصية و هو يبتسم دائما لا تعرف «لا» طريقا إلی لسانه.

و قد اختير حمروش عضوا فی المجمع اللغوی منذ ان نشأ و اشترك فی نشاطه اللغوی الكبير، و أسس كثيرا من لجانه، و وجه أعمال

المجمع وجهة تفيد العرب و تراثهم و لغتهم و الثقافة العربية العامة.

لم يترك حمروش كتبا مطبوعة و إن كانت له كتب مخطوطة لم تطبع بعد، إنما ترك أفكارا قيمة فی نفوس تلاميذه و مريديه، و جميع علماء الأزهر اليوم و شيوخه من تلاميذه و مريديه، و ترك منهجا علميا يستضاء به دائما فی إصلاح الأزهر، و ترك ذوقا علميا يستفاد منه فائدة جلی و ترك مع ذلك كله قدوة طيبة تعد خير نبراس يرشد إلى الحق و الخير و العزة و الغيرة على الدين و على الوطن و على المبادیء المثلى التی دعا إليها الإسلام و كتابه الحكيم.

و قد كان حمروش رحمه اللّه مثالا للوطنية النزيهة لم يحن رأسه للطغاة، و لم يتملق احدا فی حياته كائنا من كان، و سار فی الصفوف الأولى مع الشعب فی المظاهرة الوطنية الكبرى فی نوفمبر ۱۹۵۱ احتجاجا على جيش الاحتلال و أعماله فی منطقة القتال .. حقا لقد كان مثالا عظيما، و عنوانا كريما لرجل الدين المعاصر و صفحة خالدة من تاريخ الأزهر الحديث.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۸

الأستاذ الأكبر الشيخ محمّد الخضر حسين

عين الشيخ الخضر حسين شيخا للأزهر فی يوم الأربعاء ۲۷ من ذی الحجة ۱۲۷۱ ه- ۱۷ سبتمبر ۱۹۵۲.

و كان أحمد تيمور فی مقدمة الذين قدروا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر السابق حين قدم مصر من أكثر من ربع قرن- و قد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين آثار العلامة أحمد تيمور على ترجمة لحياة الشيخ محمد الخضر حسين- هذا نصها:

ولد بمدينة نفطة بالقطر التونسی فی ۲۷ رجب سنة ۱۲۹۳ و اشتغل بالعلم و حفظ القرآن الكريم و قرأ بعض الكتب الابتدائية فی بلده، و فی آخر سنة ۱۳۰۶ رحل مع أبيه و أسرته إلى القاعدة التونسية فاشتغل بالطب ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ۱۳۰۷ فقرأ على أشهر أساتذتها و تخرج عليهم فی العلوم الدينية و اللغوية و نبغ فيها و فی غيرها، فطلب لتولی بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته فأبى و واظب على حضور حلقات الأكابر مثل الشيخ عمر ابن الشيخ و الشيخ محمد النجار و كانا يدرسان التفسير و الشيخ سالم بو حاجب و كان يدرس صحيح البخارى.

ثم رحل إلى الشرق فی سنة ۱۳۱۷ و لكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياما فلازم جامع الزيتونة يفيد و يستفيد، إلى سنة ۱۳۲۱ ه، فأنشأ فيها مجلة- السعادة العظمى- و لاقى فی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۲۹

سبيل بث رأيه الإسلامی ما يلاقيه كل من سلك هذا السبيل. و فی سنة ۱۳۲۳ ولی القضاء فی مدينة بنزرت و التدريس و الخطابة بجامعها الكبير، ثم استقال و رجع إلى القاعدة التونسية، و تطوع للتدريس فی جامع الزيتونة، ثم أحيل إليه تنظيم خزائن الكتب بالجامع المذكور- و فی سنة ۱۳۲۵ اشترك فی تأسيس جمعية زيتونية، و فی هذه المدة جعل من المدرسين المعينين بالجامع المذكور. و فی سنة ۱۳۲۶ جعل مدرسا بالصادقية و كلف بالخطابة فی مواضيع إنشائية بالخلدونية، و لما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان و العثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة و نشر بجريدة الزاهرة قصيدته الشهيرة لتی مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذی ذهبايكفی مضاجعنا نوم دها حقبا

ثم رحل إلى الجزائر فزار أمهات مدنها، و ألقى بها الدروس المفيدة، ثم عاد إلى تونس و عاود دروسه فی جامع الزيتونة و نشر المقالات العلمية و الأدبية فی الصحف.

و فی سنة ۱۲۳۰ سافر إلى دمشق مارا بمصر ثم سافر إلى القسطنطينية فدخل يوم إعلان حرب البلقان فاختلط بأهلها و زار مكاتبها، ثم عاد الى تونس فی ذی الحجة من هذه السنة و نشر رحلته المفيدة عنها و عن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف، ثم جعل عضوا فی

اللجنة التی ألفتها حکومة تونس للبحث عن حقائق فی تاریخ تونس ثم ترک ذلک لما عزم علی المهاجرة إلی الشرق فرحل إلیه، و نزل مصر و عرف بعض فضائلها ثم سافر إلی الشام ثم للمدینة المنورة ثم إلی القسطنطینیة ثم عاد إلی دمشق معینا مدرسا للغة العربیة و الفلسفة بالمدرسة السلطانیة بدمشق، و بقی کذلک إلی أن اتهمه مدة الحرب العظمی جمال باشا حاکم سوریا بکتم حال المتآمرین علی الدولة و اعتقله ستة أشهر و أربعة عشر یوما ثم حوکم فبریء من التهمة فأطلق سبیله فی شهر ربیع الثانی سنة ۱۳۳۵ و من شعره فی حبسه و کانوا حالوا بینه و بین أدوات الکتابة:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۰ غل ذا الحبس یدی عن القلم کان لا یصحو عن الطرس فناما

هل یذوذ الغمض عن مقلته أو یلاقی بعده الموت الزؤاما

أنا لو لا همة تحدو إلی خدمة الاسلام آثرت الحماما

ثم استمر علی التدریس بالمدرسة بدمشق إلی أن دعی إلی القسطنطینیة سنة ۱۳۳۶. ثم هاجر الی استنبول بعد عام و عمل محررا بالقلم العربی بوزارة الحربیة، ثم أرسلته الحکومة إلی المانیا للقیام بعمل سیاسی و هو تذکیر الأسری هناک بظلم فرنسا ثم رجع إلی الشام فدرس الفقه بالمدرسة السلطانیة العربیة .. و بعد أن احتلت فرنسا الشام بعشرة أیام هاجر إلی مصر فی عام ۱۳۲۹ ه. ثم نال الشهادة العالمیة بالأزهر و تولی التدریس بکلیة أصول الدین و التخصص اثنتی عشرة سنة.

و تولی ریاسة تحریر مجلة الأزهر و لواء الإسلام و ریاسة جمعیة الهدایة الإسلامیة و اختیر عضوا بهیئة کبار العلماء ۱۹۵۱، و هو إلی ذلک عضوا بمجمع اللغة العربیة منذ أنشیء. و قد استقال فضیلته من المشیخة فی ۲ جمادی الأولی ۱۳۷۳ ه- ۸ ینایر ۱۹۵۴ و توفی رحمه اللّه فی ۱۴ من رجب عام ۱۳۷۷ ه.

و قد نعی الأزهر فی یوم الاثنین ۱۴ رجب سنة ۱۳۷۷ عالما إسلامیا جلیلا و مجاهدا من الرعیل الأول ممن أبلوا البلاء الحسن فی کفاح الاستعمار: الأستاذ الأکبر الشیخ محمد الخضر حسین شیخ الأزهر السابق و رئیس جمعیة الهدایة الإسلامیة، عن نیف و ثمانین عاما قضی معظمها فی التدریس و فی الکتابة و التألیف و فی جهاد مریر فی شبابه دفاعا عن حقوق عرب شمال افریقیا و غیرهم من أقطار العروبة.

ولد الفقید الجلیل فی وطنه الأول فی بلدة «قفصة» من مقاطعة الجرید بتونس و نشأ فی بیت علم ینتمی أصله إلی الجزائر، و شرع فی طلب العلم فی بلدته ثم أتم تعلیمه فی جامعة الزیتونة، و تخرج منها و مارس بعد تخرجه التدریس ثم القضاء، کما قام بإنشاء أول مجلة علمیة

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۱

أدبیة بالمغرب، ثم رحل إلی ترکیا، و أقام بها وقتا قصیرا ثم حضر إلی دمشق حیث عین مدرسا بمدرستها الثانویة الوحیدة یومذاک،- و کانت تعرف بمدرسة عنبر- و ظل فی دمشق إلی أوائل الحرب العالمیة، ثم رجع إلی استانبول فانتدبته الدولة العثمانیة إلی برلین مع بعثة مؤلفة من کبار علماء شمال افریقیا للاتصال بأبناء شمال افریقیا ممن وقعوا فی أسر الألمان أثناء الحرب و بانتهاء الحرب عاد إلی دمشق مدرسا فی نفس المدرسة و کان العهد عهد الحکومة الفیصلیة الوطنیة ..

و کانت الحکومة الفرنسیة قد حکمت علیه بالإعدام، لانضمامه إلی الدولة العثمانیة و لذهابه إلی ألمانیا- کما مر ذکره- فما أن دخلت فرنسا سوریا حتی غادرها جمیع الأحرار من المجاهدین العرب و کان منهم الفقید الشیخ الخضر فجاء إلی مصر حوالی عام ۱۹۲۰ م و ظل فیها بعض الوقت مغمورا ثم عرف فضله و مکانته فعین أولا مصححا بدار الکتب المصریة.

و فی هذه الأثناء صدر فی مصر کتابان شهیران أحدثا دویا فی ذلک الوقت فی الأوساط الفکریة و هما کتاب «الإسلام و أصول الحکم» للعالم الأزهری الشیخ علی عبد الرازق و کتاب «فی الشعر الجاهلی» للدکتور طه حسین، و نظرا لما اشتمل علیه هذان الکتابان من آراء مضللة تصدی بعض کبار الباحثین للرد علی کل منهما، و کان للمرحوم الشیخ محمد الخضر حسین فضل الرد علی کلا

الکتابین حینئذ حیث أفرد لکل منهما کتابا مستقلا کانا من خیر ما کتبه الکاتبون فی هذا المجال.

و ظل الفقید یعمل مصححا بدار الکتب بضع سنوات إلی أن منح شهادة العالمیة الأزهریة ثم تعین مدرسا بالأزهر و کان ذلک فی عهد الشیخ المراغی .. و أخیرا تعین عضوا فی هیئة کبار العلماء و هو المنصب الذی أهله فیما بعد لأن یصبح شیخا للأزهر ..

و عقب تعیینه مدرسا بالأزهر أنشأ جمعیة الهدایة الإسلامیة بمصر و ظل یرأسها و یرأس مجلتها إلی عهد قریب، کما کان أول رئیس تحریر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۲

لمجلة نور الإسلام و هی المجلة التی أصدرتها مشیخة الأزهر سنة ۱۳۴۹ ه.

و للشیخ محمد الخضر حسین یرجع الفضل فی تکوین جمعیة تعاون جالیات افریقیا الشمالیة فی مصر قبل حوالی عام ۱۹۲۴ م، و کان یرأس هذه الجمعیة بنفسه، و هدفها رفع مستوی تلک الجالیات من الناحیتین الثقافیة و الاجتماعیة.

غیر أن هذه الجمعیة لم تعش طویلا، لأن استعمارا ثلاثیا: إیطالیا و فرنسیا و إسبانیا کان لها بالمرصاد فقضی علیها فی سنواتها الأولی ..

و للفقید الکبیر عدا کتابیه السالفی الذکر، محاضرات و رسائل عدیدة مطبوعة و متداولة، و هو کاتب بلیغ و له دیوان شعر مطبوع، و قد اشتهر بمقالاته و بحوثه فی کبری المجلات الإسلامیة.

و عندما صدرت مجلة لواء الإسلام لصاحبها الوزیر السابق الأستاذ أحمد حمزة کان الشیخ الخضر یرأس تحریرها و ظل بها إلی أن عین شیخا للأزهر، ثم استأنف نشر مقالاته فیها بعد تنحیه من المشیخة، و آخر مقالاته فیها فی جزء رجب الأخیر.

کما کان عضوا فی مجمع اللغة العربیة بمصر منذ إنشائه قبیل الحرب العالمیة الثانیة.

و کتب الأستاذ أنور الجندی عن محمد الخضر حسین یقول:

«کان نظام التعلیم فی المعهد الزیتونی من أسباب تنافس أصحاب المذهبین: المالکی و الحنفی فی میدان العلم، و قد أخرج جامع الزیتونة فقهاء یعتزون بعلمهم و یزهدون فی المناصب، أدرکت من هؤلاء فقهاء و أساتذة بلغوا الغایة فی سعة العلم و تحقیق البحث، مثل عمر بن الشیخ، و أحمد بن الخوجة و محمد النجار، و من نظر فی فتاوی هؤلاء الأساتذة أو رسائلهم التی حرروا بها بعض المسائل العویصة رآهم کیف یرجعون إلی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۳

الأصول و القواعد و مراعاة المصالح، و لا یقنعون بنقل الأقوال دون أن یتناولوها بالنقد و المناقشة.

و یدلنا التاریخ القریب علی أن بعض رجال الدولة التونسیة عندما اتجهوا الی إصلاح الحالة السیاسیة أو العلمیة أو الاجتماعیة، و جدوا فقهاء یدرکون مقتضیات العصر، و یعرفون کیف تسعها أصول الشریعة بحق، فکانوا یعقدون منهم بعض لجانهم، و یستنیرون بآرائهم مثل أساتذتنا: عمر ابن الشیخ، و سالم أبو حاجب، و مصطفی رضوان، و ما زال الرسوخ فی الفقه، و ربط الأحکام بأصولها، من مواضع عنایة الأساتذة فی جامعة الزیتونة لهذا العهد، یشهد بهذا ما نقرؤه فی محاضراتهم و مقالاتهم التی تنشر فی الصحف التونسیة و المصریة.

کانوا یدرسون الفقه بأنظار مستقلة، و آراء تستضیء بالأدلة و یتفاضلون فیها علی قدر تفاضلهم فی العبقریة وسمو الهمة ..».

لا شک کان محمد الخضر حسین علما من أعلام الفکر المغربی الإسلامی، مکافحا وطنیا، و مغتربا فی سبیل الحفاظ علی حریة الکلمة، و أقام کابن خلدون بقیة عمره فی مصر، و رقی فیها إلی أعلی المناصب، و عمل فی میدانی الإصلاح الإسلامی و القیاسی اللغوی، و عمل فی التدریس و الصحافة و الکفاح الوطنی، و لقد أتیح له أن یقاوم حرکات التغریب بدعوته إلی إنشاء جمعیة الشبان المسلمین، و کانت مجلته و قلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب و قضایاه، و معلما قویا یستصرخ المشارقة حین یکشف لهم عن مؤامرات الاستعمار و یدعوهم إلی مقاومة التغریب و التجنیس و الفرنسة، فهو منذ أقام فی مصر بعد الحرب العالمیة الأولی یحمل هذه

الرسالة، و یعمل فی کل هذه المیادین: الإسلام و اللغة و الکفاح السیاسی.

و کان محمد الخضر حسین مستنیرا متفتح الذهن یدعو إلی الإصلاح علی أساس قاعدة علمیة واضحة، فهو یعتمد الرأی حیث یثبته الدلیل،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۴

و یتقبل الحکم متی لاحت بجانبه حکمة، و یثق بالروایة، بعد أن یسلمها النقد إلی صدق الغایة ...

و من رأیه أن علی العلماء قول کلمة الحق لأهل الحل و العقد دائما، و عدم التوقف عنها.

«لا ینبغی لأهل العلم أن یغفلوا عن سیر أرباب المناصب و الولایات، فمن واجبهم أن یکونوا علی بینة من أمرهم، حتی إذا أبصروا عوجا نصحوا لهم بأن یستقیموا، أو رأوا حقا مهما لفتوا إلیه أنظارهم، و أعانوا علی إقامته.

و من أدب العلماء أن ینصحوا للأمة فیما یقولون أو یفعلون، و یحتملوا ما ینالهم فی سبیل النصیحة من مکروه، و کم من عالم قام فی وجه الباطل فأوذی فتجلد للأذی».

و قد کانت حیاة الخضر حسین رمزا علی هذا المعنی، معنی طلب الحریة و الهجرة من بیئة الظلم، فقد فر من تونس و من الشام و من ترکیا، و کان فراره لیحتفظ لنفسه بحقه فی الکلمة، یقول: «نشأت فی بلدة من بلاد الجرید بالقطر التونسی یقال لها «نقطة» و کان للأدب المنظوم و المنثور فی هذه البلدة نفحات تهب من مجالس علمائها، کان حولی من أقاربی و غیرهم من یقول الشعر، فتذوقت الأدب من أولی نشأتی. و حاولت و أنا فی سن الثانیة عشرة نظم الشعر. و فی هذا العهد انتقلت أسرتی إلی مدینة تونس، و التحقت بطلاب العلم بجامع الزیتونة «و کان ذلک عام ۱۸۹۹، أحب أستاذه الشیخ سالم أبو حاجب الذی کان یحثه علی البحث»، و یلاقی السؤال المهم بابتهاج، و یدعو للطالب بالتفتح یقول: «کان یقول الشعر مع کونه یغوص علی المسائل العلمیة بفکر ثاقب» و کان الشیخ أبو سالم قد رفض و سام السلطان و وسام الباى، فأحب منه الشیخ الخضر هذا الاعتداد بالنفس، «بعد أن نلت درجة العالمیة أنشأت مجلة علمیة أدبیة، و هی أول مجلة أنشئت بالمغرب، فأنکر علی، بعض الشیوخ، و ظن أنها تفتح باب

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۵

الاجتهاد، و شجعنی علی إنشائها شیخنا أبو حاجب، کما شجعنی علیها الوزیر محمد أبو عنور.

کانت خطته الإصلاح الاجتماعی و الدینی، و العمل لإعادة مجد الإسلام، و لکنه لم یلبث أن اختلف مع السلطات بشأن العمل فی القضاء، بعد أن ولیه فی بنزرت ۱۹۰۵، إذ فضل العودة إلی التدریس فی الزیتونة، فلما خاطبته المحکمة الفرنسیة ۱۳۲۵ ه بالعمل فی المحکمة عضوا لیحضر حکمها بین الوطنی و الفرنسی، امتنع و لم یقبل أن یصدر الحکم الجائر.

و استقر رأیه إثر ذلک علی الهجرة إلی الشرق، فاستوطن دمشق عام ۱۹۱۲، و کانت تحت سلطات العثمانیین، فنصب للتدریس فی المدرسة السلطانیة فی کرسی الشیخ محمد عبده.

ثم اعتقله جمال باشا حاکم الشام، و رحل إلی الآستانة فأسند إلیه التحریر بالقسم العربی بوزارة الحربیة، و حین احتل الحلفاء الآستانة رحل مع زعماء الحرکة الإسلامیة عبد العزیز شاویش و عبد الحمید سعید و الدکتور أحمد فؤاد.

و عاد إلی دمشق ۱۹۱۸ فی عهد الحکومة العربیة لفیصل، و عهد الیه بالتدریس فی المدرسة السلطانیة، و لکن فرنسا لم تلبث أن بسطت سلطانها علی سوریا فترک دمشق إلی القاهرة ۱۹۱۹، و فی مصر عرف الشیخ أحمد تیمور باشا الذی کان خیر رفقائه، و کان له فضل واضح فی إنشاء جمعیة الشبان المسلمین مع السید محب الدین الخطیب صاحب الفتح. کما أنشأ من بعد جمعیة الهدایة الإسلامیة و مجلة الهدایة الإسلامیة، و تولی ثمة مجلة لواء الإسلام و (مجلة الأزهر)، و اتصل بالأزهر و نال إجازته، و عمل فی کلیاته، و اختیر عضوا فی جماعة کبار العلماء، فشیخا للأزهر عام ۱۹۵۲، و عضوا فی مجمع اللغة العربیة.

و تطلع إلی مجد المغرب و حریته.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۶

و قد کانت مجلة الهدایة: مجلة مغربیة واضحة الدلالة، فی کتابتها و أبحاثها، و دفاعها عن مختلف المواقف الوطنیة و الإسلامیة و العربیة، و رأس جبهة شمال افریقیا، التی ضمت الرجال الذین سعوا نحو مصر من أجزاء المغرب العربی.

و کان الشیخ الخضر کاتبا و شاعرا له شعر کثیر جید، و قد وصفه الفاضل ابن عاشور فقال: کان کاتبا بلیغا ذا طبع خاص و أسلوب قوی الروح الأدبیة، فصیح العبارة بلیغ الترکیب، ینزع إلی طرائق کتاب الترسل الأولین، رحل عام ۱۹۱۲ إلی مصر و سوریة و ترکیة، فکتب رحلة بدیعة نشرت فی مجلة الزهرة، طافحة بانتقاداته و أفکاره.

و أشار إلی مجلة السعادة العظمی (التی أصدرها فی تونس ۱۹۰۴) فقال: انها کانت مرکزا للحرکة الفکریة وقوة توجیهیة متصلة بجمیع أهل الثقافة العربیة یجتمع تحتها شقان متباعدان ... و لم تدم إلا عاما ناقصا.

و للخضر حسین: مؤلفات متعددة أهمها:

محمد رسول اللّه، رسائل الإصلاح، آداب الحرب فی الإسلام، القیاس فی اللغة العربیة، هذا بالإضافة إلی عشرات الفصول و المقالات فی صحف مصر و المغرب و الشام ...

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۷

الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج

قرر مجلس الوزراء فی جلسته المنعقدة یوم الخمیس ۲ جمادی الأولی سنة ۱۳۷۳ (۷ ینایر سنة ۱۹۵۴) الموافقة علی قبول الاستقالة المقدمة من حضرة صاحب الفضیلة الأستاذ الأکبر السید الخضر حسین شیخ الجامع الأزهر، و اختار لهذا المنصب حضرة صاحب الفضیلة الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج عضو جماعة کبار العلماء و أستاذ الشریعة الإسلامیة فی کلیة الحقوق بجامعة إبراهیم و عضو لجنة وضع مشروع الدستور.

و فی یوم السبت ۴ جمادی الأولی (۹ ینایر) صدر قرار مجلس الوزراء الخاص بتعیین فضیلة الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج شیخا للأزهر، و قد أبلغته السکرتیریة العامة لمجلس الوزراء إلی فضیلته.

و فضیلة الأستاذ الأکبر الشیخ عبد الرحمن تاج مولود بمدینة أسیوط سنة ۱۳۱۴ (۱۸۹۶) و نال شهادة العالمیة بالمرتبة الأولی سنة ۱۳۴۱ (۱۹۲۳) و شهادة التخصص بالمرتبة الأولی أیضا سنة ۱۳۴۵ (۱۹۲۶) و عین بعد تخرجه مدرسا بمعهد أسیوط الدینی ثم نقل إلی المعهد الأزهری سنة ۱۹۳۱ ثم اختیر أستاذا بکلیة الشریعة سنة ۱۳۵۲ (۱۹۳۳). و فی سنة ۱۳۵۵ (۱۹۳۶) اختیر عضوا فی أول بعثة للأزهر إلی أوربا و مکث فی فرنسا سبع سنوات و ثلاثة أشهر. و نال الدکتوراه من جامعة السوربون، و عاد من فرنسا سنة ۱۳۶۲ (۱۹۴۳) فاختیر للتدریس فی قسم تخصص القضاء

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۸

الشرعی، ثم عین مفتشا للعلوم الدینیة و العربیة بالمعاهد الأزهریة، و عین شیخا لمعهد الزقازیق الدینی، ثم شیخا للقسم العام و البعوث الإسلامیة بالأزهر، و عضوا دائما و سکرتیرا فنیا للجنة الفتوی بالأزهر و قد کان فی عضویة هذه اللجنة منذ إنشائها فی سنة ۱۹۳۵، و اختیر أستاذا للشریعة الإسلامیة بکلیة الحقوق فی جامعة إبراهیم، و حصل علی عضویة جماعة کبار العلماء سنة ۱۳۷۰ (۱۹۵۱) و کان موضوع رسالته «السیاسة الشرعیة و الفقه الإسلامی». و اختیر عضوا فی لجنة وضع مشروع الدستور الجدید عند تکوینها فی العام الماضی.

و فی صباح یوم الاثنین ۱۱ ینایر توجه فضیلة الأستاذ الأکبر إلی إدارة المعاهد الدینیة حیث تسلم مهام منصبه الجدید، و کانت فی استقبال فضیلة جموع حاشدة من أساتذة الأزهر و طلابه، و تعالت الهتافات بحیاة فضیلته و حیاة رجال الثورة الأحرار.

و قد أقبل أعضاء جماعة كبار العلماء و أساتذة الكليات و المعاهد الدينية و الموظفون الإداريون على مكتب فضيلته مهنئين. و بعد أن استمع فضيلته لكلماتهم أطل على جموع الأزهريين المحتشدين أمام مبنى الإدارة و ارتجل الكلمة الآتية:

«أشكر لكم هذه الحفاوة البالغة و هذا الاستقبال الرائع. و إنى أرجو أن يوفقنى اللّه لأن أتقدم بالأزهر إلى المكانة العالية التى كان يتبوؤها من قبل.

و إنى أبشركم بأن بوادر هذا المستقبل الزاهر المرجو للأزهر قد لمستها فى جلسات قصيرة خفيفة مع رجال هذا العهد. فقد لمست فيهم إيمانا خالصا و ضراعة إلى اللّه تعالى أن يعينهم على ما فيه خير الأزهر.

و الذى أرجوه أن ينصرف كل منا إلى واجبه و أن يحافظ على النظام.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۳۹

الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

كتب الأستاذ العقاد فى مجلة الأزهر عن الشيخ شلتوت يقول بعنوان:

«الإمام المصلح محمود شلتوت»:

فى كتابات الإمام الفقيد- الشيخ محمود شلتوت- كلمات لها طابعها الذى تتميز به بين أمثالها من الكلمات فى كتابات غيره، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية.

و لعل أبرز هذه الكلمات فى كتاباته، و فى أحاديثه، كلمة «الشخصية».

يلحقها بوصف العقيدة، و وصف الفرائض المقدسة، بل يجعل العقيدة- كما يجعل الفريضة- معلما من معالم شخصية الأمة، و شخصية الإنسان فى حياته الباطنة و حياته الظاهرة.

قال رحمه اللّه فى مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر إن: «للإنسان فى هذه الحياة فردا كان أم جماعة شخصيتين، حسية و معنوية، و لا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين. و شخصية الفرد الحسية يكونها اللون و الطول و العرض، و شخصيته المعنوية يكونها إيمانه و مبدؤه و هدفه فى الحياة، و ما له من عقل و تدبير و ثبات و مثابرة فى سبيل مبدئه و هدفه».

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية: «إنها ترجع إلى إقامتها فى

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۰

الإقليم الذى نشأت فيه، و إلى الأمل الذى تنتسب إليه» ... «أما شخصيتها المعنوية فهى ترجع إلى روابطها القلبية و العقلية و الشعورية، و على قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة و الحرص عليها و على معارفها التى تكونها، و على الإيمان بمصدر تلك المعارف ... يكون لها بين الأمم من آثار الوجود المعنوى».

و كتب عن الصلاة فى فصل من فصول «الإسلام عقيدة و شريعة»، فقال عنها: «إنها العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية».

و على هذه الوتيرة كانت كلمة «الشخصية» تتردد فى أحاديثه للدلالة على قوام كل «وجود» حتى يتميز به عقل الإنسان و ضميره فى حياته الروحية، و هى لمحة من لمحات التعبير الباطنى تدل على معناها و تدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية و اقترانها بحق الإنسان و واجبه و بالتبعة التى تناط بها الحقوق و الواجبات، و تقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الأخرى فى إبداء الرأى و الاضطلاع بأعباء الدعوة و الإقناع.

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد، بل هى أولى تلك الخصال فى كل ترتيب لكفايات المجتهدين. من كان له رأى و علم و لم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد، لأنه يلقى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه، و يحجم عن العمل فى سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل.

و تلک هی الخصلة التی توافرت للأئمة الأسبقین من أصحاب الرأی و القیاس فی الشریعة، و بفضل الثقة التی کانت تملأ نفوسهم، من هذه الخصلة کانوا یقولون لمن یستکثر علیهم التعقیب علی أهل العلم من الصحابة و التابعین: إنهم رجال و نحن رجال.

و إذا اجتمع الاجتهاد فی کلمات معدودات صح أن یقال إنه هو القدرة علی الرجوع إلی روح القرآن الکریم، أو أنه بعبارة أخری تفسیر

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۱

المذاهب بمعانی القرآن الکریم، و لیس هو تفسیر القرآن الکریم بمعانی المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فیها.

و لقد کان هذا هو إیمان الإمام الفقید بالکتاب المبین، و کان هذا هو منهجه فی الاحتکام بالمذاهب إلی آیاته و أحکامه، مستقلة عما یضاف إلیها من شروح المختلفین و تأویلات أصحاب الرأی أو أصحاب اللغة من المفسرین.

و قد لخص العالم الفاضل الدکتور محمد البهی هذا المنهج فی تقدیمه لتفسیر الإمام الفقید فقال: «التفسیر الذی نقدمه الیوم للمسلمین هو تفسیر للمسلمین أجمعین، لا- لمذهب معین من المذاهب الفقهیة، و لا- للون من ألوان العقیدة الکلامیة و لا- لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن».

ثم قال عن المنهج الذی اختاره الأستاذ المفسر و اقتدی فیه بالمعلم المصلح العظیم محمد عبده فقال: إنه منهج «جعل السورة وحدة واحدة، یوضح مرامیها و أهدافها و ما فیها من عبر و مبادیء إنسانیة عامة»، و أنه لا یقحم فی القرآن علی القرآن من رأی خارج عنه، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر، فجعل کلمات القرآن یفسر بعضها بعضا کما أطلق الحریة للقرآن فی أن یدلی بما یرید دون أن یحمل علی ما یراد.

و بهذه المثابة یصبح تفسیر القرآن تفسیرا للمسلمین جمیعا، و علیه یقام أساس التوفیق بین المسلمین أجمعین، و هی أمانة لا یضطلع بها غیر أهلها من القادرین علی الاستقلال بالفهم و علی مواجهة الخلاف بما ینبغی للمجتهد من الشجاعة الصادقة و وسائل الإقناع بإحسان، و ما ینبغی للمجتهد المعلم خاصة من الصمود إلی غایة التعلیم، و غایة المعهد العلمی الذی یتولاه.

وصف الإمام الفقید رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامی

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۲

الأکبر. فقال فی بضع کلمات: «إنه معهد الدین و حصن اللغة المکین».

و من أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الکریم، بل عرف المعجزة الکبری لهذا الکتاب فی ناحیة إعجازه التی لا مراء فیها، و هی معجزة الأثر الخالد التی نستطیع نحن- أبناء هذا العصر- أن ندرکها و أن یکون إدراکنا لها أقوی و أوضح ممن سبقونا إلی العلم بمعجزة الکتاب المبین.

معجزة الأثر فی ألف و أربعمائة سنة أقوی و أوضح من معجزته التی شهدها أبناء القرن الأول ثم شهدها أبناء القرون الأولی بعد عصر الدعوة ... فإننا الیوم نستطیع أن ندرک تلک المعجزة التی لا- نظیر لها و التی تقاصرت عنها الهمم و وقفت دونها دعوات الأفراد و الأمم، و تم بها ما یتم بعمل إله و قول إله، و هیهات أن یتم بجهد الإنسان بغیر معونة اللّه.

أربعمائة ملیون من بنی آدم فرقتهم الأجناس و اللغات و البقاع و الأزمان، و جمعتهم کلمات القرآن.

و کلمات حفظت اللغة التی نزلت بها و لیست هذه اللغة هی التی حفظتها، و لم یتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بکتاب واحد مدی هذه السنین، فلم تعش لغة الیونان خمسمائة سنة بکتاب هومیروس، و لم تعش لغة اللاتین بعض هذه السنین بلغة فرجیل و هوراس، و ذهبت لغة فارس و لغة الهند و فیها من الکتب ما لا یقرأه الیوم غیر کهان المحاریب، و ماتت لغات أخری کانت تعیش قبل الإسلام و بقیت لغة القرآن حیة فی عالم الدیانة و فی عالم الکتابة و فی عالم الثقافة، و ستحیا غدا کما حییت بالأمس، ماشاء اللّه، و صح فیها قول الأستاذ الفقیه: «إنها لیست فی هذا المقام عربیة الإقلیم و الجو و لا عربیة النسب إلی أصل ینتسب إلیه الجنس ... و صارت عربیة

الشخصیة المعنویة المکونة من عنصری العروبة و الإسلام ...».

و لما تکلم عن غایته من التعلیم فی المعهد الأکبر الذی تولاه قال:

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۳

«نرید تخریج تبریز لأئمة فی اللغة و فروعها و أئمة فی الفقه و أصوله، نریده تخریجا أساسه النظر العمیق و الاجتهاد العلمی الذی یکون الشخصیة الفقهیة و الشخصیة اللغویة العربیة، لا نریده تخریجا نلتزم فیه مخلفات الماضی من آراء و مذاهب بل یجب أن نجتهد و أن نؤمن بأن حاجة الیوم فی الفقه و اللغة و عقائد الدین غیرها بالأمس، و أن نؤمن بأن فضل اللّه فی کل ذلک لم یکن وقفا علی الأولین».

و نستعیر من أسلوب الفقید فنقول إن الاجتهاد کما أراده هو الاجتهاد بعناصر «شخصیته» علی تمامها کما ینبغی أن یضطلع به المجتهد فی جمیع العصور، و هو أتم من ذلک بالنسبة إلی عصرنا هذا الذی نعیش فیه، و بالنسبة إلی العصر المقبل الذی یواجهه المجتهدون عما قریب.

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له فی هذا العصر باعث یستدعیه لم یکن ظاهرا بهذا الجلاء و هذه الضرورة فی عصر من عصوره الماضیة.

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلی الکتاب المبین فی العصر الذی ارتفعت فیه حواجز الاستعمار الأجنبی و وجب أن تحل فی مکانها روابط القربی بین أمم الإسلام علی تباعد الدیار و تباعد الشیع و المذاهب التی لا بقاء لها مع توحید النظرة إلی کتاب المسلمین أجمعین ..

و ها هنا عنصر اللغة فی عصر النهضة العربیة و قوامها کله نهضة الثقافة العربیة التی تتحد بها ثقافة الإسلام فی جمیع اللغات.

و ها هنا عنصر «الاستقلال» فی عصر الحریة الفکریة أو عصر «الإنسان» الحر فی الجماعة الحرة، و قد مضت الجماعات فی طریقها إلی الخلاص من طغیان الاستبداد و طغیان الاستقلال.

و ها هنا العصر الذی أصبح فیه معهد الإسلام الأکبر کما قال الشیخ رحمه اللّه: «یضم السودانی، و المغربی، و الحبشی، و الیمنی، و الشامی،

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۴

و الفلسطینی، و الأندونیسی، و الترکستانی، و السعودی، و الأفغانی، و الترکی، و الروسی، و الیونانی، و الیوغسلافی، و الکردی، و العراقی، و الکویتی، و الإیرانی، و السیامی، و الباکستانی، و الفلیبینی، و الملاوی، و البرمی، و الأردنی، و اللبنانی، و الزنجباری، و الأوغندی، و اللیبی، و التونسی، و الجزائری، و المراکشی، و الأرتیری، و السنغالی، و الصومالی، و النیجیری» ... إلی غیر هؤلاء ممن وفدوا إلیه أو یتوافدون مع الأیام بلا انقطاع لا جرم کان من بشائر الأمل- کما أسلفنا فی غیر هذا الموضع- أن ینهض الشیخ شلتوت بمشیخة الأزهر فی الزمن الذی تفتحت فیه الطرق بین البلاد الإسلامیة بعد أن تحررت من الطغیان الأجنبی علیها و بین هذا المعهد الذی لا معهد فی العالم الإسلامی أولی منه بضم الشمل و تقریب مسافة الخلف بین المسلم و المسلم حینما کان فی أقاصی البلدان.

«و من عرف الإمام الفقید عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غیر علمه الغزیر و شجاعته الصادقة، و هو زاد القلب الطیب و السجیة الکریمة، تجمع الخصوم علی الألفة و الثقة کما تجمع الأصحاب و الأنصار».

و لقد عرفنا الشیخ الأکبر سنوات فی مجمع اللغة العربیة فتعودنا أن نعرفه «قرآنیا» فی دراسته لأسرار اللغة، قبل أن نعرفه «لغویا» فی دراسته لأسرار القرآن، و کنا نسمعه یقول: إن القرآن معجز بما هو به قرآن، و یعنی بذلک نسقه الذی ینتظم ألفاظه و معانیه و یوحی من معانیها بما لیس فی مفردات الکلم و لا فی أجزائه التی یقتضیها الإعراب فی کل عبارة ..

فلیست الکلمة الواحدة هی محل إعجاز، و لیس محل الإعجاز هو الکلمتین أو الکلمات الثلاث التی تتم بها جملة الفعل و الفاعل أو

المبتدأ و الخبر و الجار و المجرور أو المضاف و المضاف إليه، و لكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو و الصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى و الوجدان، و بين الوحى و البصيرة، مما لا تدركه و لا تبلغ إليه بلاغة الإنسان. و بهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتابا للمسلمين جميعا يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف، أو

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۵

يختلف فيه المختلفون و لكن كما يختلف العقل الواحد بينه و بين نفسه فى و جهات نظره بين حين و حين، و بين اعتبار و اعتبار.

و بهذه النظرة «القرآنية» عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه الدروس بمعاهد التعليم، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية و علاقته ببلاد العرب أجمعين. و الجديد فى خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية، أو اللغة القرآنية، شىء يتعلمه العربى المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربى، فلم يكن على المسلمين غضاضة فى هذه المساواة الشاملة، و لم يكن للعربى إيثار على غيره؛ لأن عروبته فى هذا المنهج هى عروبة القرآن الذى يتساوى فيه المسلم و المسلم من كل جنس، و بكل لسان.

تولى مشيخة الأزهر بعد استقالة الشيخ عبد الرحمن تاج عام ۱۹۵۸، و قد رحب بتوليه المشيخة العالم الإسلامى كافة، و ظل فى المشيخة سنوات عديدة، و فى عهده صدر قانون تطوير الأزهر الشريف

و قام برحلات كثيرة إلى بلاد العالم الإسلامى.

كان شيخ الأزهر محمود شلتوت على موعد لا يستطيع أن يتخلف عنه .. و تحدد هذا الموعد بالذات فى (ليلة الإسراء) و (ليلة الجمعة) و فى مستشفى العجوزة .. و فى نهاية اللحظة الأخيرة لسبعين عاما، و سبعة اشهر، و عشرين يوما و خمس دقائق .. فقد صادف ميلاده الساعة التاسعة و الدقيقة العشرين من مساء ۲۲ ابريل ۱۸۹۳ فى منية بنى منصور بمحافظة البحيرة .. كانت الدقائق الخمس هى مدة النوبة القلبية المفاجئة التى أسلم فى نهايتها روحه إلى بارئها فى ۱۳/ ۱۲/ ۱۹۶۳.

لم يكن الشيخ مرحا فى يوم من الأيام أكثر منه فى اليوم الأخير فى حياته .. فقد أفاق من العملية التى أجريت له فى الصباح بعد ۳ ساعات من إجرائها و دعا أسرته .. و ظل ينادى كلا منهم باسمه و يداعبه .. كما استدعى أحفاده الصغار و ظل يداعبهم و يبتسم لهم ابتسامة عريضة لم تفارق شفتيه طول اليوم حتى فاجأته النوبة.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۶

و كان آخرما عرضه عليه سكرتيره الخاص أحمد نصار و نجله المقدم الهادى شلتوت رسالة رقيقة من الخارج .. من الرئيس أحمد بن بيللا رئيس الجزائر، و برقية داخلية بعث بها من طهطا محمود عبد العزيز رفاعة يستفسر فيها عن صحة شيخ الإسلام.

كما كان آخر ما كتبه بخطه ترجمة كاملة لحياته طلبتها إحدى المجلات فى الخارج و بحثا جديدا عن تنظيم النسل و حقوق المرأة فى الإسلام و صلاحية المرأة المسلمة للمساهمة فى بناء المجتمع.

و كانت آخر الدعوات التى تلقاها الشيخ شلتوت من الخارج و لن يتمكن من تلبيتها هى دعوات لزيارة الهند و يوجوسلافيا و جنوب أفريقيا و الجزائر و اليمن و إيطاليا و ألمانياغ.

كان الشيخ شلتوت دائما محل تقدير العالمين الإسلامى و المسيحى.

و قد تلقى أخيرا عرضا من إحدى دور النشر ب ۰۰۰، ۱۵ جنيه لترجمة بعض كتبه إلى اللغات الإنجليزية و الفرنسية. كما ترجمت له عدة دول كتبه التى اصدرها و تعتبر مراجع هامة فى الشريعة الإسلامية.

و خلال رحلته الأخيرة للشرق الأقصى عام ۱۹۶۱ وضع رئيس جمهورية الفليبين طائرته الخاصة و ياوره الخاص تحت تصرفه طوال رحلته ..

و فى مؤتمر لاهاى عام ۱۹۳۷ تمكن بأبحاثه التى قدمها للمؤتمر ان يحصل على قرار إجماعى بصلاحية الشريعة الإسلامية مصدرا للتشريع فى العالم.

و قد منحته أربع دول الدكتوراه الفخرية كما منحته أكاديمية شيلى درجة الزمالة الفخرية و أهدى إليه رئيس الكاميرون قلادة تقديرا لأبحاثه العلمية. و كان الأجنبى الوحيد الذى رأس المجلس الأعلى لجمهورية أندونيسيا أثناء وجوده هناك. كما أصدر قرارا خاصا بتعيين قائد الجيش و وزير الدفاع إماما لمسجد سوكارنو بالقصر الجمهورى. و قد زاره فى منزله

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۷

بمصر الجديدة عدد كبير من زعماء العالم الإسلامى و رؤساء الدول، منهم الرؤساء عبد السلام عارف و السلال و أحمد بن بيللا و الإمبراطور هيلاسلاسى إمبراطور الحبشة.

إن نواب الرئيس و أعضاء مجلس الرياسة و رئيس المجلس التنفيذى و الوزراء أبو إلا- أن يشيعوا جنازته سيرا على أقدامهم من المسجد لازهر حتى الامام الشافعى تكريما لرحلته الأخيرة التى ترك وراءها أماكن خلت بفقده هى عضوية كبار العلماء التى شغلها عام ۱۹۴۱ و عضوية المجمع اللغوى التى شغلها عام ۱۹۴۶ و عضوية المؤتمر الإسلامى التى شغلها عام ۱۹۵۷ و عضوية مجلس الإذاعة الذى شغله عام ۱۹۵۰ و مشيخة الأزهر التى شغلها عام ۱۹۵۸.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۸

الشيخ حسن مأمون

الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر. صدر قرار جمهورى فى شهر صفر ۱۳۸۴ ه يوليو ۱۹۶۴ بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخا للأزهر، و يعتبر فضيلته الشيخ التاسع و الثلاثين فى تعداد شيوخ الأزهر، و من الجدير بالذكر أن منصب شيخ الأزهر شاغر منذ ۱۳ ديسمبر الماضى إثر وفاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

و فضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون من مواليد عام ۱۸۹۴ بحى الخليفة بالقاهرة، و ظل يعمل فى مناصب القضاء بمصر و السودان خمسة و أربعين عاما، و فى عام ۱۹۴۱ عين قاضيا لقضاة السودان و ظل فى منصبه ست سنوات عاد بعدها إلى القاهرة- بعد موقفه الوطنى المعروف- رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية، ثم عضوا فى المحكمة الشرعية العليا ثم نائبا لها ثم رئيسا، و فى عام ۱۹۵۵ عين مفتيا للديار المصرية خلفا لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين مخلوف إلى أن أحيل إلى الاستيداع.

و كان أن صدر القرار الجمهورى فى أواخر شهر يوليو الماضى بتعيينه إماما أكبر و شيخا للجامع الأزهر.

و ينص قانون تطوير الأزهر الذى صدر فى يونيو ۱۹۶۱ على أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر و صاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشئون الدينية و المشتغلين بالقرآن و علوم الإسلام، و له الرياسة و التوجيه فى كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية، و يرأس المجلس الأعلى للأزهر.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۴۹

و قد صدر مع القرار الجمهورى قرار آخر فى ۱۴ يوليو ۱۹۶۴ كان لصدوره بتعيين العالم الأديب فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى مديرا لجامعة الأزهر هزة سرور غمرت الأوساط الأزهرية و غير الأزهرية.

و الذى لا شك فيه أن الجامعة الأزهرية فى تطورها الجديد- حيث أريد لها أن تدخل معترك الحياة فى شتى ميادين المعرفة، كانت فى حاجة إلى عالم أديب كالشيخ الباقورى، عرف عنه بالإضافة إلى علمه، سعة أفقه، و مرونة تفكيره، و تمتعه بطاقة كبرى من الحيوية و النشاط.

الأزهر فى ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۰

الأستاذ الأكبر الشيخ محمّد الفحّام

اشارة

تقدم الاستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون استقالته من المشيخة و عين الشيخ الدكتور محمد الفحام شيخا للأزهر و ذلك يوم الثلاثاء ۴ رجب ۱۳۸۹ ه- ۱۶ من سبتمبر ۱۹۶۹.

لقد ولد الدكتور محمد الفحام بالإسكندرية فی ۱۸ من سبتمبر سنة ۱۸۹۴ م و سلك فی تعلمه المسلك الذائع فی عصره، فحفظ القرآن الكريم، ثم لحق بمعهد الإسكندرية الدينی، و قضی به سنوات حصل فيها على شهادته الابتدائية و الثانوية، ثم درس بالجامع الأزهر و نال شهادته العالمية سنة ۱۹۲۲ م.

فلما كانت سنة ۱۹۳۶ م اختار الأزهر بعثة من خير المتخرجين فيه ليدرسوا فی باريس دراسة تمكنهم من الحصول على الدكتوراه فی الآداب، فكان منهم الدكتور محمد الفحام.

قضی فی باريس هو و أسرته عشر سنوات، صبر فيها على ما لقی من شدائد فی ظلمات الحرب العالمية الثانية، حتى حصل على الليسانس من السوربون، و على عدة دبلومات ثم حصل على الدكتوراه فی الآداب بدرجة الشرف الممتازة من جامعة باريس سنة ۱۹۴۶.

أما موضوع رسالته فكان (معجم عربی فرنسی لا صطلاحات النحويين و الصرفيين العرب) و كان هذا المعجم مناط تقدير الأساتذة و المستشرقين

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۱

و ثنائهم، حتى إن أحدهم قال له: لست أظن أن عالما زار فرنسا أكثر إلماما باللغة العربية منك.

و عاد الشيخ إلى مصر. فوجد شهرته العلمية قد سبقته، فنهض بتدريس الأدب المقارن لطلبة كلية اللغة العربية بالأزهر، و بتدريس النحو بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية. و ما زال يتدرج فی وظائف التدريس حتى صار عميدا لكلية اللغة العربية إلى أن أحيل إلى التقاعد.

و حينئذ لم يركن إلى ما يركن إليه بعض المتقاعدين، بل انكب على البحث و الدرس فی مكتبته الخاصة، نحو عشر سنوات، إلى أن اختارته الدولة إماما أكبر للأزهر الشريف سنة ۱۹۶۹ م، ثم انتخبه مجمع اللغة العربية عضوا به و احتفل باستقباله فی ۱۲ من صفر سنة ۱۳۹۲ ه (۲۷ من مارس سنة ۱۹۷۲ م).

و شاء اللّه سبحانه و تعالى أن يرتبط الفقيد بالعالم العربی و الإسلامی ارتباطا فكريا و عمليا فقام برحلات متعددة إلى كثير من الأقطار. زار لبنان، و مثل الأزهر فی مؤتمر ثقافی سنة ۱۹۴۷، و سافر إلى نيجيريا موفدا من الأزهر لدراسة أحوال المسلمين بها، و اقتراح حلول لمشكلاتهم، و قضى هنالك خمسة أشهر، و لم يثنه عن السفر ما زعمه له بعض المبشرين المسيحيين الذين زاروا نيجيريا من قبل أنها مقبرة الرجل الأبيض، بل خرج من داره يتلو قول اللّه تعالى: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً».

و كانت رحلته ذات آثار طيبة، إذ اختار بعض أبناء نيجيريا ليتعلموا بالأزهر، و تخير طائفة من علماء الأزهر ليدرسوا هنالك، و لم تلبث نيجيريا أن حفلت بعدة مدارس و بكثير من المعلمين العرب و القضاة العرب.

و بعد ذلك سافر إلى باكستان ثلاث مرات اتصل فيها بكثير من علمائها، و زار كثيرا من مدارسها و معاهدها و مكتباتها.

ثم اتجه إلى موريتانيا، و أسهم فی إنشاء مكتبة إسلامية كبيرة بها و شارك فی مناقشات إسلامية، منحوه بعدها و ثيقة مواطن موريتانی.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۲

کذلک سافر إلی إندونیسیا ثلاث مرات ممثلا للأزهر، و سافر إلی أسبانیا و السودان و الجزائر و إیران و لیبیا، و زار السعودیة خمس مرات، مرتین للعمرة و ثلاثا للحج.

و للدکتور الفحام مؤلفات قیمة.

أذکر منها مذکراته فی الأدب المقارن لطلبة کلیة اللغة العربیة بالأزهر، و مذکراته فی النحو لطلبة کلیة الآداب بجامعة الإسکندریة التی ذللت مسائله المعقدة، و سهلت صعوباته.

و له کتاب عن سیبویه.

کذلک تفوق فی دراسة علم المنطق، فألف رسالة سماها (رسالة فی الموجهات) و هو طالب بالسنة الثانیة الثانویة، جمع فیها بین العلم و سهولة عرضه، فأعجب زملاؤه بما کتب، حتی إن طلاب شهادة العالمیة المؤقتة نهلوا من معین رسالته.

و کذلک تفوق فی دراسة الجغرافیة.

و له بحوث نشر بعضها فی مجلة مجمع اللغة العربیة مثل:

۱- الشیخ خالد الأزهری:

ذکر فیه المصادر الاثنی عشر التی تحدثت عنه، و عرض أسماء أساتذته، و أسماء مؤلفاته الستة عشر التی وصلت إلینا، و منها المقدمة الأزهریة، و شرحها، و إعراب الأجوبة و شرحها.

۲- بحث آخر موضوعه سیبویه:

بدأه ببیان معنی کلمة سیبویه، فنقل ما ذکره القدماء، ثم نقل ما ذکره المستشرق کرنکو، و لم یعتمد علی ما ذکره المستشرق، بل سأل علماء اللغة الفارسیة، و انتهی إلی ترجیح أن کلمة سیبویه معناها تفاحة صغیرة لا رائحة التفاح، کما هو ذائع شائع.

و بعد هذا التمهید الشائق ذکر عدة من العلماء اسم کل منهم سیبویه هم

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۳

سیبویه الأصفهانی، و سیبویه المغربی، و سیبویه المصری.

ثم انتقل إلی شیخهم سیبویه البصری إمام علماء البصرة، و شیخ النحاة، و أول من لقب بهذا اللقب، فتحدث عن مولده و مکانه و تلامیذه و المناظرة التی کانت بینه و بین الکسائی.

سافر رحمه اللّه إلی فرنسا، و نال منها أرفع درجاتها العلمیة، و عاش فیها عشر سنوات، کان من المظنون أن تغیر من عاداته و من صلاته و من مظهره، وزیه، و لکنه عاد إلی مصر حریصا علی أخلاقه الإسلامیة الرفیعة، و کلفا بعاداته الطیبة التی ورثها من مصر المسلمة العریقة، و مشوقا إلی زیه العربی الذی یمیز علماء الأزهر، فلم نره إلا معمما و فی جبة و قفطان، و قد یستعیض عن الجبة المعطف السابغ الذی یسمی کاکولة.

و لم یکن یتعالم بمعرفته الفرنسیة و بإجادته لها، فیتکلف الرطانة بها حیث لا مسوغ لرطانة، و یتصید المفردات منها لیحشرها فی حدیثه حشرا حیث تسعفه الألفاظ العربیة. و لیس من عیب علی العالم باللغات أن یستشهد بها، و أن یستعین إذا ما مست حاجته أو دعت مناسبة أو کانت ثمة مقارنة و استشهاد.

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۵

الموضوع الصفحة

آراء المفکرین فی الأزهر ۵

تصدیر ۷

المقدمة ۹

الباب الأول: الأزهر خلال التاریخ ۱۱- ۱۷۲

الفصل الأول: مصر قبل إنشاء الأزهر ۱۳- ۱۸

الفصل الثانی: مصر فی ظلال الدولة الفاطمیة ۱۹- ۲۶

الفصل الثالث: تأسیس الأزهر و بدء حیاته الجامعیة ۲۷- ۴۰

الفصل الرابع: الأزهر فی ظلال الفاطمیین ۴۱- ۸۰

الفصل الخامس: الأزهر فی عهد الدولة الأیوبیة ۸۱- ۹۰

الفصل السادس: الأزهر فی ظلال دولتی المماليک ۹۱- ۱۱۴

جلال الدین السیوطی ۱۰۹

الفصل السابع: الازهر فی عهد الدولة العثمانیة ۱۱۵- ۱۵۰

الشهاب الخفاجی المصری ۱۳۵

الفصل الثامن: الأزهر بعد الحکم العثمانی ۱۵۱

فحول العلماء فی قرنین ۱۶۶

الباب الثانی: تاریخ الأزهر الحدیث ۱۷۳- ۲۲۲

الأزهر فی ألف عام، ج۱، ص: ۳۵۶

الفصل الأول: القوة الشعبیة ممثلة فی الأزهر ۱۷۵

الفصل الثانی: بعد الثورة العرابیة ۱۹۵

الفصل الثالث: الأزهر و الحرکة الوطنیة عام ۱۹۱۹ ۱۹۹

الفصل الرابع: الثورة المصریة الثالثة و الأزهر ۲۰۷

ثورة فی الأزهر ۲۱۰

النوابغ الذی تخرجوا من الأزهر ۲۱۲

اشهر رجال الأزهر فی القرن الرابع عشر ۲۱۴

نظرة إلی المستقبل ۲۱۶

ثورة التطویر فی الأزهر ۲۱۹

الأزهر الجدید ۲۲۱

الباب الثالث: شیوخ الأزهر ۲۲۳- ۳۵۳

الفصل الأول: مشیخة الأزهر و شیوخه ۲۲۵- ۲۵۸

الفصل الثانی: تراجم لبعض شیوخ الأزهر ۲۵۹

الشیخ الظواهری ۲۵۹

الشیخ المراغی ۲۶۴

الشيخ مصطفى عبد الرازق ۲۸۰
الشيخ الشناوى ۲۹۶
الشيخ عبد المجيد سليم ۳۰۶
الشيخ حمروش ۳۰۸
الشيخ الخضر حسين ۳۲۸
الشيخ عبد الرحمن تاج ۳۳۷
الشيخ شلتوت ۳۳۹
الشيخ حسن مأمون ۳۴۸
الشيخ محمد الفحام ۳۵۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹